ثلاثيّة عبد الجليل الغزال

صحبة الطير

أحمد علي الزين

رواية

دار الساقي

أحمد علي الزين

صحبة الطير

ثلاثيّة عبد الجليل الغزال

رواية



دار الساقي
بيروت ـ لندن

صحبة الطير

في الجزء الثاني من هذه الثلاثية، يواصل عبد الجليل الغزال متاهته بعد نجاته من سجنه الصحراوي، ويزاول سرد حكايته لكلبه. يصل إلى مسقط رأسه وادي الدموع، حيث لا شيء في الوادي سوى الهجر. بقايا خرب وآنية وجذوع نخيل تذكّر بيوم شتات أهله ورحيلهم إلى تلة سليمان، موطنه الثاني، مطارح الحب والحكايات والمواسم والغناء الرعوي.

بقايا أشياء تذكر بحياة جفّف ماءها وأباد شجرها وأحرق حظائرها حاكم جائر.

... ويمشي عبد الجليل، ويروي، ينجو من فخ ويقع في آخر، وفي المرة هذه تختطفه عصابة تكفيرية تكلفه بعملية قتل مقابل الإفراج عنه.

صحبة الطير مرثية لعالم مليء بالقسوة والجريمة، ونشيد في الحب والحرية.

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

خطوط العناوين: علي عاصي

الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-647-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٢٠٣٣ ـ ٦١١٤
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

إلى أهلي وصحبة عمري

تحتاج لألف عام كي تصبح مسلماً،
ولألف عامٍ أخرى كي تصبح إنساناً.

ابن عربي

وعرّجت عليّ المنون مراراً وعافتني،

إذ كنت بدناً هشّاً لا يشبع الطير.

عبد الجليل الغزال

الجـزء الأول

بلدتي
من سمّاها وادي الدموع
يا جدّتي

تثاءبت الصحراء. تمادت في الوحشة.

عزّ عليّ ما أنا فيه.

كنت مكوّماً كصرّة من أسمال بالية، هكذا بدوت لنفسي وأنا مستسلم لهبوب خفيف، محمّل برائحة المطر. بالقرب مني صاحبي، كلبي، رفيق متاهتي، زائغٌ في السراب، يختلط اطمئنانه بحذر مباغت.

غيم بطيء في الأفق، هو الأخير حذر متردّد... أدكن عنيد.

عنّت على بالي جدّتي، لا أعرف ما الذي استدعاها من النسيان بصوتها الشجي الغائر في الحنين:

يا نسيم الصبا سلّم ع البلاد

كبروا اللي ببالي بعدن ولاد

تركتن ع يوم العيد وتيابن جداد
وفرق ما بينّا النوى وهدّني الحداد

غنّت جدّتي، وهي تلوّح بيدها الناحلة، وشمها ظاهر وعتيق، وصوتها جريح درّبه الهجر الطويل على مقام النوى بسخاء.

غنّت يومها وتركت خلفها سحابة طويلة من الوجع، لفّت الصحراء وطوّقت أعناق جبال الشمال الغربي، ارتعش الشجر وتساقط ثمر بري.

كنا في طريقنا إلى تلّة سليمان في أول أيام الشتات، تنقلنا البغال، وهي تطحن الحصى بحوافرها، فيفرقع وتفرّ من المنبطحات والأدغال أزواج من الحجال.

كنا نصعد الجبال الغربية للبادية، وأبي، كما رويت لك، يعلّمني أسماء الشجر والطير.

عندما قطعنا الحدود، يومها، غنّت جدّتي، طلب منها والدي أن تغنّي بعض الفراقيّات. فغنّت، وعصرني شيء غامض، عصر قلبي.

كنت أتأرجح خلفه على بغل أسود «متشاوف»، تتوسّط جبينه تحت الغرّة الهادلة، نجمة بيضاء نقيّة متوهّجة، قال عنها والدي: إنها علامة خير، أنْ ركبنا مطيّةً منجّمة، لها نجمة بيضاء على الجبين. جدّتي في المقدّمة على بغلة حمراء، مزيّنة بطوق من الخرز في عنقها، لها خطّ رمادي منسحب من الغرّة عند فروة الرأس إلى أنفها، منسحب كالسطر

على صفحة ملوّنة. جميلة بغلة جدّتي. أما أمّي فكانت تمتطي بغلةً برشاء، قال عنها والدي «معشري»، أي حامل في بداية حملها. سألت أمّي هل يجوز أن تركب دابّةٌ حبلى، أجابني أبي على الفور أنها تتحمّل أكثر من الناس، «الله خلقها لهذه الغاية وسخّرها لنا مثل أشياء كثيرة». في الحقيقة، آنذاك، لا أعرف إن كنت صدّقتُ أن البغلة التي تمتطيها أمّي، قد خلقت لهذه الغاية، وكنت بين الحين والآخر ألتفت خلفي، أتمعّن في عينيها الذابلتين الحزينتين، وأقول في سرّي لا بدّ أنها تتألّم تحت حملها. على كل حال، أذكر أن أمّي كانت نحيلة وضامرة، دائماً يقول لها والدي: «صايرة مثل عود القصب يا مرا»! فتجيبه: «القصب كل ما عتق بيحنّ»، وتغنج، فيضحك والدي ويضيف: «وبتقولي كمان يا مقصوفة العمر»! ويقصد أنها تقول الشعر، فتسأله: شو قولك؟

... ويعلو مزاج طربي يشبه الشجن، أو غيمة عالية...

كل أهلي شعراء، ويغنّون، لكن جدّتي هي في مستوى الفحول، حسب معايير مراتب الشعراء، كما كان يصفها حسن الزيّات شاعر الزجل، في جلسات العشيّات الواقعة على طرف الهناءة. «أنت من فحول الشعرا يا ليزا»! يقول الزيّات فتمازحه جدّتي وتجيب: وإنت الكرّاز يا زيّات يا بو فتيلة مفحمة... سراجك فاضي ما بتقشع مغنمة». كانت جدّتي تدبّرها على الفور، ترتجل وتبزّ الزيّات ويعلو الهرج قليلاً ثم يتلاشى.

يبدو أن الحزن عتيق في وجدان أهلي طارد للهناءات.

كنا في ذلك اليوم قد ركبنا البغال، بعد يوم طويل، متوتّر، كثيف

الصمت الذي كان يجرشه هدير الشاحنة العسكرية التي ركبنا فيها وموّهت هروبنا من وادي الدموع، ونطقت يومها بأول اسم مستعار، عندما سألني العسكري على الحاجز عن اسمي، قلت له يوسف، وكان والدي قد طلب مني التظاهر بالخرس التامّ كي لا أفضح حيلة الهروب، ولكن حين أدخل العسكري رأسه من نافذة الشاحنة ونظر في عينَيّ، سحرني، لذلك عندما قال لي شو اسمك انت؟ قلت له يوسف، فوراً، ودون تفكير، الآن أفكر لماذا يوسف؟ لماذا حضرني هذا الاسم؟ هل له علاقة بسورة يوسف، في الحقيقة لا أعرف ولا يهمّني أن أعرف.

أذكر بعد ذلك غمز العسكري بعينه، ابتسم لي وقال: «بالسلامة إن شاء الله».

تابعت بنا الشاحنة حتى سفوح جبال جرداء حيث كان ينتظرنا رجلان ملثمان، يمتطيان الخيل، ومعهما أربعة بغال.

قال والدي: «هودي الشباب اللي بدنّ يقطّعونا الحدود». ترجّلنا من الشاحنة، وعلى الفور ركبنا البغال، وحمّل والدي على البغلة الرابعة، بعض ما استطاع حمله من وادي الدموع، صرراً من ثياب وأغطية وأكياساً صغيرة من الحبوب وقصعة فارغة «وَقِفّة» من التمر وبسطاً وعباءات. والحمل الأكثر ثقلاً كان تلك الحسرات التي لا مطيّة لها سوى القلب، كانت تطلقها جدّتي تنهّدات محمومة، أو غناءً، دائماً كان يعصر قلبي، ويبلغ السحاب.

... ثم صعدت بنا البغال تلك الجبال الشاهقة المعمّمة بالغيوم، لتنحدر بعد ساعات نحو سهل فسيح، ينتهي إلى البحر... كنت للمرة الأولى أرى البحر، بعيداً تلمع صفحته الزرقاء تحت شمس ذلك اليوم كمرآة عملاقة.

قال والدي: هذا هو البحر. شفتو؟ سألني، أجبته: نعم، هو كبير كتير يا بيي، أكبر من النهر بوادي الدموع؟ مش هيك؟ ضحك والدي وقال: شوي!

عرفته لاحقاً يوم أتيت بيروت وغادرتها في شتات آخر إلى قبرص باسم «عزت جميل القصاب»، اسم آخر مستعار اختاره لي في المرة هذه، قائد الفرقة في الجبهة الشعبية التي انضممت إليها، يوم غادرت تلّة سليمان، بعد مقتل والدي وموت مريم. يومذاك لم أمانع أن أكون «عزت جميل القصاب» لكني تمنّعت عن حمل السلاح، قلت له إني أكره السلاح، ثم إنّ الشعر والرصاص لا يلتقيان يا رفيق، أجابني: كل شعر، إن لم يكن مقاوماً، مصيره مزبلة التاريخ، مثل قصائدك التافهة التي كلها غيم وشجر وماء وحنين، أين الشهداء، أين الدم، أين الكرامة، أين المروءة؟ هذا شعر منايك الشعر اللي بتكتبو.

لم تطل إقامتي في الفرقة يومذاك، غادرتها غير نادم، وتلك قصة أخرى. على كل حال، لا أعرف ماذا حلّ بمصير قصائدي التي تركتها في بيت هدى في وادي أبو جميل في بيروت. لا أعرف إذا كان مصيرها مكبّات النورمندي حيث كانوا أيضاً يرمون جثث القتلى، أم واجهت مصيراً آخر.

لا أعلم. لا أعلم على الإطلاق ماذا حدث في هذا الغياب الطويل، الطويل...

* * *

أذكر حين أشرفنا على السهل طلب والدي من جدّتي أن تغنّي، غنّت جدّتي يومها. تنهّدت أمّي. وتنهّد الزمان.

هكذا أستعيد تلك الأيام وأنا الآن على حدود وادي الدموع، مسقط رأسي، حيث كانت تحملني جدّتي على ظهرها، لألتقط من نخلة الدار حبّات شهيّات. وتغنّي لي «العدّية»:

إركب ع ضهر الحمارة

ع ستّك هـ الختيارة

إركب يا أبو الغرّة

اعمل ع ضهري صرّة

والصرّة إسما عبدو

وهيدي بوسة ع خدو

وتنزلني بعد أن أكون فزت بقطف الحبّات، حبّات البلح، تقبّلني على جبهتي، ثم تعصرني على قلبها، فيعبق من صدرها عطر عشبي.

سلام عليكِ يا جدّتي.

كان صمت والدي كثيفاً في أيام الشتات، وعلى طول الطرق التي قطعناها، وقد عداني بصمته، فصرت أقتصد بأسئلتي، وباستفساراتي عن

الأشياء، عن الجهة التي نقصدها، عن بعدها، عن أسماء الأمكنة التي نمرّ بها، عن الشجر والطير، حتى عن البحر الذي أدهشني وهو يتلألأ بعيداً مرآة هائلة. سرّ لم أفكّ لغزه حتى وقت بعيد. لكن والدي بين حين وآخر كان يجيب عن بعض تلك الأسئلة الصامتة التي تعبر في بالي، لكأنه كان يحسّ بي وبأفكاري، خاصة حين أتململ خلفه، أو أتنهّد، مقلّداً جدّتي، كان يشعر بأن سؤالاً وصل إلى لساني وبلعته، كي لا أخرب صمته، وأشوّش أفكاره، فكان يقول لي مثلاً: هذا شجر اسمه «الطنوب»، حلو ما هيك؟ أجيبه، نعم، حلو. والطنوب شجر شاهق وعتيق يقع ما بين الأرز والشوح. وحين مررنا بغابة الصنوبر قال لي والدي: هذي وادي الزمان. رنّ الاسم في مخيّلتي الفتيّة، آنذاك، وسألت: من سمّاها يا أبي وادي الزمان؟ سكت أبي، لكن اسمها بقي يتردّد في بالي ويحيّرني حتى الآن. عرفت حكاية وادي الدموع، ونهر العجائب. أما حكاية وادي الزمان فلا أعرفها، لكني أتخيّل الآن أن الزمان بدأ تموضعه في هذا الوادي السحيق، قبل أن ينطلق في الكون، ليؤلّف النجوم والأيام والغيب، وتراه يتسلّى بالشهب في حالات سأمه، يرشقها من سمائه، نحو الوادي الذي حمل اسمه، ليدغدغ طفولته النائمة في الأدغال.

إنه مجرد شطح من خيالي الشعري يا فرند.

المهمّ.

كان والدي هو أيضاً يقتصد في إجاباته عن أسئلتي المحتملة أو التي يتوقّعها، فيقول لي حين يفرّ زوج من الطير جافلاً من فرقعة حوافر

البغال وتطاير الحصى، هذا هو الحجل، حلو؟ أجيبه: نعم حلو. ثم يسكت والدي، وتزاول جدّتي تنهّداتها، وأمّي بين حين وآخر تتذكّر أغراضاً كان يمكن حملها من وادي الدموع، صوراً عتيقة للأهل، وأوراق ميراث وآنية، احتفظت بها في صندوق الجهاز منذ أيام عرسها...

يا حسرة، تركنا كل شي، تقول وتتنهّد.

حلوة كانت أمّي، هي أيضاً كانت تغنّي لكن حياءها كان يغلب رغبتها في الغناء، ومقتل أخي دفن تلك الرغبة. أذكرها ترندح لي قليلاً في العشيّات وبصوت موجوع:

هيهات يا بو الزلف عيني يا موليّا

فلو الحبايب بكير قبل الصبح بشويّه.

وتكرج دمعتها.

تغيّر كثيراً مزاج أهلي بعد مقتل أخي، وجاء شتاتنا من وادي الدموع ليزيد حملهم وحسراتهم، فصاروا أكثر انكساراً وصمتاً وضموراً، حتى حركاتهم فقدت حيويّتها، وكلامهم شحّ مثل آمالهم، يستذكرون إن حكوا، من رحلوا والبلاد التي تركوها خلفهم للهباء. أما غناؤهم فهو حزين على الدوام مصحوب بغيم أدكن.

آخ يا أمّي.

لازمة كانت تردّدها أمّي في كل أحوالها وتغور في الصمت.

* * *

لا أعرف ماذا حلّ بأمّي، لم أرها منذ خمسين سنة.

يا إلهي كم أكلت مني الأيام، لا أعرف ماذا حلّ بها، ترى أما زالت تنتظر عودتي أم أن الموت طواها؟ لقد أخبرتك عن أمّي يوم رحيلي من تلّة سليمان، سوف أخبرك المزيد عنها.

هل تذكر أمّك يا فرند؟ يقال أنتم معشر الكلاب تتمتّعون بذاكرة هائلة، قل لي، ماذا تذكر عن أمّك وإخوتك؟ لاح بذيله وهو ممددٌ، فأثار زوبعة هزيلة من الغبار، غمز بعينه وتثاءب، وعاود لهاثه. بدا لي فرحاً بصحبتي، ودائماً اطمئنانه مشوبٌ بشيء من الحذر.

جميل أنت أيها الحقير! لا أنكر كم خفّف هذا الكائن من أحزاني، وأسعدني، جلب لي نوعاً من الفرح الذي يوازي الماء في حالة العطش.

أشكرك يا صاحبي على احتمال بعض آلامي. شكرته وسكتُّ.

هبّ نسيم خفيف داعب وجهي وغرّته، تحفّز وحرّك أذنيه! حرّكت الرمل بعكّازي، كتبت عليه ما جال بخاطري من أشواق. هكذا كنت أخطّ وأمحو أو أترك آثار كلامي على الرمل تتكفّل بها الريح، وتلك واحدة من خصالي القديمة.

ثمّ...

سمعت جرشاً حمله الهواء من ناحية الغرب، صار يصل مرّةً شحيحاً خافتاً، ومرّةً واضحاً قويّاً. انتفض فرند وقفز دفعة واحدة. نبح. شممت رائحةً تشبه رائحة السجن. ارتعش قلبي، اقترب الصوت، صار أكثر

وضوحاً، تحفّز فرند للانطلاق واشتدّ نباحه، هدّأته، أسكته، أردت أن لا يكشف بهواشه عن مكان وجودنا.

وقفت على حيلي كما يقال، اتّكأت على عكّازي، وضعت راحتي أسفل جبيني، ظللت العينين من الوهج، وجلت بنظري في الأفق، كراعٍ يتفقّد تمادي قطيعه في التوغّل. شاهدت كتلة غبار تتحرّك على خطّ الأفق نحو الشمال، لكأنها زوبعة أو مقدّمة إعصار.

أحسست برعب ممزوج بالأمل، خليط عجيب.

خفق قلبي، لمعت سكّة الحديد أكثر وبرقت أفكاري. وسكّة الحديد هذه، كثيراً ما كانت تحمل تخيّلاتي إلى أماكن قصية، هنا في وادي الدموع، حين كنّا صغاراً نجري بموازاة ذلك القطار الذي ينفث دخانه، ويطلق صفارته الناحبة، ويغيب نحو الشرق. كنت لا أعرف من أين يأتي وأين يغيب في هذا الأفق. كانت جدّتي ليزا تقول لي: «إنه يأتي من الشام ويذهب إلى الهند».

لكن هذا الشيء الذي يجرش الصمت ويمرّ على خطّ الأفق، ليس قطاراً، لا يشبه على الإطلاق ذلك القطار الذي كنّا نجري خلفه، أو بموازاته، ونعود خائبين بعد ابتعاده وإمعانه في النحيب.

حدّقت أكثر، وأحسست برغبة في أن أنادي وألوّح لهم بعكّازي، وأرفع على رأسه خرقة من أسمالي وأنادي:

يا... ها... يا هو... يا سامعين الصوت... يا... ناس.

فتحت فمي لأفعل ذلك، تنازعني الرعب والأمل وتعادلا، فعدلت،

وتركتهم يعبرون. غابوا في البعيد وتلاشى غبارهم كما الأمل، كما دخان ذلك القطار الذي كان يحمل تخيّلاتي إلى عالم غامض عندما كنت صغيراً وأسأل جدّتي عن وجهته، بعد فشلي في اللحاق به.

تلاشى الغبار في الأفق، حينها أدركت أن وادي الدموع ما زالت على مقربة من عالم مأهول، وأني في موضع قريب من حيث يوجد البشر.

تلاشى الغبار وغاب الصوت. بدأت بترجيحاتي. صرت أرجّح وأخمّن وأقدّر وأقيس.

توجّست.

نعم توجّست، خفت، حين افتكرت أن العالم الذي غبت عنه حوالى ربع قرن في سجن صحراوي، قد يكون بدون شك تبدّل كثيراً، مثلما تبدّلت حالي في هذا الغياب الطويل.

هل يكبر العالم ويشيخ مثل الإنسان؟ لكن هذه الصحراء لا يتبدّل فيها شيءٌ، بل مع كل فجر تؤكّد عزلتها، وخروجها عن قانون التحوّلات. أما عناصرها فتحتاج إلى رصد عميق، أو إلى رؤية نافذة، لكأنها سرّ هذا الوجود. ما من تبدّل يطرأ عليها سوى ما تفعله الرياح بكثبانها.

فطنت. فطنت إلى أن تحليلاتي خرائية، وأن هذه الأشياء وهذه الأفكار هي من البديهيّات الدنيا، وكلّ شيء، متحوّلاً كان أو ثابتاً، هو قائمٌ بمعزل عن وجودي. فسلّمت أمري لمشيئة الزمان.

هزّتني رعشة خيبة.

رميت عكّازي، ضربت كفّاً بكفّ، لكأني وقعت في الندم وأصابني الخذلان بسهم. شردت بعيداً في الفراغ السرابي، ثم عدت أداعب الرمل، أخطّ وأمحو، ليتني أملك عدّة الكتابة، لأدوّن هذه الأفكار، وأكتب عن حالي، أكتب قصّتي لعلّها تنفع أو تفيد. تفيد من؟ سألت نفسي، إنها أفكار سخيفة، وذكريات حتى لو كانت مؤلمة هي في كل أحوالها تافهة كما هذا العمر... طز. ثم من أنا كي أدوّن، وأكتب سيرة حياتي؟ سيرة السجين عبد الجليل الغزال؟

من أكون؟ ها؟ طز من هو عبد الجليل الغزال؟ سيسأل بعضهم إذا قرأ تلك الذكريات؟ هل هو قائد عسكري؟ رئيس دولة؟ عالم ذرّة؟ هل هو شخصيّة أثّرت في حياة بلادها؟ وغيّرت مجرى التاريخ؟

من أنا؟ لست سوى شاعر صعلوك، وسجين حقير، سجين منسيّ في سجن صحراوي، بقي مدّة ربع قرن، ولو لم يُدمرّ السجن لبقيت هناك سنوات أخرى، ومتّ ودفنت في الصحراء مثل مئات السجناء الذين دفنوا هناك.

كنا نَنفق واحداً تلو الآخر كما الماشية المصابة بالوباء، كانوا يحملون الجثّة الى الشاحنة ويرمونها في الصحراء لتقتات بها الجوارح والوحوش.

ولكن السرّ الذي لا أعرفه، هو، من دمّر السجن؟ كيف ومن أين جاء ذلك السرب من الطائرات، لتمطره في تمام الفجر بتلك الأطنان

من الحمم، كأن الأمر واضح بمحو أثره وقتل كل من فيه، سجّانين وسجناء، بشراً وكلاباً.

تذكر؟ سألت كلبي، فصار يلتفت إلى الوراء كأنه يتفقّد مكان الجريمة!

هذا هو السرّ، نعم هذا هو، صارت رغبتي في الكشف عنه تزداد يوماً بعد آخر، كنت أخمّن وأحلّل فقط، وأشمّ رائحة تبدّل في العالم، إلى أن وصلت وادي الدموع مسقط رأسي، فهي واحد من الأدلة على ارتكاب الجرائم الكبرى، فالذي لديه السلطة والقدرة على هدم قرية كاملة، وتجفيف مائها وقطع شجرها، قد يفعل أي شيء آخر أشد فتكاً وبدون رحمة.

لقد روت لي جدّتي الحكاية، وكنت أظنّها في سنواتي الأولى مجرّد حكاية عن نهر جفّ وقطعان نفقت، وبشر تشتتوا. وأنا أذكر كيف حملتنا البغال إلى تلّة سليمان في شتات أهل وادي الدموع، فتلك الهجرة محفورة في بالي كالوشم الذي في ظاهر يد جدّتي.

أذكرها وأشمّ رائحة الدروب التي مشيناها.

إذاً هي حكايتي، حكاية أهلي، ومن هنا بدأت...

انتبهت أني في وضع متوتّر، وأن تلك الشاحنة التي مرّت على خطّ الأفق مخلّفة زوبعة من الغبار حرّكت يقيني وأقلقتني، شدّتني إلى حضيضي وحطامي وذكّرتني ببدني.

من أنا، حامل هذا البدن الهشّ المعطوب، وهذه الأفكار والذكريات؟

لو مرّ أحد بي وسألني من أنت؟ هل أقول له الحقيقة وأروي له حكايتي كاملةً؟ وكيف أتجرّأ على أن أفضح أمري أمام أحد يسألني من أنت ولا أعرف هويّته، وظيفته، مصدره، ولا أملك الجرأة لأسأله: أنت من أنت؟ لماذا لا أكون مبادراً بالسؤال أم أنا لا أملك الحقّ في ذلك؟ فأنا غريب عابر، وقد يكون هو من أهل المكان.

أنا لا أملك الحقّ، هكذا كنت على مدار ربع قرن، كنت أُسأل ولا أسأل؟ وكنت أجيب بالمقدار الذي يرضي جلادي، لم أتعوّد السؤال، والأجوبة التي كنت أتفوّه بها، هي في الحقيقة ليست أجوبتي، هي ملك أحد آخر، ورغم أني كنت أدرك أن هذا السؤال يفترض هذا الجواب، كنت أتردّد وأشعر أن احتمال الخطأ راجح، وأن جلادي يرسم لي فخّاً، لينال مني ويتمرّن في تهشيم بدني.

ولكني الآن حرّ.

نعم فطنت أني حرّ وفي أكثر المطارح رحابة وحريّة وامتداداً واتّساعاً، وغموضاً أيضاً. إنها الصحراء، لكنها لم تعد ترعبني كما كانت، عندما أراها من بوّابة السجن. يومها كان غموضها مرعباً وخلوّها مبشّراً بالتيه وبالموت. ولكن بعد اختبار هذا التيه والتعرّض له ومنازلته، لم يعد الأمر بحجم ما كان عليه.

أنا الآن حرّ. نعم. ولكن على ما أظنّ أن هذا الشعور بالحريّة يسحق،

مجرّد انبجاس إنسان آخر هنا، يتقدّم مني ليسألني من أنت؟ فتصبح كل هذه الصحراء بحجم غرفة تحقيق، أو بحجم زنزانة تتسع لبدني... يا إلهي! ما هذا الشعور الذي راودني؟ خفت، نعم خفت من شعوري هذا. نظرت في البعيد فتمادت الصحراء في الوحشة، وحين نظرت ورائي غرقتْ، أكثر، بلدتي وادي الدموع، في حطامها وهجرانها.

كعادته، كلبي زائغ في السراب يلتفت صوبي بين حين وآخر، يتفقّد حضوري.

وفطنت أني لا أملك أيّ دليل، أيّة وثيقة أو صورة، تثبت من أكون، من أي بلاد أو مصدر أتيت. أما سحنتي وملامحي ولهجتي ولغتي فهي إشارات ومعطيات غير كافية، وأدلة ناقصة تجعلني ثانيةً، في موقع المتّهم الذي عليه إثبات صحّة أقواله بالوثائق.

أما عرجي والندوب التي تملأ جسدي، وجروحي التي لم تزل طريّة، تفصح دون عناء أو شكّ، أنني تعرّضت للتشنيع والسحق، وأن أحداً متمرّساً وخبيراً فتك بإنسانيتي.

هذا جزء من حياتي وليس هويّتي، وقد يضعني أيضاً في محلّ شبهة.

لا أدري لماذا راودتني هذه الأفكار! تململت، تنشّقت قدراً من الهواء. كنت مكوّماً على نفسي أتأمّل في سكّة الحديد التي تشرط الصحراء كجرح طويل، ولا أعرف لماذا دائماً تتراءى لي كجرح؟

كنت أتأمّلها وأتخيّل نفسي جارياً خلف ذلك القطار. ألحّ عليّ

وسواسي، من أنا؟ كثيراً ما ألتبسُ على نفسي، وأحسّ أن للوقت حجماً وثقلاً يضغط على ظهري، ولا أقوى على احتماله. وأني مشطور بين الحضور والغياب، بين النسيان والتذكّر. وهذه المشاعر التي تطغى عليّ أحياناً، تعطّل برهاني وقدرتي على التحليل، وعلى حمل بدني، فأغرق في نفسي وأغيب.

رائحة المطر

هبّ النسيم ثانيةً، لفحني، لملمت نفسي من انشطاراتها، تنشّقت عميقاً، شممت رائحة مطر. نظرت في السماء. سرب من الطيور مهاجر نحو الشرق. طائر من هذا السرب بدا متعثّراً في المؤخّرة، تفصله مسافة واضحة عن رفاقه. ترى، هل وهنت همّته؟ أم هو مريضٌ؟ أم عطشٌ؟ أم جائعٌ؟ ما به؟ كنت أسأل نفسي، ووددت لو أستطيع فعل شيء له.

كانت المسافة تزداد اتّساعاً وامتداداً بينه وبين سربه، يبدو أن لا وقت للسرب ولا حيلة له في هذا الفضاء، كي يتدخّل لإنقاذه، قدرت أنه سيتركه لمصيره ويواصل التحليق، ولا بدّ لهذا الطير التعب حين يشعر بالوهن التامّ، أن يختار أرضاً يحطّ عليها أو شجراً، أو سيجازف بآخر رمق حتى يلتحق بالسرب.

يموت ويسقط ، أو ينجو ويصل، هذه حال المغامرين.

تابعتُ رحيله، رأيت بعض طيور السرب تعود باتّجاهه وتحيط به،

لعلّها تحثّه على الصبر والاحتمال، وتشجّعه على مواصلة التحليق، هكذا كانت الطيور تروح وتجيء إليه، تتناوب على احتضانه، تسبقه ثم تعود نحوه، فيختلط بها، وتختلط مشاعري.

هل ترى هذا الطائر؟ سألت كلبي، كعادتي أحبّ أن يشاركني في ما أراه، وما أفكر فيه، نظرت إلى السماء، وأشرت له نحو السرب، لم يكترث، تابع التمعّن في وجهي فاتحاً شدقه، دالقاً لسانه لكأنه مندهش بظنوني.

تابعت الفلول، فلول السرب، ومحاولات بعض الطيور احتضان هذا الطير المتعثّر، كانت تتناوب على الإحاطة به، أحياناً تسبقه فيبقى وحيداً وبعيداً. لا بدّ أنه مرهق، وتعب، هذا أكيد، لأن محاولات إنقاذه بقيت كلّها محاولات فاشلة، وكانت المسافة تزداد اتّساعاً بينه وبين بقيّة السرب.

ليتني أملك جناحين لأطير صوبه، وأحمله إلى الأرض... يا ليت، وماذا أفعل به؟ سوف أطعمه من خبزي اليابس وأسقيه من مائي، هكذا نصبح ثلاثة نقتسم ما بقي من قوت وماء، أنا وهو والكلب، لا بدّ أنه جائع وعطش، أو أنه هرم لم يعد يحتمل التحليق طويلاً ومتابعة الهجرات.

كان يبتعد كلّ في اتّجاه، السرب يبتعد وهو يبتعد، وكانت تحليلاتي وأمنياتي سراباً يختلط بسراب. بَعُد كثيراً حتى لم أعد أتبيّنه في السماء.

ترى هل يواصل التحليق أم ينهزم ويسقط على هذه اليابسة التي أطوي عليها عمري...؟

... وعنَّ ببالي أن أبيت ليلة أخرى في وادي الدموع، في تلك الخربة التي كانت بيت أهلي. لا أعرف أكان صائباً قراري هذا، أم هي رغبة حرّكها الشوق، أم أن تلك الرائحة التي حملها الهواء، رائحة مطر وتراب مندّى، حرّكت حنيناً عتيقاً غائراً في نفسي؟ أم أن ذلك الطائر الذي تخلّف عن سربه، جعلني أفتكر في العودة الى بيت أهلي، حتى لو كان بقايا بيت خرب.

هيّا يا فرند، امشِ، تعالَ... ومشيت، لم يلحق بي، توقّفت ونظرت إليه، ما بك؟ تعالَ، وتابعت سيري، قطعت مسافةً لا بأس بها، وعندما شعر أني ابتعدت عنه كثيراً، أطلق نباحهُ وكأنه يحذّرني من مواصلة المسير، وقفت ثانيةً والتفتُّ نحوه، ناديته بودّ، أغريته بقطعة خبز يابسة، لم يأتِ بل ضاعف من احتجاجه نباحاً، وصار يركض تارةً باتّجاهي وتارةً باتّجاه سكّة الحديد، وكأنه غير موافق على اتّخاذي هذا القرار بالعودة إلى وادي الدموع.

واصلت سيري وابتعدت أكثر، مراهناً على أنه سوف يتبعني في نهاية الأمر، وعندما التفتُّ إليه من جديد، وجدته جالساً على مؤخّرته، ساهماً نحوي يميل برأسه يميناً وشمالاً، كأنه ذُهل من فعلي هذا، فراح يزيّن صحّة قراري.

بعد قليل عندما أصبحت المسافة بيننا بعيدة بمقدار كبير، أدرك أني

مصرّ على العودة، فعوى عواءً مرعباً، جعل بدني يقشعرّ.

ترى هل من خطر شعر به فراح يحثّني على مواصلة سيري؟ أعلم أن الكلاب عادة، تشتمّ رائحة الخطر.

جثوت زائغاً في الفراغ مستسلماً لهبوب ندي ماطر، نهض وراح يجري نحوي بعزم ولهفة، وحين وصل أراح رأسه على كتفي، داعبته، فعضّني برفق في راحة يدي وشدّني كي أنهض، ففعلت.

برقت عيناه كنجمتين في سماء ليل لا قمر فيه. ثم ذبح الأفق برق، وهبّ هواء رطب يحمل رائحة تراب وأرض معفرة عطشى، ذكّرني بأوّل الشتاء في قريتي تلّة سليمان، عندما تختلط روائح التراب والعشب وأوراق الخريف، هي الرائحة نفسها حملها الهواء من بعيد، ربما من هناك، من تلة سليمان، حيث تركت أمّي في طريق البيّاض تجرّ غصناً يابساً لشتاء آخر. الرائحة هي نفسها يحملها الهواء ويحمل صدى لغناء جدّتي عندما كانت تحملنا البغال، في ناحية من بلاد الله، وتطحن الحصى بحوافرها، وجدّتي تغنّي:

... وأنا لأبكي ع غيابك دهر

واهجر هالبلاد

وورّت من بعدي

حزني عليك

للولاد.

كانت تندب أخي، وكنا في طريق الشتات قبل أن نستقرّ في تلّة سليمان.

لكأنني الآن في مثل ذلك اليوم، هي الرائحة نفسها والشعور نفسه، والحزن نفسه، شجن يحوم كالغيم فوق نفسي. اشتدّ الهواء والبرق. اشتدّ الهواء أكثر وكاد يرفعني، يحملني عالياً، ليته يستطيع. ثم بدأت حبّات المطر تتساقط، تترك حفراً صغيرة على الرمل، يا إلهي كم أنا مشتاق لهذا المطر.

صرت أصرخ عالياً وأرقص، صرت أرقص على ساق واحدة وأرقّص عكّازي في الهواء، أرقص وأزغرد وأصيح فرحاً، وكلبي ينبح، جنّ كلبي، وأنا جننت أيضاً.

أرفع رأسي ووجهي نحو السماء، أفتح فمي ليدخل المطر إلى أعماقي. خلعت عن بدني خرقي البالية، وصرت أرقص عارياً، وكلبي يهتاج نباحاً، ربما ظنني فقدت عقلي، أو أنه أحبّ أن يشاركني في هذا الاحتفال المطري.

صرت أسمع قرع طبول، وأهازيج نسوة، تشحن عزيمتي على مواصلة الرقص. اشتدّ المطر واشتدّ رقصي، الرعد طبول، والبرق اصطكاك سيوف، صرت أتمرّغ على الرمل، أسقط وأنهض، أجثو وأثب، ونسيت عرجي.

المطر يشتدّ، رقصي يشتدّ، وصيحاتي تملأ سماء الله، وكلبي يهوش ويحتفل مثلي. أقفز وأسقط على قدمي الصحيحة، فالأخرى علّة أو خطأ بالنسبة إلى الأولى، لا نفع فيها، سوى أنها تذكّرني بما كنت عليه، أقفز وأجثو، وأرفع وجهي نحو السماء، أطلب المزيد من

الهطل، فتستجيب، وتسكب الماء إلى أن أطفأت اشتعالي.

هدّني التعب، تمدّدت على الرمل لاهثاً كذبيحة، بعد حين جمعت أسمالي وحجلت صوب الخرب في وادي الدموع، لحق بي كلبي. كان ينفض جسده بين حين وآخر من فرط البلل الذي أصابه.

احتمينا تحت بقايا سقف راوغ السقوط، أو أن الزمان عافه لينتظر عودتي الناقصة. فتّقت الروائح شهواتي، والبلل أعادني إلى أولي، إلى بداياتي في وادي الدموع، لكأن المطر غسل ما تكدّس على الذاكرة من غبار.

تجمّعت على نفسي، تكوّرت، وعبرتني موجة من نعاس خفيف كالسهو، أحسست برغبة في حضن ساخن، حضن أمٍّ أو حبيبة، تذكّرت جسد أمّ مريم حين ضمّتني وكانت عارية يوم قتل زوجها والدي، تذكّرته بعد موت مريم. كانت أيضاً تستحمّ وبياضها زائغ في البخار. فطنت إلى ذكورتي الناقصة، التي صارت على هذا النحو في سنوات السجن، وضحكت عندما تذكّرت ما كان يقوله لي مصطفى شبلي: هذا اللي بين اجريك بتستخدمو فقط للتبوّل، مع الوقت بيزم وبيصير متل الدودة ما إلو عازة، بينفع فقط للحسرة. ويضحك...

ضحكت وأنا أتأمّل حالي وأتذكّر كلام مصطفى، ولكن يا صديقي كل هذا النقصان لا يلغي حاجتي في هذه اللحظة الماطرة إلى دفء، إلى حضن كحضن هدى. كم أنا الآن بحاجة لنفسها، لرائحة جسدها، ليديها، بحاجة لرائحة إنسان يغمرني، ويقول لي أحبّك.

كم هو العالم ناقص يا فرند، بدون حبّ، هل أنت تحبّني؟ سألته، فرمقني وفتح شدقه، ونبح نباح الحبّ العظيم.

المطر شلالات وقلبي طبول، أعادني المطر إليّ، يبدو أني كنت غائباً كثيراً، أو أن حضوري ناقص اكتمل عندما أمطرت.

منذ سنوات طوال لم أرَ مطراً.

عندما كنت صبياً في قريتي النائية، تلّة سليمان، كنت أمشي تحت المطر، أرفع رأسي ليسقط على وجهي وفي فمي، مثلما فعلتُ قبل قليل. لا أعرف، في تلك الأيام، لماذا كنت أنتظر المطر، لأركض في الدروب والبساتين منتشياً به. كانت أمّي تقول لي: «بس المجانين بيعملو إللي بتعملو، انت لو فيك ذرّة عقل كنت داريت نفسك تحت شجرة، بزريبة بقر، بمغارة، حمار، حمار وكرّ كمان».

كانت توبّخني وهي تنشّف رأسي، كي لا أصاب بالحمّى، وتزيدني توبيخاً وهي تدعك برأسي: «هذا الراس فاضي، حمار».

لا أعرف أكنتُ حماراً أم مجنوناً. أول قصيدة كتبتها كانت عن المطر، أذكر مطلعها الآن، لقد نشرتها في جريدة يومية في بيروت، عدل فيها مسؤول الصفحة الثقافية عبدو الريحان:

مطر خفيف على الغابة

يبلّل روحي

وغناء الراعي.

قال لي أحد النقّاد آنذاك: إن قصائدي ريفية ورعوية. لا أعرف أمديحاً كان هذا الكلام أم نقداً أم غير ذلك. لم يكن يهمّني على الإطلاق، فأنا في الأصل كنت راعياً، رعيت غنم أهلي لسنوات في تلّة سليمان، مع تلك الشقيّة التي أحببتها، مريم. لقد حكيت لك عن مريم وعن بستان رمّان أبي.

أذكر أن القصيدة تلك، نشرت بعد تعديلات خرائية قام بها عبدو الريحان. أقول فيها:

مطر خفيف على الغابة

يبلّل روحي

وغناء الراعي

يبلّل حذاء أبي المتروك عند عتبة البيت

وعصفور الدفلى

وغسيل أمّي على الدالية

وقطيع صفّ القراءة تحت النشيد الوطني.

أجمع النقّاد على أن مقطع قطيع صفّ القراءة تحت النشيد الوطني هو من الشعر الصافي. كم يثير سخريتي هذا الكلام.

على كل حال، فرحت لتذكّري هذه القصيدة، أقول هو المطر سقاها فأنبتها من جديد، فاخضرّت في بالي. فرحت أيضاً لتحليلي، لوصفي هذا الانبجاس، فرحت بها وقرأتها على كلبي. مرّنت صوتي على استعادة نبرته الشعرية، وحاولت جاهداً أن أضيف مقطعاً إليها،

من وحي متاهتي تلك، وعزلة وادي الدموع، استدرجت نفسي للشعر، وناديت ملهماتي الغامضة وقلت:

مطرٌ، وسكتٌّ، مطرٌ، وافتكرت، مطرٌ، وبحثت عن صورة تليق بما أنا فيه في هذه العزلة الماطرة، رجل ناقص، تحت سقف ناقص، وعمر ناقص، وذاكرة تشبه شراع سفينة في العاصفة. لم أفلح في أن أضيف سطراً واحداً، صورة شعرية واحدة، لم أفلح في إضافة حتى كلمة واحدة، إلى مطر.

ورأيت أنه غزير ينهمر خارج القصيدة وخارج الكلام، غزير ينهمر لم أرَ مثله منذ ربع قرن، غزير أكثر من كل الشعر.

ارتعشت. خيط من النعاس عبرني، فتكوّرت أكثر، تجمّعت قدر استطاعتي على نفسي، رمى كلبي رأسه على صدري العاري.

غفوت.

الأوجاع والمسرّات

في قريتي تلّة سليمان، كنت في حدود العاشرة من عمري عندما دوّى طلق ناري. صرخت أمّي من أطراف بستان الرمان، «يا ويلي... يا خراب البيت، يا ويلي»...

فرّت الطيور جافلةً في ضحى ذلك اليوم من على الشجر، وزاغت في السماء، سماء خريفية. اختلط صراخ أمّي الفجائعي بنعيق سرب من الغربان هبّ مذعوراً من صفّ شجر الحور أمام الدار. جفل القطيع في حظيرته، ثغا خائفاً، أطلق الكلب نباحه. ثم عوى عواءً جريحاً.

تردّدت الأصوات في أودية تلّة سليمان، وتجاوبت في أسفل وادي الجن.

اضطرب الضحى، واعتلت السطوح نسوة، يستفسرن عمّا جرى. ناحت بدريّة في المنقلب الآخر من التلّة، دويّ آخر. أمّي تردّد «يا دلّي ويا خراب البيت»...

ما زالت تلك الأصوات تتردّد في بالي حتى يومنا هذا.

لم أعرف بدايةً، ما الذي حدث، كنت ومريم تحت شجرة الزيتون قرب الدار، أتحايل كي تريني نهديها الصغيرين، وتلك خصلة استمرّت معي لسنوات أُخر، في مواسم الرعي، حتى عندما انقلبنا على ضفّة المراهقة، واستشعرنا طعم العناق، بقيت أواصل رجائي لمريم أن تريني نهديها، وبشهوة كانت تنمو وتضطرم سنة بعد سنة.

كانت مريم مولعة بصنع الدمى من أكواز الذرة، نسمّيها عرائس، أو عرانيس، كانت تساوي جسد الدمية من الأكواز، وشعرها من تلك الخيوط الشقراء المتدلّية من العرائس، وأنا كان همّي، كلّ همّي، أن أرى نهديْ مريم في كل مرّة. أحياناً كانت تفعل وتسمح لي بالتسلّل قليلاً، وأحياناً كانت تغضب مني وتعود إلى أمّها. ومريم كما تعلم صارت حبيبتي يوم تزاملنا في رعي المواشي.

سمّمت لها أمّها. وماتت في الحصيد، وصار الذي صار. رويت لك ذلك.

عند الدويّ، قوّة غامضة قذفت بي وبمريم نحو الباب، باب بيت أهلها.

شاهدته.

رجلٌ ملثّمٌ يصعد الجلول هائجاً، تسمّرت عند عتبة البيت، لا أذكر أحاسيسي، أو المشاعر التي انتابتني آنذاك، اقترب مني وصوّب المعدّلة نحو رأسي، بكت مريم وركعت عند قدميه راجيةً إيّاه أن لا يفعل.

لم أرَ من وجهه سوى العينين، عينين تشبهان الجمر، أحسست بانحلال في مفاصلي، وفقدت القدرة على الصراخ أو النطق.

ربما صراخ أمّي الفجائعي جعله في حالة من الارتباك والتوتّر. دفعني بقسوة، فسقطت كخرقة مشبّعة بالبلل. تكوّمت على نفسي، لا أعرف، ولا أذكر، بكيت أو صرخت ألماً، عندما ارتطم جسدي بالأرض. على الأرجح، صوتي آنذاك غار واختفى في صدري.

مدّ يده، رفع مريم، كانت ما زالت راكعة عند قدميه، تبكي راجية إيّاه أن لا يفعل شيئاً. تأمّل في وجهها، مرّر راحته على شعرها، وعلى خدّها، مسح دموعها بظاهر يده ثم شدّها إلى خصره.

همّ ليدخل البيت، خطا خطوة واحدة، ثم أطرق رأسه مفكّراً، عاد والتفت نحوي، كنت لا أزال مكوّماً عند حافة العتبة، قرب حوض الورد، جال بنظره في التلال والجبال المترامية، لا أدري ماذا يجول في باله أو ينوي فعله. دنا برأسه من مريم. أزاح لثامه عن فمه، قبّلها، تمعّن في ملامح وجهها، ثم راح يجري صعوداً نحو طريق البياض، حيث ملاذ الطفّار في تلّة سليمان.

لم أعرفه، لم يسبق أن شاهدته، قالت مريم هذا أبي.

«يا ويلي يا دلّي من بعدك»، تواصل أمّي نواحها، عندها أدركت أن والد مريم قتل والدي.

لا أعرف كيف أصبحت في حضن زوجته أم مريم، وكانت شبه عارية، أدخلتني وجرّت مريم من يدها، ثم أقفلت الباب على عجل،

وراحت بدورها تنوح بهمس، «يا خراب البيت»، وتشدّني إلى صدرها.

في البعيد تتداخل الأصوات. نسوة يستفسرن من على سطوح البيوت، من هو القتيل؟ بعضهن ينشر الغسيل، والبعض الآخر صعد فضولاً سطوح المنازل، هكذا أقدّر الآن، فتلك واحدة من عادات نسوة تلّة سليمان.

اختلطت عليهنّ الرواية، ظنّ بعضهنّ أن والد مريم قتل زوجته، امرأة تسأل، متى عاد؟

وأخرى تسأل عن سبب غيابه لسنوات وسرّ عودته مجدّداً، وأخرى تطلب من الله أن يرحم تلّة سليمان من البلاء.

بعض الرجال كان ينهر الزوجات، كي يكففْنَ عن العويل والصراخ، والشيخ رجب ينهر دابّة معاندة في طريقه نحو حارة النصارى، عائداً من المطحنة. أما بدريّة فبدأت موسمها بتأجيج الأحزان. كنت أسمع هذه الأصوات وأشاهد من شقوق النافذة في بيت مريم، ظلال الناس وهي تتوافد إلى بيتنا.

تحوّل خوفي إلى نعاس، أو إلى خدر، كأن الأصوات التي أسمعها تدور في منامي خليطاً من صراخ نسوة وسعال رجال، وبسملة. جلبة صبية يركضون في الدرب المؤدية إلى بيتنا، من ناحية مقام الوليّ خليل، كنت أسمعهم يردّدون: «بيّو لعبد الجليل قتلوه المخابرات». كلمة أو مفردة جديدة دخلت قاموس تلّة سليمان في ذلك الحين.

خفت أكثر عندما سمعت هذا الكلام، وربما خوفي خدّرني، إذ إني أردت النوم، أو الاختفاء... أذكر هكذا كان شعوري.

سمعت صوت جدّتي ليزا تسأل عني، وتتابع نواحاً عتيقاً:

مين اللي سمّاك غريب

وبكّاني

وسرقك مني يا عمري

وخلاني...

طلق ناري بعيد تبعه عواءٌ جريح.

كانت الجلبة تزداد في دارنا، وأمّي تواصل «يا دلّي من بعدك». من بعيد كان يأتيني صوتها، لم تزل قرب والدي في أطراف الجلّ في بستان الرمّان، تكوّم الرجال هناك حول الجثّة وحملوها، آخرون حملوا أمّي إلى مصطبة الدار، وهي فناء فسيح تظلله شجرة عملاقة من السنديان. هكذا أذكرها الآن، حين وصلوا بوالدي إلى فناء البيت، صخب البكاء وناحت جدّتي أكثر. كنت أتخيّل ذلك، وأقدّر ما يجري من خلال التفاوت في بُعد الأصوات أو قربها مني. فبيت أهلي شبه ملاصق لبيت أهل مريم، يفصل بينهما جلّ صغير، تتوسّطه زيتونة عتيقة، تجوّف جذعها العملاق على مرّ السنين، كثيراً ما أختبأت في داخله مع مريم، وزاولنا شقوات الطفولة. أمّا نافذة بيت مريم التي أرى من شقوقها أطياف الناس تتوافد نحو بيتنا، فهي نفسها التي تطلّ على ذاك الجلّ الصغير الذي كان ملعبي، وتطلّ أيضاً على النافذة الشرقية لبيتنا، التي

منها كنت أشرف على طريق البياض صعوداً باتّجاه الجبال والغابات البكر، التي عبرتها بعد سنين في متاهتي الأولى.

كانت أمّي بين حين وآخر، تسأل وين ابني، «وينك يا عبد الجليل؟ قتلوا بيّك يا ضناي» .

اشتعل قلبي وبكيت.

حين سمعت أمّي تقول ذلك، خرج هواء حبيس من قلبي، زال خرسي، لكأن سدّة كانت في حلقي وسحبت. أمّي تردّد «قتلوا بيّك يا عبد الجليل»، صوت أمّي هو الذي أعادني من خدري، ومن خوفي.

رجوت أم مريم أن تتركني لأخرج وأذهب إلى أمّي، فكانت تضمّني أكثر إلى صدرها، وتقول لي: «لا لا لا ما في تروح، إنت ضناي ما تروح».

لا أعرف لماذا إصرار أمّ مريم على بقائي في حضنها ملتصقاً بها. أذكرها الآن خائفةً، ترتعش، تشدّ عليّ، وتشدّ أكثر فأكثر كلما اقترب صوت من بابها الذي أحكمت إقفاله بالمزلاج.

كانت أمّ مريم شبه عارية، يبدو أنها انتهت على عجل من الاستحمام، عندما دوّى الطلق الناري، ولم تهتدِ أو تعثر على ثوب، فلفّت جسدها كيفما اتّفق بشرشف التقطته من مكان ما، من على «اليوك» حيث الفراش. يبدو أنها علمت على الفور أن زوجها فعلها، وقتل والدي، ولسبب ربما هي وحدها تعرفه...

عندما طرقوا بابها، صار وجهي بين نهديها وغار صوتي هناك،

قالت لي: «لا تخاف أنت ابني، حبيبي لا يهمّك». كان صوت مريم شحيحاً، أسمعه بصعوبة، يعلو قليلاً ثم يخفت، كان ينزّ بكاءً غامضاً وهي ملتصقة بأمّها متمسكة بذراعها.

جاء صوت بدريّة من الخارج، واحدة من النسوة اللواتي تبرّعن بالإتيان بي إلى أمّي.

وبدريّة هذه، دائماً كانت تتقدّم الجنازات لتؤجّج اللوعة بصوتها المضني، ولها صولات في الأعراس أيضاً، أما غناؤها في كلِ المناسبات فهو ندبٌ، لكنها لا تبكي بل تُبكي الآخرين، حتى في الأعراس كان الناس يبكون عندما تبدأ بدريّة بالغناء، كان صوتها يفتّق الأوجاع، ويرفع منسوب الشجن في النفس.

بدريّة النّدّابة

بدريّة... أذكرها الآن.

غالباً كانت تبقى في حالة غناء، تغنّي وتواصل أيّ عمل آخر، كنشر الغسيل، أو الطبخ، أو تنقية صينية من الحبوب، هي هكذا دائماً، تعمل وتغنّي، تمشي وتغنّي. كانت تضع على رأسها كوفيّة سوداء، كما رجال تلّة سليمان، تعقدها إلى الخلف، وتترك، إهمالاً، أو قصداً، بعض خصل من شعرها تتدلّى فوق جبينها العريض، تغطّي أحياناً أطراف عينيها الواسعتين، فترمش وتنفخ خصلات شعرها، بحركة موجّهة من شفتها السفلى المكتنزة. كانت تفعل ذلك في حال انشغال يديها بالعجن أو الغسيل، وأحياناً تزيح خصلاتها بأطراف أصابعها بشيء من الدلال، فيزداد اتّساع عينيها ويحلك أكثر سوادهما. أما وجه بدريّة فكان دائم الحمرة ملفوحاً بشمس الأضاحي. أذكرها وهي تتغاوى بفساتينها التي تخيطها بنفسها.

كان باستطاعة الناس أن يحدّدوا موقع بدريّة في أيّ وقت في تلّة سليمان، في وادي الجنّ، أو في سفوح مقام سليمان، أو في طريق البياض، أو في درب المطحنة، أو على حرف تلّة بنت السلطان، أو حارة النصارى، وذلك من خلال صوتها. لكنهم بقوا مدى عمرهم حائرين بمصدرها، لا أحد يعرف من هم أهل بدريّة، ومن أين أتت.

كانت تقول عنها جدّتي مقطوعة من شجرة، كنت لا أعرف معنى هذا المثل، ربما تقصد جدّتي أنها مقطوعة الجذور. على كل حال، كانت بدريّة وحيدةً، كمثل حالي الآن، وكمثل حال كلبي، لا أهل لها ولا سند ولا تلد...

أذكرها كانت تأتي وتسعف أمّي في بعض أمور البيت.

بدريّة. لكم أضناني صوتها!

يروى أنه في يوم مولدها، وجدت في المطحنة أسفل الوادي، وجدها الشيخ رجب إمام المسجد، وحملها إلى زلفا، إحدى النساء المُرْضِعات آنذاك، سمّوها بدريّة، لأن القمر كان بدراً في تلك الليلة.

والشيخ رجب هو طحّان، إضافة إلى إمامته، يقول إنه وجدها داخل المطحنة على حجر الرحى، وكانت ملفوفة أو مقمّطة بخرق بالية. وهذا يدل على أن أمّها وضعتها على عجل ولم تتهيّأ لولادتها.

وحسبما يروي الشيخ رجب، كان لا يعرف ولا يذكر لماذا قصد

المطحنة في تلك الليلة، على غير عادة. كان يقول في مناسبات تذكّر بتلك الحادثة: إن سبباً غامضاً جعله ينزل إلى الوادي في ساعة متأخّرة، ربما ليأتي بشيء نسيه، أو ليتفقّد غرضاً ما. «إنه إلهام حملني في تلك الليلة على الإسراع نحو المطحنة، لأنقذ تلك الروح، فالذي خلق علقة بين فلقتَيْ صخرة، دبّر أمرها ولم يقطع بها سبل العيش، إنه يبلي ويعين»، يقول الشيخ رجب وتقرقع القاف في حلقه كجوزة خاوية.

أذكر أن امرأة تدعى لطيفة كانت تمازح الشيخ رجب: «هذي البنت بتشبهك يا منحوس، وجهها مدوّر مثل وجهك، وعيونا مثل عيونك واسعين، حتى صوتا هي وعم تبكي بيشبه صوتك...».

كان رجب يستغفر الله، ويطلب من لطيفة أن تخفّف هذا المزاح، كي لا يصدّق الناس، أو يشكّوا في الأمر. وعندما تعيد لطيفة الكرة وتضيف: «جيب مراية وتطلع بسحنتك، وقارن بينك وبينا»، كان يقول لها: «لسانك بدو قطع يا مصيبة».

وتزيد لطيفة من استفزاز الشيخ رجب وإثارته: قللي شو نزلك بأنصاف الليالي على الوادي؟ الجنّ بخاف بهالليل، قللي، شو هو الغرض اللي ما في ينطر للصبح؟

«إلهام. إلهام من رب العالمين».

إلهام أما...؟ وتغمز لطيفة في كلامها.

يقصف عمرك يا علّة. أنت علّة على ها التلّة؟

كانت لطيفة تفرح حين تثير عصبيّته وغضبه، ويروح يشتمها واصفاً إيّاها بالمصيبة الكبرى في تلّة سليمان.

المهمّ.

عندما فتح الشيخ رجب باب المطحنة، أصدر صريره المعتاد، وعبقت رائحة الطحن والرطوبة، أحسّ بانخطاف هواء لفح وجهه مسرعاً، لكأن كائناً عبر الباب وأطفأ قنديله الذي اعتاد حمله في الليالي. سمّى بالله، واعتاذ من الشيطان. أشعل عود الثقاب وأضاء قنديله من جديد، واستدار ليعلّقه في حلقته الثابتة بموازاة الباب، شاهد كتلة من خرق تتحرّك، تتململ، على حجر الرحى، ظنّ أن ذلك ظلّ شيء ما، خرقة منسيّة، كيس فارغ، أو ثوب عتيق حرّكه الهواء الذي دخل من الباب. كان الشيخ رجب يخمّن ويرجّح ماهيّة الشيء، لعلّ ذلك وهمٌ، فكّر ثم نظر ثانيةً، وجد تلك الكتلة ما زالت تتحرّك، عرك عينيه وبحلق متمعّناً أكثر، حمل فانوسه، تقدّم ناحية الحجر، قرّب الضوء من الخرقة، قرّبه أكثر، مدّ يده وحرّكها بحذر، بان وجه طفل وليد...

بسم الله... بسم الله... بـ... انعقد لسانه في حلقه، وأحسّ بماء بارد سال على سلسلة ظهره، فاقشعرّ بدنه، صعقه وجود مولود في مطحنته وأذهله ذلك، فراح يدور على نفسه، يستغفر ويسبّح ويضرب كفاً بكفّ، شاتماً حظّه السيّئ...

ترى من جاء بهذا المخلوق إلى هنا؟ من حمله؟ وكيف دخلوا المطحنة؟ ولماذا اختاروا هذا المكان دون سواه؟ كان الشيخ رجب

يفكّر في هذه الأسئلة وهو يتفقّد في الزوايا وخلف شوالات القمح والذرة، وخلف الأعمدة. لا شيء، لا أحد. صار رجب يحدّث نفسه بصوت عال. مين جاب هذا الطفل؟ حمله الجنّ؟ منين اجتني هالمصيبة؟ أي عفريت حملك؟ توجّه بكلامه إلى المولود. ثم تعوّذ من الشيطان.

«اصبر يا رجب وتوكّل، اصبر وتوكّل» ، قال ومسح لحيته، ازدادت بياضاً من غبار الطحين الذي علق بيديه، فرك جبينه. شعر أن شيئاً تحرّك خلف شوالات الطحين. حمل فانوسه وتقدّم منها، ارتمت ظلال الأعمدة وظلّه على يمينه. شاهد ظلّه فارتعب وصرخ الله أكبر الله أكبر... بسم الله... مين أنت... مين؟ انتبه أن هذا ظلّه وأن لا أحد سواه، فقال ساخراً من نفسه: «خفت من خيالك يا رجب؟ ها ها ها... الله يرحم المثل اللي قال: «فلان بخاف من خيالو، هيدي هي، وصلنا لها...»».

تحرّك المولود وأصدر صوتاً يشبه المحاولة الأولى في البكاء.

أسمّيها الآن «الشعور اللاواعي بالندم». هذه واحدة من فذلكاتي قلت لفرند. وفرند دائماً حينما أتوجّه إليه بالكلام، ينظر إليّ زائغاً، غير مكترث لكل ما أقول، كثيراً ما يأخذه النوم حين أجرّب عليه الحكايات، وأستفيض وأستطرد مثلما تراني أفعل الآن، فأداعبه مقلّداً صوت الكائنات الأخرى، ينهض متحفّزاً متوثّباً يتفحّص الجهّات، ثم يحدّق إلى عينَيّ لاختبار موقفي أو ردّ فعلي، فأعيد الكرة وأموءُ مثلاً

كالقطّ فيدلق لسانه وينطرح من جديد مسترخياً مستأنساً بصداقتي وحكاياتي... مزاولاً كسله.

صار رجب يحدّث نفسه ويدور في أرجاء المطحنة، بدون اتزان. «الناس بتلاقي ليرة ذهب إذا أقبلت، وإذا أدبرت بتلاقي زر، مشط، كرارة فاضية، شقفة مراية مكسورة، سلسلة تنك، مسلّة، خيط مصيص، بردعة واقعة عن ظهر حمار متلك يا رجب، هيدا ممكن يلاقيه البني آدم. ولد! ولو...

ولد؟ ولد يا رجب؟ لقيت ولد يا أبو الحظ؟ الله...الله... يا فرحة أمّك بقبرها يا رجب».

صار رجب على حافّة الجنون لا يعرف ماذا يفعل، ضاق خياله، وفقد أدنى الحيل في تدبير الحال.

مرةً أخرى تململ المولود في خرقه، وأصدر زعيقاً حادّاً، جفل الشيخ رجب، اقترب منه، وضع فانوسه جانباً عن يمينه، ارتمى ظلّه على يساره وكاد يرعبه مجدّداً، اقترب من المولود أكثر، مدّ يديه وحمله بين راحتيه بحذر، مبعداً به عن مستوى وجهه على طول ذراعيه، كأنه يحمل «كانون» جمر متوهّج. شعر الشيخ رجب بخوف حين شاهد المولود يحدّق إليه، فأشاح بنظره عنه.

«ترى أنثى أم ذكر»، تساءل الشيخ رجب، ووضعه على كيس من الطحين، ثم أزاح الخرق عن لحمه الزهري، على مهل وبتردّد، «وما همّي إن كان أنثى أم ذكراً»، قال وأعاد لفّه بالخرق، أعادها مثلما كانت،

ولكن الفكرة ألحّت عليه، ازداد فضوله في معرفة جنس المولود، فأزاح الخرق من جديد عن لحمه الطريّ.

«ربما ما تفعله يا رجب هو مجرّد تهيّؤات، وكل ما يحدث هو من وسوسات الجنّ. ترى هل المولود إنس؟».

كان عقل رجب يعمل بهذا القدر من الأداء، أكمل إزاحة الخرق حتى بان جنس المولود، أنثى! ارتاب الشيخ رجب، كأنه غير راضٍ عن النتيجة، ربما فضّل أن يكون المولود ذكراً.

«وشو دخّلني وشو خصّني أنا، إن كان أنثى أم ذكر، شو علاقتي بالأمر، الولد اللي مش من ضهرك ما بيقهرك. هيك بيقول المتل». ثم استدرك: «شو هالمثل التافه يا رجب»، قال ذلك وهو يعيد تغطية لحم المولود.

في كل الأحوال، كان الشيخ رجب في قرارة نفسه، يتمنّى لو كان المولود ذكراً، ولكن هذا ما بعث به الله. حار في أمره من جديد، وبدأ يدور على نفسه، يروح ويجيء صوب الباب، يفتحه ويوصده، يخرج ويدخل، ثم يعود نحوها ليتأكّد أنها حقيقة وليست من باب التهيّؤات.

تمنّى أن يلتفت مرّة نحوها ويراها قد تبخّرت، اختفت. كان يتمنّى ذلك، ويضعه في باب الحلول، وأن كل ما شاهده وعاشه كان مجرّد وهم أو حلم.

كان يقف عند عتبة المطحنة حين تخيّل أنها غير موجودة، وأنه حين سيلتفت الآن لن يجدها، فأخافته الفكرة، وبقي لوقت طويل مسمّراً في

مكانه، في مواجهة الباب، وتهيّأ له أنه فعلاً استدار قبل قليل، ولم يرها في مكانها، وأنه بحث عنها في كل زاوية، ولم يعثر على أيّ أثر لها!

ازداد شكّ رجب في رجاحة عقله، قدّر أنه على منتصف الطريق نحو الجنون. وهل يبدأ الجنون هكذا يا رجب؟ سأل نفسه ثم التفت بيقين، كي لا تخونه عيناه: ما زالت في مطرحها تتململ في خرقها...

بدأت الشكوك تنخر في عقله كالسوس، والأسئلة تَخِزُه كالإبر. ترى ماذا أفعل بها؟ وماذا سأقول لأهل الضيعة؟ ربما أحدهم وضعها فخّاً لي، ليمتحنني؟ وما هذا الامتحان وما هي غايته؟ هل لكي يثير الشكوك فيّ؟ ويجعلني في موضع غمز ولمز بين الناس؟

أعوذ بالله، أعوذ بالله، يا ألطاف الله على هذه الأفكار يا رجب. من هو الذي يكرهني إلى هذا الحدّ ليفعل بي كل هذا؟

صار ينفض الطحين عن يديه، وعن شرواله ولحيته، ولكثرة ما تلطّخ بالطحين بدا كيساً متحرّكاً بين الشوالات المكدّسة في المطحنة.

* * *

كنت أراه في عصاري أيام الصيف، عائداً من المطحنة خلف دابّته الغبراء المحمّلة ببضعة مكاييل من الطحين، وبسفرطاس الطعام، وبعض أشياء يجدها في طريقه، قطعة خشب تصلح للموقد، بضع حبّات من الفاكهة يضعها في مكيال خشبي لا يفارقه. كان يبدو لي أشيب من رأسه حتى قدميه، وأكبر من عمره بأضعاف، وعندما كنت

أصبح في موازاته، كان يرتجف ويهتزّ مثل دابّته، فيهرّ عن لحيته وعن ثيابه مقدار من الطحين. كانت لطيفة تقول له: «الطحين يلي على ثيابك وعلى لحيتك يا رجب بيعمل عجنة» فيضحك قائلاً: «تعي عجنيني وكليني يا لطوف». فتجيبه: «يعجنك عزرايين يا نحس...». ويدور الهرج بينهما، وعزرايين يعني عزرائيل. فاللام في تلّة سليمان تصبح نوناً.

ذهب الشيخ رجب بشكوكه إلى أماكن، أصبح فيها موضع شبهة حتى لنفسه، فراح يجول في ذاكرته، ويبحث عن هفوة ما قد ارتكبها، عن احتمال تدخّل من الشيطان أو وسوسة منه، عندما كانت تأتي بعض النساء للطحن، أو لإبدال مكيال طحين ذرة بآخر من القمح، ربما راودته إحداهن عن نفسها، في لحظة تخلٍّ، والنفس أمّارة بالسوء. جال الشيخ رجب في الذاكرة، افتكر طويلاً واستعرض النساء اللواتي يأتين إلى المطحنة من تلّة سليمان ومن القرى المجاورة، حتى نساء النوَر اللواتي كنّ يأتين إليه للاستعطاء، توقّف عند كل واحدة منهن، تذكّرهن في كل أحوالهن وصنوفهن. كان يستأنس عندما تأتي خولة، إحدى نساء النوَر، كان يحبّ لهجتها، ويطرب لصوتها حين تغنّي:

لأهجر قصرك وارجع بيت الشعر

وعود لأهلي بعد ما ذقت القهر

وأنسى مدينة لو أرضا من تبر

كانت خولة تأتيه في المواسم مرات عديدة، وفي كل مرة كانت

تعود وعلى دابّتها مكاييل من الحبوب، ولكن لم تتعدَّ علاقته بخولة حدود الإعجاب بصوتها، وللذين لا يعرفون خولة، فهي كانت فاتنةً، «حسنها بوقع أكبر شنب من على صهوة فرسه» على حدّ قول لطيفة.

تذكّرها الشيخ رجب، واعتاذ بالله، وحاول التخلّص من صورتها العالقة في باله، إذ إنه يستحيل لأحد أن ينسى خولة إذا ما شاهدها ولو مرة واحدة، خاصّة حين كانت تشارك في الأعراس وتغنّي متمايلة بقدّها الفارع: «خدودك ورد جوري يا بو الشامة». أغنية تصف فيها حسنها. والشامة التي تتوسّط خدّها، كانت تغنّيها في افتتاح كل موسم أو عرس، أو مناسبة، لتلهب حماسة الناس.

خولة كانت صيّادة ماهرة.

طرد رجب الفكرة نهائياً من رأسه. جلس قبالة المولودة يتأمّلها، كانت تتململ داخل خرقها تصدر نعيصاً خافتاً خاوياً مستجدياً، فاغرة الفم تتلوّى يميناً وشمالاً. وكلما تمعّن أكثر فيها، غرق أكثر في حيرته، أعوذ بالله، ماذا أفعل بهذا المخلوق يا ربّي؟ صار رجب يصرخ بصوت عالٍ... شو بعمل فيها قللي، ربما فاجأها الصوت وأخافها، فأصدرت زعيقاً أقوى، اقترب منها وحملها وهدهدها.

«لعل الله أراد امتحاني في تدبير أمر وليد لا أهل له»! وليش اختارني أنا؟ خلصوا البشر؟ ما لقي غير رجب بهالدنيا؟ حسبي الله، شو عاملك، وشو مسلّفك حتى وقعتني بهالمصيبة. توجّه رجب مباشرة بكلامه إلى ربّه، وراح يعد فضائله: لا بقطع فرض صلاة، ولا

ببخل بزكاة، أدعو الناس إلى عبادتك خمس مرات باليوم، بحذرن من عقابك يوم القيامة، وبرغّبن بجنانك في الآخرة، ما بذكر أني أخطأت، وجلّ من لا يخطئ، شو بعمل بها المخلوقة، نوّرني، دلّني، بعدين أنثى! بنت! ليش ما بعتها صبي؟ انتبه رجب أنّه يقلّل الأدب مع خالقه، في طريقة كلامه الذي يحمل ملامة، فاستغفره: أستغفرك وأتوب إليك، سامحني.

سكت الشيخ رجب، سكت طويلاً. صوت الماء يجري في النهر أسفل المطحنة، كلب يهوش في البعيد، ربما يهوش على وحش أو غريب، حركة مريبة خلف شوالات الحنطة، يعرف هذا الصوت وتلك الحركة اعتادها منذ سنين، هي حركة هذا الفأر اللعين الذي نجا مراراً من الفخّ.

«يبدو هذا الفأر أكثر ذكاءً منك يا رجب» صار رجب يحدّث نفسه، متأمّلاً تارةً المولود، وأخرى سقف المطحنة الملأى بخيوط العنكبوت، المغطّاة بغبار الطحن. كان انعكاس الضوء عليها، يعطيها أبعاداً وأشكالاً خرافية، تزيد من توجّسه وتشحن أفكاره وتوقّعاته.

فجأة عصفت برأسه فكرة مرعبة.

ارتجفت مفاصله حين راودته: أن يتخلّص منها، يحملها إلى الخارج ويرميها في النهر، فيجرفها الماء إلى المجهول نحو «الجبيط»، تلك البركة عند نهاية المنحدر في وادي الجنّ. وتخيّل نفسه يفعل ذلك، يحملها ويخرج بها في العتمة فيفضحه ظلّه تحت ضوء القمر الذي

كان بدراً في تلك الليلة، فيتعثّر بحجر وتسقط من بين يديه إلى قاع النهر.

انتفض الشيخ رجب، وضع المولود على كيس من الطحين، وراح يمسح العرق الذي بدأ يتصبّب منه بطرف كمّ سترته. صار ينفض رأسه للتخلّص من تلك الفكرة ومن آثارها اللعينة، وبدأ يلتفت شمالاً ويميناً خوفاً من أن يتلصص أحد على أفكاره...

مسكين أنا، مسكين يا رجب.

ترى ماذا أفعل بها؟ يسأل الشيخ رجب نفسه، محاصراً بفقدان أيّ منفذ للخلاص، توجّه مباشرةً إلى المولود: «شو بعمل فيك، انطقي، وين أمّك؟ وليش تركتك هون؟ لا بدّ أنها بتخاف عليك، لذلك جابتك لهون على المطحنة حتى تحميك تحت سقفها، وهي أكيد بتعرف أني رح لاقيك، متأكّدة من أني رح أجي، وعلى أبعد تقدير بكرا صباحاً... يا ريتني مت. ولكن لو مت يمكن أنت كنت كمان مت، على كل حال لو مت كنت تخلّصت من هالورطة، يمكن أمّك ما فكّرت بهالاحتمال، ولو فكّرت فيه، ما كانت حطّتك مباشرة على حجر الطحن حتى شوفك دغري، مجرّد ما فوت من الباب. ما بعرف، يمكن فكّرت بكل احتمال، ويمكن أمّك هون مش بعيدة متخبّاية بشي مطرح ناطرة حتى حدا يجي ويحملك، وقتها بتطمن بالها وبتروح، وها الحدا لسوء الحظ هو أكيد أنا، مين غيري رح يجي؟ ومين غيرك منحوس يا رجب؟

ضجّ رأس رجب، صار أكثر عصبية وارتباكاً، أفكارٌ سوداء تراوده يطردها دائماً بالتعوّذ بالله من الشيطان، صار يروح ويجيء مجدّداً ويهرش في لحيته. فكّر أن يخرج ويختبئ فوق سطح المطحنة. يرسم فخّاً لتلك اللعينة التي تركت مولودها، سيراقبها ويتحيّن ظهورها ودخولها الباب، لينقضّ ويقبض عليها، ثم بدأ بتنفيذ خطّته. حمل قنديله وخرج، أغلق باب المطحنة كالمعتاد، وقفله كي يوهم من يراه أو يراقبه خلسةً أنه جاد في ذلك، وأنه عائد إلى البيت، موحياً كأنه لم يرَ شيئاً، أو حدث له مكروه.

«ما شاء الله القمر بدر ملاَ السما» قال بصوت عالٍ متقصّداً ذلك، وأطفأ قنديله. وحين أصبح وراء المطحنة في ظلّ شجر الدلب الكثيف، التفت وصعد السطح، وحبا على مهل نحو حافّته المطلّة على الطريق، فعلقت قدمه بين حجرين من حجارة الساقية التي تحمل الماء إلى جبّ المطحنة. حاول تخليصها فهوى نصفه في تلك الفتحة التي يسقط فيها الماء عادةً، متدفّقاً بقوّة.

شتم نفسه على تصرّفه الغبيّ. «شو هالأفكار الخرى يا رجب؟ كنت لولا ستر الله، صرت خرى سمك». خلّص جسمه من الجبّ وحاول تخليص حذائه، لم يستطع، خرجت قدمه بدون الحذاء، فتركه وعاد أدراجه نزولاً إلى المطحنة. سمع ما يشبه وقع أقدام بشر، أو حوافر على الحصى خلف شجر الدلب، بموازاة مجرى الوادي. تذكّر أنه لم يلمح دابّته في المكان المعتاد الذي يربطها فيه، تحت شجرة البلوط. مشى

ليتفقّدها، كانت لم تزل مطرحها، تبحث في مخلاتها عن بقايا علف. ثم عاد مسرعاً، أشعل قنديله ودخل المطحنة، إذ تهيّأ له أن مكروهاً قد حصل للطفلة. «يا ألطاف الله». أدرك رجب أنه فعلاً وقع في الفخّ، شاهدها، بعدما فتح الباب، ما زالت في مطرحها على أكياس الطحين، تتململ في خرقها وتنعص.

«علقت يا رجب»، قال لنفسه، علقة بنت كلب، «طز يا للي أمان». نزع عمامته، لمعت صلعته تحت ضوء قنديله، حكّها، هرش تحت ذقنه عند منبت الشعر، تحسّس رقبته، حكّ لحيته طويلاً، وهو يتأمّل في الطفلة تتململ في خرقها وتلهث بكاءً خاوياً. لا بدّ أنها جائعة، ماذا أطعمها؟ منين بجيب لها الحليب؟

شو أنت بقرة يا رجب؟ ضحك وكرّر موّاله: «طز يا للي أمان». حمل إبريق الماء الفخاري، نقّط لها نقطتين في فمها، شهقت، كادت تختنق، حملها على الفور، رَبّتَ ظهرها وبدأت بتمرينها الأول في البكاء.

شعر الشيخ رجب أن بكاءها جميل، وأحسّ بخيط يربطه بها، ومضة ضوء لا يعرف مصدرها. هدهدها، رَبّتَ ظهرها، علاّها، وغنّى لها بصوته الأجشّ:

يا سمرة ويا طويلة

بتسوي كل العشيري

تأمّل الشيخ رجب في وضعه الليلي، وكاد لا يصدق أنه فعلاً

يغنّي لطفلة، وجدها في المطحنة. فضحك. «شرّ البلية ما يضحك يا رجب»، وواصل تلك الأغنية التي حفظها على ما يبدو بشكل عشوائي غير متناسق.

نامي نامي يا زغيري

ما عنّا ولا حصيري

نامي فوق الغيمة

بقرتنا إسمها نجيمة

حليباتا للجيران

وأنا بأمري حيران

وهذه الأخيرة، أي «الأنا بأمري حيران»، من إضافاته، نسي الشيخ رجب بقية الأهزوجة، فعاود وكرّر مطلعها، لكن الطفلة لم تكفّ عن البكاء، وكانت تفجر عندما يتوقّف، فاضطرّ إلى التأليف بعدما ملّ الإعادة:

نامي فوق الغيمة

بقرتنا اسمها نجيمة

حليباتها للجيران

والطبخة طبخة عيران

ويا رجب ويا منحوس

قوّي شويّ هالفانوس

واكتشف رجب أنه موهوب في تأليف العدّيات، فصار يجتهد

ويعيد ويرتجل بين الفينة والأخرى محافظاً على الإيقاع واللحن:

ها ها ها ويا الله

منين اجتني هالمصيبة يا الله

وما شاء الله وما شاء الله.

وبرغم كل محاولاته في استخدام مواهبه، لم تكفّ الطفلة عن البكاء، فراح يقرأ عليها آيات من القرآن، لكن على ما يبدو، لم ينفع معها ذلك، بل واصلت بكاءها. بدت لرجب أنها أكبر من عمرها بكثير، جرّب بضع آيات من سور مختلفة، وأيقن أن لا شيء يسكتها سوى حليب أمّها.

فكر رجب. من أين يجيء بأمّها. كاد يفقد صوابه نهائياً، فراح يشتم أهلها وتحديداً أمّها، «أمّك هالشرموطة ما لقت غير هالمطحنة ترميك فيها؟ العمى بعيونا شو بلا ذوق وبلا رحمة، وتابع الهدهدة والغناء هاوها ويا الله، شو هالمصيبة يا الله، وها وها... ويا الله.

طنّ صوت في أذنه: أنا شرموطة يا حيوان؟ يا عيب الشوم على لحيتك. هيدي بنتك يا حمار... هيدي بنتك، فهمت يا حمار، فهمت؟

تجمّد الشيخ رجب، جمد الدم في عروقه. انعقد لسانه، أرخى بدنه على كيس من الطحين، الطفلة بين ذراعيه. همد بكاؤها، أحسّ أن عقله تزحزح من مطرحه، فراح يبسمل ويعلك الحروف، والعجب أن الطفلة توقّفت عن البكاء عندما سمعت صوت المرأة.

حاول الشيخ رجب النهوض، أحسّ أن ساقيه لا تقويان على حمله،

شدّ عزيمته، متمالكاً نفسه. لم يعد البقاء في المطحنة والتردّد مفيداً، بل على العكس بدأ يجلب إليه مصائب أخرى.

«ترى، هل ما سمعته يا رجب حقيقة أم أنت تتوهّم ذلك؟» فكّر رجب، ثم حاول النطق، مستفسراً عن مصدر الصوت: مين؟ مين؟ لا أحد يجيب. حمل قنديله في يد، وحضن الطفلة في يده الثانية، ضمّها إلى صدره، أقفل خلفه باب المطحنة على عجل، وعلى عجل توجّه نحو دابّته، امتطاها، كان لسانه منعقداً على البسملة. نهرَ الدابّة ووجّهها صعوداً في الدرب، تذكّر أن زلفا الغريب، قد وضعت طفلاً قبل أيام، وبإمكانها أن تكون مُرْضِعة لهذه الطفلة الغريبة. تنفّس عميقاً كأنه عثر على كنز عندما خطرت في باله زلفا. إنه الحلّ الوحيد المحتمل، وإلاّ فمن سيرضع هذه الطفلة ويهتمّ بها؟ «الحمد الله»، حمد رجب ربّه على فطنته، وكرّر ملامته له على هذه الورطة التي أوقعه فيها: «ضروري رجب، ولو... ولو»، ثم افتكر أنه يبلي ويعين، وإلا فما كان ألهمه أن يتذكّر زلفا الغريب، بل كان جعله نهباً للشكوك والأفكار السوداء. ولكن ذلك الصوت الذي صرخ بي وقال: «هيدي بنتك يا حمار» من أين جاء؟ لعله تهيّؤات، لكن كان واضحاً وصارماً وصريحاً ووقحاً، قالت لي حمار! عجيب.

كان الليل على منتصفه، حين طرق باب زلفا الغريب، مردّداً أنا الشيخ رجب يا زلفا افِتحي، افتحي يا بنتي لا تخافي أنا بورطة.

جاء الصوت من الداخل: خير شوفي بهالليل يا شيخ؟ إن شاء الله

خير، أجابها: كلّه خير، افتحي ومنحكي. بدت زلفا محرجة، فزوجها لم يكن في البيت، كان يعمل في ورش البناء في المدينة، يأتي مرة في الأسبوع، لكنّ إصرار الشيخ رجب ومكانته، عاملان سمحا لها بأن تفتح الباب. فتحت وهي تهدهد مولودتها التي استفاقت على الجلبة التي أحدثها الشيخ رجب.

بادرها على الفور ما بين الجدّ والمزاح: «خلّفت بنت، صار عندي بنت يا أمّ الزلف» وفجأة دهمه البكاء، كأنه استحقّ الموقف الذي هو فيه، فراح يبكي ويندب حظّه، «لقيت بنت بالمطحنة».

تجمّدت زلفا في بابها، غير مصدّقة ما تراه وسألته بتردّد: بنت مين يا شيخ؟ بنتك؟ أيمتى رجعت تزوّجت يا حسرة؟

«عينيني الله بعينيك يا زلفا». اختلط بكاء الطفلة ببكاء رجب، ببكاء ابنة زلفا، اختلطت الأمور، حارت زلفا في ما تراه، هي الأخرى ظنّت نفسها في حلم، وأن كل ما تراه ويحدث في منتصف هذا الليل المقمر، مجرّد كابوس وسيزول بعد قليل.

«رضّعيها يا زلفا حرام. أكيد هيدي بعد ما عرفت طعم الحليب من وقت اللي خلقت».

دخلت زلفا، ووضعت ابنتها في السرير، ثم عادت وتناولت الطفلة من الشيخ رجب. تغير بكاؤها حالما أصبحت بين يديها، فصار البكاء نهنهةً. اقشعرّ بدن زلفا، حين همّت لتخرج ثديها، طفل ليس من رحمها، ولكن الإحساس بالأمومة، وشعورها بأن هذه الطفلة جائعة

وبحاجة إلى أمّ، وإلى حضن وثدي، أمور جعلتها أمام واجب لا بدّ من القيام به، وأن ما ستقوم به هو نوع من عمل الخير أو الحسنة التي ستدفع عن ابنتها البلاء وتردّ الشرّ. أفكار سريعة ومشوّشة كانت تدور في رأس زلفا، حينما استدارت وأخرجت ثديها لتعطيه طفلةً غريبة، شعور غريب اجتاح كل كيانها وجسدها عندما التقطت تلك الطفلة حلمة ثدي زلفا وراحت تمصّها.

شعرت زلفا أن حليبها سيحتجب للحظة، عندما أصبحت حلمتها في فم غريب عنها، لكنها حنت على ثديها وعلى الطفلة لتستدرّ حليبها. كانت تنظر بطرف عينها من فوق كتفها إلى الشيخ رجب، الذي بقي مسمّراً في الخارج، كان يطلب من الله أن يدبّ الرحمة والحنان في قلب زلفا.

استسلمت زلفا، تواطأت مع نفسها على إحساس جديد، هو ليس بغريب عن ذلك الإحساس الذي ينتابها عندما ترضع ابنتها، لكن الشعور بدفق الحنان هو أكبر مع رنيم. ورنيم هي ابنتها. أما التوتّر الذي شعرت به في البداية، فقد خفّ كثيراً، بل زال تقريباً. خطر ببال زلفا أنها ممكن أن ترضع هذه الطفلة دائماً، ثم في ذلك ثواب. وافتكرت أن هذه الطفلة الغريبة ستصبح أختاً لابنتها رنيم.

كانت زلفا شبه مستسلمة لشعورها الجديد، وضوء القمر الذي يطلّ من النافذة، جعلها تبدو كظلّ امرأة في حضنها رضيع، هكذا تراءت للشيخ رجب.

قولك مين أمّها يا شيخ؟ سألت زلفا بحياء، فأجابها الشيخ رجب: لو كنت بعرف أمّها ما كنت دقّيت بابك بهالليل، العلم بيد الله. وشو اسمها؟ أضافت زلفا وهي تتأمّل القمر مكتملاً من نافذة بيتها، ثم استدركت أن سؤالها لا معنى له، فابتسمت على خجل، وضحك رجب وهو يجيبها: «لقيّة» اسمها «لقيّة». سمّيها بدريّة. اقترحت زلفا.

ذاع الخبر في تلّة سليمان: الشيخ رجب لقي بنت بالمطحنة، التبس الخبر. كان البعض يظنّ أنه عثر على بنت للزواج بها، بعدما مرّ على وفاة زوجته أكثر من عامين، هذا ما كان يتطلّب توضيحاً شخصيّاً منه، ما جعله يعيد القصّة مرّات ومرّات، كلما كان يلتقي أحداً يستفسر عن صحّة ما يشاع وما يحكى.

تكفّلت زلفا الغريب تربية بدريّة، وتكفل رجب بناء بيت لها بالقرب من المسجد. وتكفّل تمرينها على احتمال الدنيا: الزمن والتعوّد. اعتادت بدريّة أن تكون بلا مصدر ولا أهل، وإن كانت تنادي زلفا أمّي، اعتادت ذلك، مخفية تلك الحسرة التي وجدت مسرباً لها في الغناء.

***

كبرت بدريّة.

صارت تُعرف ببدريّة الشيخ رجب، كان البعض يناديها الستّ بدريّة تيمّناً بالستّ أم كلثوم، وأخيرات منهن كلطيفة مثلاً كانت تسمّيها النّدّابة.

على كل حال، كان صوت بدريّة حين تبدأ الغناء يفتق أوجاعاً دفينة في النفوس.

علّمها الشيخ رجب القراءة والكتابة، وصارت تقرأ كل ما تجده في دربها، حتى توصّلت إلى حفظ أشعار امرئ القيس وعنترة والمتنبّي وأبي العلاء وأحمد شوقي.

كان المذياع لا يسكت في غرفتها، عزّزته بآلة تسجيل وبمجموعة من الأسطوانات لمُغنّي ذلك الزمن، أمثال ليلى مراد، وأسمهان وأم كلثوم وعبد الوهاب ومحمد قنديل، حتى صار بيتها الذي بجوار المسجد، ملتقى الفتيات الحالمات العاشقات، بيت الأسرار والهوى، كما صارت تسمّيه. كان يعلو فيه غناء الشوق وهمسات نجاة الصغيرة ولوعات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ.

كان صوت مذياعها يطغى على الأذان أحياناً، فيطلب منها الشيخ رجب أن تطفئه لحظة حلول مواقيت الصلاة، لكنها لم تستجب لهذا الطلب السخيف، كما تقول للشيخ رجب: «لكل واحد صلاتو يا شيخ، أنا بخاف الله أكثر من كل هودي اللي بيصللو وراك» وتبدأ غناءها، وهي تخيط على ماكينتها التي من ماركة سنجر، فساتين البنات...

«يا مين يقولي أهوى
اسقيه بإيدي قهوة»

يضحك الشيخ رجب ويقول لها: «يا شيطانة على هالصوت ويهزّ رأسه طرباً ولوعةً».

كانت لطيفة تقول إن أم بدريّة هي تلك البدويّة خولة، التي كانت تأتي مع عازف العود سويحان. كانت تأتي الأعراس من السهل، لتشعل قلوب الرجال بصوتها وحسنها، وقد ورثت بدريّة هذا الصوت من أمّها خولة، وتذهب لطيفة في تقديراتها إلى أنها شاهدت خولة في عرس راجح الزمّار، وكانت مكوّرة البطن، وهذا الكلام كان قبل قرابة تسعة أشهر، وتروح تحسب على أصابعها الغليظة، وهي مسترخية على قفاها تحت شجرة السنديان، في جوار بيتها، حيث تلتقي النسوة في صباحات تلّة سليمان. كانت تحسب وتعدّ الأيام والشهور بين آخر يوم شاهدت فيه خولة والليلة التي وجد فيها الشيخ رجب بدريّة في المطحنة. وكم كانت تستمتع لطيفة باستنتاجها، وتقسم إن ظنّها لا يخيب، وهي تنهض بمؤخّرتها الهائلة، التي تتراجع عن جسدها متراً تقريباً.

كان رجب بدوره يمازح لطيفة ويقول لها عندما تتهمه بخولة: «في شغلتين فيك يا لطيفة بدن تشحيل، قصّ لسانك وطيزك، وهيك بيصير جسمك وعقلك متوازنين». كانت لطيفة تشتمه وتناديه بعاهة التلّة، فيجيبها غناءً بعدما اختبر موهبته في تأليف العدّيات:

يا مصيبة التلّة يا علّة
ويا دلّي شو بدّو يصير
لو شافو طيزك يا فلّة
هالرجال المرقوا بكير...

... ويضحك رجب، وتتوالى الشتائم والقذف بالحجارة ويعلو الهرج وتصخب الحارة ويردّد الأطفال أغنية رجب للطيفة:

هناءات عابرة أو مخطوفة، أذكرها الآن وأستعيدها بكثير من الشوق لا أعرف من بقي من هؤلاء ومن رحل، ولا أعرف إن كانت بدريّة لم تزل تغنّي وتخيط الفساتين لبنات التلّة...

* * *

يدو أني استطردت كثيراً، ودخلت في حكايات قابعة على حافّة النسيان، أو كانت في النسيان، ولا أعرف كيف عادت إلى البال.

الله.

زمان... كم كان ذلك الوقت أخضر ندياً، حنوناً وماطراً. على كل حال، كنت أستعيد ذلك اليوم الذي قُتل فيه والدي، وكيف تكفّلت بدريّة الإتيان بي إلى حضن أمّي.

أذكر أن بدريّة ألحّت على طرق الباب، وهي تواصل غناءها الحزين:

عبد الجليل بيّك ما مات

بيّك شقّ العتمة وفات

وهذان البيتان تنويعٌ على قصيدة تقول:

كنّا طيور يا صاحبي

ما صادنا صيّاد،

الأجل المقدّر يا ربّي وقعت،

بليلة الجمعة ركبوني جمل عالي

يللي سايقو جلاّد

في ناس قالو قتل

وفي ناس قالو مات

أماّ المحبّين قالو

كسر قيد الحديد وفات

أذكر أن هذه القصيدة لشاعر سوري اسمه أحمد القابوني، وأحمد هذا كان زمن المجاعة، خلال الحرب العالمية الأولى، يسطو على القطارات المحمّلة بالحبوب المتّجهة إلى الأستانة، ويوزّع الغنائم على الفقراء والجياع. وكان، كما وصف نفسه، طائراً لم يصده صيّاد، إلى أن دبّروا له مكمناً ذات يوم، ووقع في الأسر ليُحكم عليه بالإعدام، وقد أنشد هذه القصيدة، قبل لحظات من إعدامه.

كانت جدّتي تردّد بعض مقاطع هذه القصيدة، كذلك بدريّة التي كانت تنوّع عليها في في المناسبات، وارتجلت في ذلك اليوم:

عبد الجليل بيّك ما مات

بيّك شقّ العتمة وفات

لا أدري آنذاك ما هي الحكمة من قيام بدريّة بذلك الدور، بقيت تواصل الطرق والغناء، وكلما ألحّت، كانت أم مريم تشدّني أكثر إلى

صدرها، لكأنها تريد أن تصهرني في جسدها، أن تدخلني تحت جلدها ولحمها.

أذكرها تماماً، وأشمّ رائحة جسدها المبلّل بعطر ماء الورد، والمعرورق من التوتّر والخوف، كانت رائحتها نفّاذة، خدّرتني. كأني في كل مرّة أتذكّرها، أشمّ تلك الرائحة وأشعر بنشوة. كان جسدها مكتنزاً ومنسكباً كمنحوتة، لقد تعرّفت عليه بعد سنين من ذلك اليوم الفجائعي، يوم دخلت الباب نفسه، وكان هذا الجسد الأبيض النابض بالشهوة، غائماً في بخار الماء، لكأن عين رسّام تراه، ولا تريد فضحه كاملاً، فجعلته في غموض وسراب، أذكرها الآن وإلى الأبد، كان جسدها متوثّباً، تجمّع على نفسه، تكوّر، حين فتحتُ الباب، جفل من لفح الهواء والضوء، فثنته، ضغطت فخذيها وغطّت الثديين براحتيها، حينما ظهرت عليّ كالصعق، يومها كنت آتياً إليها بغية الانتقام لمريم.

أذكر أنها شهقت، ثم زفرت هواء محموماً اختلط ببخار الماء، وحين سألتها:

أنت قتلت مريم؟ تلوّت، نظرت إليّ كاللبوءة الجريح، تبدّد حياؤها، ثم انهالت عليّ بكل جسدها...

افترستني.

عرّفتني على متاهة الشهوات... أحسست يومها بمزيج من الرعب والشهوة، رغبات غامضة اجتاحت كياني، حزن وغضب وشعور

بالانتقام. هذا ما أحسست به في تلك اللحظة، كنت أريد أن أنتقم لمريم... لكنها!

ومريم كما رويت لك، أول غرام في عمري، رعينا معاً أغنامنا في فلوات تلّة سليمان، وتوغّلنا في غاباتها، وتدحرجنا على العشب اليابس، في مواسم الحصيد، وتمرّغنا بزهر القندول، تجرّحت أيادينا، وكثيراً ما تاهت منا القطعان في الضباب، وبكينا.

مريم، سمّمت لها أمّها وماتت على زندي.

وكان الذي كان...

على كل حال...

كانت بدريّة تواصل طرق الباب، وأمّ مريم تضمّني إلى صدرها، لكأنها لو تركتني لسُلخت قطعة من لحمها. كان صوت أمّي يصلني واضحاً، أستطيع أن أميّزه من بين أصوات النساء، كذلك صوت جدّتي ليزا، كنت أتبيّنه برغم خفوته.

صوت جدّتي شحيح وقليل، صار غائراً في صدرها بفعل الكبر، بفعل الزمان وأسيده. كأنه آتٍ من أطراف النسيان...

يا ويلي من بعدك يا عمري

ويا دمع العين جود...

ويصخب البكاء.

عتيق هذا الحزن في قلوب أهلي. عتيق بعتق الزمان، لوعات وأشواق وفراق دائم. عتيق أينما حلّوا هناك في تلّة سليمان، هنا في وادي

الدموع، حيث أنا الآن أستقبل تلك الذكريات بكثير من الشوق.

صرخ أبو حمزة النجّار: يا جماعة صلّوا على النبي. وأبو حمزة النجّار كبير من حكماء تلّة سليمان بمقاييس ذلك الزمان، أتخيّله، وقف على هامته العالية ورفع عباءته على منكبيه، أشار بيد رسولية طالباً من النساء أن يكففن عن العويل والنواح، وطلب من بدريّة أن تتوقّف عن طرق الباب. نادى أمّ مريم بصوته العريض الموحي دائماً بشيء من المهابة والحزم: أعطيني الصبي يا بنتي. قالها من بعيد وهو يتقدّم صوب الباب، ثمّ كرّرها ثانية: أعطيني الصبي يا بنتي، بلهجة ليّنة توحي شيئاً من الألفة وأضاف: لا تخافي، أنت بأمان.

يبدو أن كلام أبو حمزة أشاع الاطمئنان في قلب أمّ مريم، شعرت بذلك من الارتخاء الذي أصاب جسدها المتشنّج ويديها المتشبّثتين بجسمي. ثم أطلقت نَفَساً خرج من أعماقها وهي تفرج ذراعيها عني، كنت ملتصقاً بها مبللاً بعرقها، تركتني لسبيلي، قائلةً: «روح حبيبي روح لعند أمّك». نهضتُ لكأني أنفسخ منها، اتّجهتُ صوب الباب، نهضتْ من مطرحها لفّت الشرشف على جسدها، بعد أن فردته كاملاً، ليغطّي عريها، نظرت إليّ بعين مذبوحة، خائفة، نظرت تماماً من فوق نهدها عند مسقط الكتف، حنت رأسها نحوي، وأنا أنظر في عينيها برجاء وذهول. هكذا أذكر، أو هكذا ينبغي أن أكون في مثل عمري آنذاك، وأمام فجيعتين كبيرتين، كما أراهما الآن: مقتل والدي، وجسد امرأة ينبض من الخوف والشهوة، يرتعش ويقطر ماءً. سبقتني بخطوة،

مسكت يدي، ثم رفعت مزلاج الباب، شقّته قليلاً على ذلك الضحى الجنائزي، فاختلط صريره بالبكاء وبنشيج مريم، أذكرها بقيت مكوّمة في مطرحها، تبكي وترتجف.

كانت الجلول حول بيت أهلي مكتظّة بالناس، غابة من الرجال بحطّاتهم السود، كلهم التفتوا نحوي، لحظة خروجي من الباب، كنت خدراً وغائباً عن جسدي، أمامي مباشرة كان يقف أبو حمزة بهامته وبوجهه النحاسي، قرفص أمامي فوازى طولي، حدق إلى عيني، كانت نظرته توحي السلام والحكمة. ضمّني ورفعني إلى صدره، قبّل جبيني. كانت أم مريم قد أبقت الباب مشقوقًا بحيث تستطيع أن تطلّ منه، بحيث ترى من في الخارج ولا تُرى. لمحها أبو حمزة فقال لها: «أنت ما خصّك يا بنتي. انت بأمان، لا أحد يقترب من هذا البيت»، كان أبو حمزة يخلط في حديثه بين الفصيح والمحكيّة. كان والده فقيهاً في مدينة حلب، قبل أن يرحل ويستقرّ في تلّة سليمان، مع عائلته.

* * *

لا أعرف ما الحكمة من إبعادي عن بيت أهل مريم، كان همس يدور: لا ينبغي أن يبقى الصبي، وهو أنا، أو الذي كنته، لا ينبغي أن يبقى في بيت قاتل والده. والذين قالوا ذلك، لا أعرف هل عرفوا أو علموا لاحقاً ما حصل لي مع هذا البيت! حكاية أكثر مرارة وأسى، وضعتني يومها على بداية طريق مجهول، أنا الآن في نهايته على ما أعتقد.

بعدما رفعني أبو حمزة إلى صدره، ونهض بي، شاهدت على المصطبة الغربية، التي هي امتداد للبيت الترابي العتيق، جمهرة من النساء، تكومن وكنَّ يلوّحن بمناديل بيض، وعلى المصطبة الشرقية المطلّة على درب البياض، نحو الغموض والغابات البكر، كان الرجال بحطّاتهم السود وبعكاكيزهم وعصيِّهم وتبغهم، بعضهم يجلس القرفصاء، يفتح علبة التبغ ويلفّ سيجارته بتمهّل، آخرون على كراسي الخيزران، هم من وجهاء القرية، اثنان منهم يتهامسان، بعضهم الآخر في أطراف الجلّ، تحت الشجر، مُسنّون يجلسون على الأرض، يحوكون بعكاكيزهم أشكالاً مبهمة على التراب، أظنّ أنها نوع من التعبير عن السأم. بين حين وآخر تعلو شهادتهم: لا إله إلاّ الله.

تقدّم أبو حمزة من مصطبة النساء، وضعني على حافّتها لأذهب إلى أمّي، في تلك اللحظة صخب الندب واختلط بزغردة البعض، تلك عادات أهل البلاد.

سقطت كفرخ طائر في حضن أمّي.

جدّتي تلوّح بيدها الشديدة النحول:

عبد الجليل بيّك ما مات

بيّك شقّ العتمة وفات

صخب العويل.

كان والدي مسجّى، مكشوف الوجه، للحظة برقت عينا قاتله في خيالي، عينان مجمرّتان، كان رأس والدي معصوباً بكوفيّة بيضاء،

زنّرت جبينه بإحكام، بقعة حمراء تتوسّطها عند جبهته العريضة السمراء، الملفوحة بشمس الهجرات والرحيل.

بدا لي كأنه نائم، كأنه يحلم، ابتسامته مرتسمة على شفتيه، هكذا أعرفه دائماً أثناء نومه، يداه معقودتان على صدره، قدماه منفرجتان قليلاً، كأنه نائم ومطمئن وغارق في حلم جميل. طلب مني أبو حمزة أن أقبّله، وأطلب منه الرضى، وأطلب لروحه الرحمة. فعلت، وقلت له: «إترضّى عليّ يا بيي». ثم شعرت بألم وحرقة في حنجرتي، شيء يشبه الحريق، وحين لامست شفتاي خدّه البارد، بكيت، ومرّغت وجهي في وجهه، وددت لو يضمّني إلى صدره، أحسست وأيقنت في تلك اللحظة أنها المرّة الأخيرة التي أراه فيها. «ضمّني يا بيي» قلت له، «لا تتركني وتروح». أشعل كلامي الحزن في النفوس، بكى أبو حمزة، واشتدّ نحيب النسوة.

أمسكني أبو حمزة من يدي، واصطحبني إلى دارته المجاورة لبيتنا، كانت والدته العجوز تقصّ على أحفادها وشلعة من أطفال القرية حكاية نهر العجائب...

أعرف تلك الحكاية يا أمّ حمزة، لقد عشت بعض وقائعها يا أمّ حمزة، ونهر العجائب هو وادي الدموع، مسقط رأسي، بلاد أهلي وأجدادي، هو حيث أنا الآن في هذه الخربة التي كانت بيت أهلي، مكوّم تحت سقف ناقص متداعٍ أستعيد شريط أيامي.

وادي الدموع صارت في تلّة سليمان وادي العجائب. الناس هم هكذا

يخلطون بين الحكايات، يحذفون ويضيفون ما يرونه مناسباً لأحوالهم. لذا لا عجب أن تصبح وادي الدموع في بلادي الثانية، نهر العجائب. ويروى أن هذا النهر بدأ يغيّر مجراه منذ أن استحمّت عند مصبّه زوجة الراعي سليمان في غيابه الموسمي نحو السهول مع قطيعه.

هي هكذا الدنيا... لازمة تردّدها جدّتي عندما تقصّ علينا الحكايات.

إذاً،

في تلك الليلة تكوّمت مع شلعة الأطفال، في بيت أبو حمزة قرب أمّه التي كانت تخلط بين الحكايات على قدر ما تسعفها الذاكرة، حكت لنا حكاية مجنون الوادي الذي حمله قاتله على طول الصحراء، وكان جرحه طرياً ينزف دماً فتحوّل خيط دمه إلى وادٍ نبتت على أطرافه، أشجار قانية اللون لا يموت زهرها على مدار الفصول.

أذكر أني كنت في تلك الليلة شبه مخدّر، وكان يختلط صوت أم حمزة بصوت البكاء والحسرات الي تتسرّب إليّ من بيتنا، ثم غفوت على ندب شحيح اختلط بمناماتي.

في صباح اليوم التالي، حملوا أبي إلى المقبرة، مشت أمّي خلف النعش خطوات قليلة، لم تتعدَّ عتبة البيت، حمّلته سلاماً إلى أخي، كذلك فعلت بقيّة النسوة وحمّلنه سلاماً إلى الذين رحلوا، هكذا هم أهل تلّة سليمان يبعثون برسائل الشوق مع أمواتهم الجدد إلى الذين رحلوا من زمان وطواهم التراب.

مشى به الرجال، تتقدّمهم النوبة بالبيارق والطبول، صوت الشيخ يردّد بين حين وآخر: كل نفس ذائقة الموت، وحّدوا الله. لحظة خروجه من البيت اشتدّ العويل، غنّت بدريّة: «يا الرايح سلّم على اللي راحوا من زمان». ارتمت أمّي على النعش، حملوها إلى المصطبة، مشوا به نحو المقبرة، بقيت النساء مكوّمات قرب أمّي، الرجال وحدهم يحملون الميت إلى مثواه الأخير، هكذا هي العادة، كان قرع طبول النوبة يتردّد صداه في الأودية فتجفل الطيور وتتبلبل في السماء.

لا أذكر من هو ذلك الرجل الذي كان يمسك بيدي، ونحن في طريقنا إلى المقبرة، لم ألتفت إلى وجهه. كنت طوال الطريق أنظر إلى النعش، وكأني غير متيقّن مما حدث، أحياناً كنت أتعثّر بحجر فتشدّني تلك اليد الغريبة وتحميني من السقوط، شعرت حينها كأني أمشي في حلم، أو أني هكذا أذكر، لم تكن الأشياء واضحة تماماً أو محسوبة.

عندما وصلوا إلى المقبرة، أخرجوا والدي من النعش، وحملوه إلى حفرته. أفلتُّ يدي من يد الرجل وأسرعت صوب الحفرة، رأيتهم ينزلونه فيها متمتمين آيات من القرآن، وحين أُهيل التراب عليه، انهمرت دموعي غزيرةً، وودت لو أستطيع انتشاله من هذا التراب، لأعيده إليّ، وهممت نحو الحفرة لكن يداً شدّتني، ربما هي يد الرجل نفسه الذي لم أر وجهه، هدّأني وضمّني إلى صدره. لم يقل لي شيئاً يذكر، لكنه بقي وقتاً طويلاً ممسكاً بيدي.

شعرت يومها بثقل ضاغط على صدري، لازمني لاحقاً زمناً مديداً.
وضعوا حجر الشاهد، قرأوا القرآن، ثم تفرّقوا .

أذكر أني بقيت قليلاً بجانب قبر والدي، أتأمّل في التراب، أشمّ رائحته الرطبة، كنت مشتتاً وخاوياً، وعندما عدت إلى البيت، عدت وحدي، يتملّكني شعور بالضياع.

وبدأت رحلتي في هذه الدنيا.

* * *

هل غفوت؟ سألت كلبي، وكان قد تمدّد فارداً جسمه قربي، كعادته نظر إليّ بنصف عين مغمضة، حرّك ذيله قليلاً بدون إسراف، تعبيراً عن تواصله معي أو عن ابتهاجه بصحبتي، ثم تابع كسله أو إغفاءته وتابعت سيرتي.

صرت راعياً، وأنا في حدود العاشرة من عمري، أو أكثر بقليل. كم أشتاق إلى تلك الأيام، كنت أسرح بالقطيع، وأغنّي، أقلّد صوت رشيد الراعي الذي مات مسموماً، سوف أخبرك عنه، كنت أقلّد صوت رشيد، لكني كنت أعلم أن صوتي جميل. كان الحزن يتعتّق في قلبي، وكنت أشتاق إلى والدي، وأغنّي الفراقيّات مثل جدّتي، قالت لي إن صوتي حلو وحنون مثل صوت أمّي. شجّعني رشيد على أن أغنّي وصرنا نتبارى في الغناء.

لم يكن خياري أن أكون راعياً، ولكني ورثت القطيع من والدي،

والغناء من أمّي. وهذا يكفي لكي أكون راعياً. كانت أمّي تهتمّ بإخوتي الصغار الذين ولدوا في تلّة سليمان، رجب وسمارة وهبة، لا أعرف عنهم شيئًا، وماذا حلّ بهم، المهمّ كانت أمّي تعتني بهم، وكان عليّ أن أسرح بالقطيع لأنني الأكبر.

صرت راعياً وصار لي صديق، هو نمر، كلب القطيع، أول صديق لي في حياتي، بعد رشيد، لم يفعل ما فعله كلب رشيد يوم مات، لأنه في ذلك اليوم، كان مع القطيع في أعالي الجرود، مع أحد الرعيان الذين كانوا يتناوبون على ضمّ القطعان والسراح بها، مقابل جَدْي أو خروف في كل موسم.

لم يعرف نمر أن والدي قتل، لكنه بعد أيام بدأ يشتمّ غيابه الذي طال، فتبدّل مزاجه، قطع الطعام واعتزل لأيام في الصيرة، خفت كثيراً عليه، وكنت أحاول إطعامه كما الطفل، أغريه أحياناً بقطعة لحم، يأكلها بدون شهيّة، بعد حين اعتادني، وصار رفيقي في تلك الجرود العالية. كان يسرق مني فردة حذائي، ليداعبني، يحملها ويركض بها مسافة ثم يعود ويرميها أمامي.

كنا نتوغّل في الجرود العالية وفي السفوح على المنقلب الآخر للقرية، احياناً نبيت الليالي في الأعالي هناك. ننام في الكهوف ويحرسنا نمر، وكانت أمّي تأتينا بالزاد، حين يشاهدها قادمة من بعيد، يركض نحوها ليستقبلها، يحمل الزاد في فمه ويركض نحوي، يضعه أمامي ثم يعود ويزاول استقباله أمّي، يقفز عالياً وينبح، ويجفل القطيع حين يتمادى في النباح.

كنت أقرأ دروسي في المراعي، وأحفظ الأشعار وأنشدها أمام نمر، أتلوها عليه مثلما أتلو عليك الآن حكايتي، لكنه لم ينم مثلك، كان يصغي ويلوّح بذيله عندما أبدأ بقصائد الغزل.

حفظت القرآن في بيت الشيخ ابراهيم، وتعلّمت من جدّتي مئة موّال شروقي وقول الفراقيّات. حفظت من كتبي المعلّقات وشعر الحماسيات، وتعلّمت من أمّي صوتها والحنين.

صرت راعياً وأغنّي، يطرب لصوتي قطيعي، ويطرب الطير. كان صوتي فخّي الآخر، صرت أستخدمه بعد سنوات، لغواية مريم بعد عودتها من السهل، مع أمّها. وكانت قد غابت لسنين قبل أن تعود عصر ذلك اليوم، سوف أخبرك عن ذلك. وكما تعلم أن مريم غادرت مع أمّها تلّة سليمان، بعدما قتل والدها والدي. وكدت أنساها لو لم يكن بيت أهلها قريباً من بيت أهلي، يذكّرني على الدوام بها.

كنت أسأل أمّي: لماذا قتل والد مريم أبي؟ كانت تحيل أمّي العلم على الغيب. وتعاود بكاءها الخافت، وهي تقطف الهندباء البريّة من البستان، لتطبخها في المساء، كان إخوتي يتراكضون حولها، ولا يعرفون سرّ هذا الحزن الملازم لأمّي، ربما علموا لاحقاً. أمّا أنا فلا أعلم ما حلّ بهم.

منامات الضحى

الحكايات تولد الحكايات، لا أعرف سرّ انبجاسها من النسيان، أهو المطر سقاها فاخضرّت في بالي ولعبت بها نسائم الحنين؟ لا أدري، كانت مشوّشة وغامضة في البدء، قبل هذا المطر الذي جرفني إلى أولي، هناك... هناك حيث ودّعت أمّي في طريق البياض، وسلّمت نفسي إلى مشيئة الأيام.

وتذكّرت زينب.

كان اسمها زينب، وكانت فاتنة الحسن.

على بدايات صيف من أيام تلّة سليمان، كانت شمس الضحى حارقة، وكانت زينب تحوك على النول، بساطاً من صوف الخراف، مهنة ورثتها من الأهل القدامى، وكانت كائنات الصيف تحوك السماء احتفالاً بالحياة، ويحوك بعضها أعشاشاً، لتدبير أمر التناسل والبقاء.

كان صوت النهر في المنقلب الشرقي لتلّة سليمان، يحرّك في

النفوس مشاعر فيها شيء من الرهبة والترقّب، إذ إن هديره يوحي دائماً بالطوفان. كثيراً ما جنَّ هذا النهر وأعلن سخطه جارفاً في مواسم فيضانه بيوتاً وشجراً ورعاة وقطعاناً إلى الهاوية التي تكوّن ذلك الشلال الجليل. كانت زينب تحوك بساطها، تتأمّل في تلك المخلوقات، تفكّر في سرِّها ومصائرها، تزاول عملها، تخلّص خيطاً انعقد على مشط النول، تسلكه برفق وتكمل الغزل دون ملل، وكلما علت شمس الضحى ازداد منسوب الحسن، واحمرَّت الخدود.

سمعت زينب صوتاً جاء من ناحية النهر، صوت جَدْي ماعز، بدا أنه عالق في فلقات الصخور المسنّنة، في انحدارات مجرى النهر، الذي تصطفّ على ضفافه صنوف من الأشجار العاشقة للماء، دلب وحور، وتبدو هذه الأشجار في كل أحوالها، كأنها تشيّع جريان الماء وتدفّقه، تتمايل مهابةً للجريان، وكم من مرّة كان يقتلع بعضها، حين يمتلئ بذاته أكثر مما يحتمل، فيقتلع هذه الأشجار لتهوي متحطّمة في المنحدر الصخري. كان بعضها أحياناً يسدّ المجرى فتأتي من علٍ صخرة عملاقة تطحنها وهي تفرّ بعتُوّ.

هي هكذا دائماً تلك الأشجار الشامخة، تغامر بحياتها، بحيث لا تعيش ولا تنمو إلاّ بالقرب من المجرى، حتى لو اقتلعها الطوفان تعود وتجدد سلالتها بروح المغامرة فتشمخ وتتمايل وتشي أوراقها بسرّ الحياة حينما يبدأ الهبوب. هي هكذا شامخة، أغصانها أيادٍ تلوّح في وداع ماء النهر المتواصل التدفّق، والذي، في أضاحي أيام الصيف،

كان يفتّق رغبات دفينة في النفس ويعلّم التأمّل. هكذا استنتجت بعدما أدمنت مجاورته في سنوات لاحقة.

إنه الشوق.

* * *

كان الثغاء المتواصل للجَدي يصل إلى زينب محرّضاً على نجدته. هو أقرب إلى الرجاء. تركت زينب نولها وبساطها وركضت باتّجاه النهر نحو الصوت.

وكانت كلما اقتربت من النهر اقترب الصوت. أشرفت زينب على النهر، أصبحت على مقربة من الماء، عند استراحة من استراحاته التي تكوّن بركاً أو بحيرات صغيرة غاوية تحرّض على الجلوس والتأمّل في تشكّلاتها وهي تستكمل جريانها على مهل، لكأنها محطّات استراحة يتهيّأ فيها الماء مجدّداً للتدفّق في المنحدر، الذي يزداد حدّةً بوتيرة سريعة، مندفعاً نحو القعر، وسط الصخور التي تتوهّج بياضًا تحت الشمس، ليكوّن في ذلك الفجّ العميق، تلك البحيرة التي كنا نستحمّ بها، ويلسعنا كالإبر رذاذ الماء. كان من المستحيل أن يحتمل الجسد الاقتراب من التدفّق كي لا يفلق ظهورنا، هكذا علّمتنا الأيام.

وقفت زينب على صخرةٍ، تمتدّ كلسان فوق المنحدر السحيق. جالت بنظرها في النواحي والجهات، بحثاً عن مصدر الصوت.

نظرت نحو المصبّ حيث تتشابك غابة كثيفة لكأنها في ذلك التشابك العصيّ، تريد حجب سرّ النهر، تحتضنه كوليدٍ جديد لا يحتمل، لحظة خروجه من الرحم، وضوح العالم، أو تخشى عليه من الذهول لحظة التفجّر، فيحتجب عن التدفّق ويغور في غموض الأرض، في باطنها، لذا كان ذلك التشابك العصيّ والكثيف يحجبه عن العين.

لا أظنّ أن زينب ترى ما أراه، على كل حال، ليست الأمور على هذا النحو، لكنني الآن أتخيّلها هكذا، أو أنه يحلو لي أن تكون الأشياء بهذا المعنى والوظيفة. لكأني بحاجة ملحّة إلى إعادة تأليف هذا العالم وأنا في أكثر مطارحه وحشةً وتيهاً وجحوداً. هنا في وادي الدموع حيث تتمادى الصحراء في سرابها، في صمتها وعزلتها، وأتمادى في تخيّلاتي وفي استعادة الماضي.

الماضي هو الآن عكّازتي الثانية. أتوكأ عليه. وهذا حسب ظنّي أسعفني على مواصلة أملي بالنجاة...

أنا، الآن هنا، في وادي الدموع، على بُعد خمسين سنة وآلاف الأميال. أتذكّر لكأني أرى، أرى زينب، أشاهدها بوضوح، تجول بنظرها بدءاً من ذاك المصبّ العجيب للنهر نزولاً في المنحدر المتدرّج في الانحدار قبل أن يسقط دفعة واحدة نحو القعر، حيث كثيراً ما لسعنا الماء كقضيب رمّان في صيفيّات الشقاء.

لم تجد زينب شيئاً، لم ترَ شيئاً، ولم تعد تسمع شيئاً سوى صوت

تدفّق الماء وصخب الطير والحيوان والزيزان. اختفى ثغاء الجَدْي. خافت أن يكون قد سقط ومات، ثم كأنها سمعت ترداداً له، صدى في أعماق القعر.

تحفّزت. اقتربت خطوات حذرة من حافّة اللسان الصخري، جزءٌ منه يتمادى طولاً فوق الهاوية، وجزءٌ آخر فوق المجرى.

إنه تأليف عجيب.

عنَّ ببال زينب أن تجلس على الجزء الممتدّ فوق المجرى، كان يشبه الكرسيّ الذي أعدّ خصيصاً للجلوس الطويل والتأمّل في البعيد، حيث الجبال تترامى كصفحات كتاب وتنتهي سوداء نحو السهول الصاخبة الخضرة.

لكم جلس بشرٌ حيث تجلس زينب، على مرّ العصور، وتأمّلوا في تلك الجبال. كان يأتي هذا المكان السيّاح، والسابلة والمصابون بالحزن والأرق، والمتصوّفة والزهّاد والرعاة والعشّاق.

مع بدايات كل صباح، لحظة الشروق، كانت قمم تلك الجبال المتدرّجة الارتفاع والمتفاوتة الشموخ، بانتظام من الأعلى إلى الأقل علواً، كانت تُضاء مع بزوغ الشمس واحدة تلوى الأخرى، لكأن يداً سحرية تعزف الضوء على تلك القمم التي تُضاء تدريجاً بفرق زمني متساوٍ، حتى إن الفلاحين والرعاة في تلّة سليمان كانوا يعرفون المواقيت من حركة الضوء والظلّ على قمم الجبال والسفوح، وكانوا يعلمون أن الظهيرة حلّت عندما يكتمل الضوء

على القمّة الأولى ويختفي الظلّ من جهاتها الأربع. هكذا كانت تُضاء تلّة سليمان لتبدأ نهاراتها ويبدأ شقائي، وشيئاً فشيئاً تبدأ الأبخرة تتصاعد من الأودية والسهوب لتؤلّف في مواسم الربيع، غطاءً من الغمام يحجب الرؤية، وتبقى القمم وحدها ظاهرة، كأنها جالسة على صفحات الغيم.

لكم حلمت في مناماتي صبيّاً، وما زلت حتى اليوم، أحلم بأني أمشي على صفحة الغيم الناصعة البياض، الهشّة كالقطن، وألملم بقع الضوء من على القمم وأضعها في سلّة. في الواقع لا أعرف أكنتُ أحلم بذلك أم هو شطح من خيال، لكني كنت أروي ذلك لمريم إذ اتّخذنا من تلك الصخرة حيث تقف زينب، مطرحاً لمقدّمات الكلام في أحوال الهوى والحبّ، واكتشفنا جسدَيْنا وأن هناك ما يشبه الحمّى، من النوع الذي لا يُشفى منه، هي حمّى العشق.

مراراً أُصبنا بها وضاعت منّا المواشي، كانت تختفي في السهوب تحت الغمام، نعرف مطارحها من جرس الكرّاز ومن صوت رشيد، رشيد الراعي صاحب الصوت الشجي المحموم بالشوق.

يا إلهي لكم كان صوته يشعل قلوباً في تلّة سليمان. كانت الطيور تتمايل على أغصان الشجر، حين يبدأ رشيد بالغناء، وتصعد النسوة إلى سطوح المنازل، وتعمّ السكينة أنحاء القرية. وحده صوت رشيد يتردّد صداه في الأودية مثل كورس إغريقي. كان يزداد غرابة وغموضاً وسحراً وغواية في مواسم الضباب.

أشتاق إلى تلك الأيام.

أذكر ذلك بكثير من الحنين، على كل حال، دعني أكمل لك عن رشيد وعما حلّ بكلبه ليل.

رشيد

يروى أنه يوم مات رشيد، وكان موته غامضاً مثل مصدره، أعلنت نساء القرية الحداد ومشينَ بالأسود خلف جنازته. هذا أمر مخالف للعرف والتقاليد، حملن نعشه وطفن به أرجاء القرية وحاراتها، رقصن به وغنّين من مواويله. نثرن الورد فوق النعش ولوّحن بالمناديل وهنّ في صخب الرقص والغناء.

عفا الرجال عنهن، تجاهلوا الموضوع أو تواطأوا، أو أن زمام الأمور أفلت من أياديهم فغضوا النظر...

شاع الخبر بعيداً حتى قُرى الساحل، شرقاً نحو البادية، أن نساء تلّة سليمان تمرّدن على الرجال يوم مات رشيد مسموماً... وُجد مسموماً، نائماً على صخرة قرب مصب النهر، وقطيعه مكوّم بالقرب منه، وكلبه دامع كان يئن.

ويروى أن النسوة غسلنه بأياديهن، وتناوبن على سكب الماء

الساخن على جسده الممدّد كجذع حورة قصفتها الريح في شتاء ظالم. لم يجفلن من عريه، ولا من قضيبه المرتخي بين فخديه، لم يُشِحن بنظرهن بعيداً أو جانباً، حين فركت إحداهن بين فخذيه بالصابون، بل زغردن أيضاً.

قلن في ما بعد وتهامسن وبُحنَ لبعضهن: «كأنه لم يمت لولا ضمور قضيبه، كانت ابتسامته مرتسمة كالعادة على شفتيه»، كأنه يسخر منهن ومن لعبة الموت ومن طقس الغسل، ومن حفلة الوداع الجنائزية، ومن النّدابات اللواتي اشتعلن حزناً واحترقن.

كان بعضهن لا يصدقن أنه مات، فيقتربن منه، من وجهه، ويلامسن شفتيه بشفاههن، بغاية، أو بحجة التثبّت من موته، أو يضعن رؤوسهن على صدره ليتأكدن أن قلبه لم يعد ينبض.

«ما مات، هو نايم عم يضحك علينا»، قالت إحداهن فاختلط الضحك بالبكاء. وعندما وصفت إحداهن قضيبه بالباذنجانة المستطيلة السوداء، الذابلة والضامرة قليلاً تحت الشمس، أيضاً، اختلط النحيب بالضحك.

كان يوماً عجيباً يوم رحيل رشيد. هكذا يروى، أو هكذا أذكر، هي الأمور أيضًا تختلط عليَّ يا صاحبي.

... ويعرف أنه لم يكن لرشيد زوجةٌ أو أولاد، لكن موته كشف أن معظم نساء التلّة كنَّ عشيقاته. قالت سُمية، وهي أعتقهن علاقة به، إن رشيد حين فارق الحياة، أحست به، على رغم بعدها عنه، وعن المطرح

الذي مات فيه. قالت إنها عرفت ذلك من الطيور على غروب ذلك اليوم من نهايات صيف. كانت الطيور كعادتها، في جلبة لحظة المبيت في غابة السنديان المجاورة للبيت الترابي، وهو بيت عتيق كان يرتاده رشيد، فجأة، هبّت الطيور دُفعة واحدة من أعباب الشجر ومن أعشاشها، وكأنها تعرّضت للقنص، فحلّقت عالياً وبعيداً صوب قرص الشمس على حافة جبال التلّة. كانت تعود إلى الغابة وتعيد التحليق، ودائماً صوب غروب الشمس، وهذا لم تره مرّة في حياتها. تذكّرت سميّة أنها لم تسمع صوت رشيد في ذلك اليوم، سألت جارتها، هي أيضاً لم تسمعه، وكان عادة، خاصةً في لحظات الغروب عند المبيت، يتدحرج صوته من القمم العالية نحو السهوب والبيوت حتى قيعان الأودية.

في ذلك المساء، لم يغنِّ رشيد، لا أحد سمع صوته الذي كان يختلط برنين جرس الكرّاز، وبنباح كلبه المُؤْذِن بالعودة. كلّ شيء في ذلك اليوم بدا حزيناً وكئيباً وموحياً بالفقدان.

ضجّ ذلك اليوم بخبر اختفاء رشيد، تنادوا من على السطوح متسائلين عن سرّ غياب صوته، تشعّبوا في الجهات والمطارح، بحثاً عنه، ومن عادات أهل التلّة، أنهم كانوا يطلقون عيارات نارية عند كل خبر مهما كان نوعه. تردّدت في أودية التلّة أصداء الطلقات. شاهد الشيخ رجب، قطيعه قرب المصبّ، وكان واقفاً على سطح المطحنة، نادى جمهرة من الناس في مرمى نظره تقف على رابية، تُسمّى «مهبّ الطير».

علموا جميعاً، توافدوا ومشوا، مشى الرجال. ومشت النساء، مشين بلهفة الفقد، لحقن بهم صوب مصبّ النهر.

كان رشيد مستلقياً على ظهره، يده اليمنى تسند خدّه، كأنه في حالة غناء. بالقرب منه عكازه «البعقور» كما يسمّيه. قطيعه مكوّم حوله كحرسٍ مشلول، كسيح. وكلبه زائغ يصدر أنيناً موجعاً.

البعض ظنّه نائماً. قالت سميّة «رشيد ما مات، هيدي نومة الغياب».

ناحت سميّة... بكت النساء وزغردن. وصخب النحيب. هكذا تبدأ مراسم الحزن في التلّة.

حملوه، لحق بهم كلبه كسيراً دامعاً يقفز نحوه، وكان محمولاً على أكفّ الرجال، ثم يعود يجرّ نفسه، كأنه أصيب بالشلل، ودائماً يصدر تلك الأصوات الموجعة، أصوات تحاول إدراك ومعرفة ما حلّ بصاحبه، ولكن من سيقول له إن أحداً سمّم لرشيد مثلما فعلوا لمريم.

يروى، أو أذكر: بعدما دُفن رشيد بقي «ليل»، وليل هو اسم كلبه، بجانب القبر قرابة سبعة أيام دون أن يأكل أو يشرب، في اليوم الثامن اختفى، قيل إنه شوهد يمشي نحو الغابة، حيث كان يحلو لرشيد الجلوس في أعلى قمةٍ تُشرف على الجهات.

ذهب ليتفقّد صوته، قالت سميّة، أو أنا قلت ذلك الآن، ذهب ليتفقّد ظلّه أو صوته، أو ليشمّ رائحة الدروب التي مشاها رشيد...

أنتم معشر الكلاب فظيعون بوفائكم، قلت لكلبي، وأنا أستعيد أو أتذكّر تلك الحكايات.

تراني أنطنط من حكاية إلى حكاية، هي الدنيا هكذا يا فرند، حكاية تولد حكاية، فماذا يمكنني أن أفعل؟ هي حكايتي أيضاً أليس كذلك يا صاحبي؟

لم يكترث كلبي لكلّ تحليلاتي. تابع زيغانه في الفراغ، ما بين النعاس واليقظة. المهمّ كنت أروي يوم صرت راعياً بعد مقتل أبي، وصرت عاشقاً لمريم، وكانت المواشي تضيع منا في مواسم الضباب، ونحن غارقان في أعالي السفوح في حُمّى الجسد. كان صوت رشيد يذكّرنا بلحظة الفلول، ونتبيّن موقع القطيع من صوت جرس الكرّاز، ومن غناء رشيد.



على كل حال، لنعد إلى زينب.

نسيت زينب نفسها، هناك، على تلك الصخرة وقتاً طويلاً، كانت تتأمّل وجهها في صفحة الماء. وكان جريانه يلعب بملامحها، يكسرها، يخرّب تناسق الوجه، يسطّحه، يجعلكه أحياناً، يخفيه عندما يلعب النسيم بصفحته، وحين يهدأ يعيد لملمة الملامح وتشكيلها.

كانت زينب تراقب أحوال وجهها، في تلك البركة التي تستمهل جريان الماء قليلاً، وتخفّف من اندفاعه في المجرى المنحدر إلى غموض القاع.

فطنت زينب أنه يمكن المرء أن يتخيّل وجهه بألف شكل، في هذه

البركة، تارةً وجه إنسان، وتارةً وجه حيوان ملتبس الفصيل والجنس، ومراراً يجعله الماء دون شكل، حين يهبّ الهواء ويموّج صفحة الماء، فيزيل في دربه ملامح الوجه ويخفيها، فيصبح خيالاً أو شيئاً غامضاً.

كانت زينب تتأمّل هذه التغيّرات التي تطرأ على ملامحها في صفحة الماء، أو أنّها تتخيّل ذلك.

قالت بدريّة مرةً، إنها شاهدت وجه أمّها، هناك، وهي لا تعرف أمّها، لكن الوجه الذي تراءى لها في الماء، قال لها: «أنا أمّك يا بدريّة، سامحيني، لم يكن في يدي حيلة، سوى أن أتركك في المطحنة، بقيت هناك طوال الليل أنتظر إلى أن جاء الشيخ رجب وحملك... كنت أزورك في بيت زلفا، متخفّيةً بملابس عابري السبيل، من الرجال الذين يأتون من السهول، ويمرّون بتلّة سليمان نحو البادية، سامحيني يا بنتي»، هكذا روَت بدريّة، وحين سألها البعضُ أكان هناك شبه بينها وبين الوجه الذي تراءى لها قالت: «كأني رأيتُ وجهي، هو شبهي». عادت بدريّة وزارت تلك البركة مراراً، لكنّ أمّها لم تظهر عليها ثانيةً برغم النذور لمقامات الأولياء، وحتى للنهر نفسه، نهر العجائب.

ويُروى أن وجهاً شبيهاً بوجه زينب ظهر مرةً على أحد الزهّاد الذين كانوا يلجأون إلى ذلك المكان للتوحّد والانعتاق... وقد حفرت تلك الحكاية على باطن الصخرة: أن أنثى استدعته للقيام برحلة نحو عالم غير متحقّق على الأرض، فاستمهلها لتدوين ذلك وحفره على باطن الصخرة، وما زال كلامه المحفور موجوداً حتى اليوم:

مهلاً عليّ، كي أعبر ظلّي إليك،
خذي بيدي إلى الماء،
فروحي ظمآنة،
وجسدي مُلتاعٌ من الشوق.

كانوا يسمّونها جنيّة الوادي، تلك التي كانت تظهر على الناس، وأنا قد رأيتها مرّةً، قبل عودة مريم مع أمّها من السهل بعد مقتل والدي، وقبل أن نصبح رفيقين في رعي الأغنام، وحبيبين في مستهل ذاك العمر الذي ضاع سدىً على ما يبدو...

المهمّ، رأيتها مرةً واستدعتني إلى الماء، لكنّي لم أستمهلها لكي أدوّن تلك الحادثة وأحفرها على صخرة التأمّل تلك.

قالت لي: انزل لأعلّمك السباحة بعكس المجرى مثل ذاك النوع من السمك، السلمون. للمرّة الأولى كنت أسمع بهذا النوع من الأسماك التي في مواسم الزواج تخرج من البحر، وتعبر مجاري الأنهار بعكس جريان الماء، وتصعد المنحدرات قافزة كالسهام عكس التيّار، فينفق نصفها ويموت صراعاً مع الماء بغية الوصول. ومن يصل في النهاية إلى المصبّ، يمت أيضاً بعد الزواج وإتمام العمليّة الجنسيّة، فيخرج من الماء، يبيض، كأنه يشيب ويشيخ بسرعة ويموت.

يا لها من لعبة خاسرة.

قالت لي: انزل لا تخَفْ، قلت لها: أخاف أن أُضيّع قطيعي، من أنت؟ أجابت: وما نفعك لو عرفت من أكون. أنا بنت الماء، أعيش

كالسمك في الماء، إن خرجت منه أموت، قلت لها: سأذهب وأنتظرك عند المصبّ، هناك حيث الشجر كثيف لا ينفذ منه إلاّ خيوط شحيحة من ضوء الشمس، هناك لا أحد يرانا، أما هنا قد يمرّ الناس، ونلفت انتباههم.

ومشيت نحو المصبّ، التفتُّ ورائي، رأيتها تخرج من الماء وتحبو عاريةً ورائي في كثافة ظلّ الشجر. بعد قليل وقفتْ وأدارت لي ظهرها، رفعتْ رأسها لوّحته ورمت بحركة منه شعرها المبلّل إلى الخلف، فكرجت حبّات ماء على سلسلة ظهرها، وبرقت تحت خيوط الشمس، ثم التفتت نحوي وبرق وجهها، ذُهلتُ.

... واختفتْ.

لا أحد استطاع حسم مسألة هذه العجائب في حينها. ويُروى أن نساء تلّة سليمان، وأخريات من القرى المجاورة، كنّ يأتين في مواسم الصيف ويختبئن بين الهشير والشجر على الضفاف وعند المصبّ، ويخترن من الوافدين إلى ذلك المكان الأسطوري، من يعجبهن، للمداعبة وإرضاء الرغبات...

كثُرٌ الذين وقعوا في حالة الوجد، وحفروا على تلك الصخرة المجسّدة ككرسيّ عملاق، كلاماً عن أشواقهم وآمانيهم، عن عشق ضاع، عن امرأة فاتنة سحرتهم. آخرون رسموا قلوباً مطعونة بسهام، وهؤلاء حديثو العهد، وسريعو الانفعال مثل رسماتهم السخيفة الباهتة التي سيمحوها شتاء قادم. هناك أسماء وتواريخ تخصّ أجيالاً تعود إلى

مئات السنين، فباطن تلك الصخرة يشبه لوحاً عملاقاً، يبدو أن بعضهم كان يأتي بسلالم، كي يحفر حادثة عبوره في أعلى ما يمكن رغبةً في الخلود.

مرّات عديدة كنت أتحايل وصبية زماني، ونتبارى للوصول إلى أعلى قمّة الصخرة، التي لا تتّسع لأكثر من موضع قدمين، نغامر بأرواحنا، ونتسلّق كالزواحف إلى تلك القمّة المسنّنة، والمحرّضة على القفز في الهواء سقوطاً إلى الماء كي نلفت انتباه فتيات المواشي، ونساء خبرن هذه البهلوانات...

قلت:

لكلٍّ صخرته يا صاحبي. على أيّ صخرة أدوّن حكايتي، قل لي أيّها الكلب الجميل. تمطّى كلبي وتثاءب، كأن كلامي لا يستحقّ عناء التدوين والحفر على الصخور. لكني حفرت مرّة على تلك الصخرة اسمي واسم مريم، حفرت بيتاً من الشعر الأموي، تخيّل استعنت ببيت من شعراء ذلك الزمان وكنت في النصف الأخير من القرن العشرين.

تبدو أحوال العشّاق واحدة في كل زمان:

يهواك ما عشت الفؤاد، فإن أمُت   يتبع صداي صداك بين الأقبر

ماتت مريم، وبقي الاسم، بقيت الحكاية، وربما بقي صدى صوتي هناك، يتردّد على أكتاف الجبال وفي قيعان الأدوية، حين ماتت على صدري...

ثانيةً، لا أعرف سرّ هذا الخلط العجيب بين الأحداث والحكايات، لا أعرف ما الذي حفز ذاكرتي على الانبعاث بهذا الزخم.

هل هو المطر أنعشها وغسل الغبار المكدّس عليها، أنبتها من جديد فاخضرّت؟

أم هل هي علامات فراق بيني وبينك يا صاحبي؟ نظر كلبي إليّ بنصف عين مغمضة وغمز ثم تابع نومه.

أعتقد أنه يحتقرني.

وأذكر... دائماً أذكر، يا لها من لعنة.

أذكر أن زينب كما يُروى، مرةً تراءى لها على صفحة الماء، وجه الوليّ سليمان الذي سُمّي زوجها تيمُّناً باسمه. كثرٌ الذين أطلقوا على مولودهم البكر هذا الاسم، حتى والدي صار يناديني أبو سليمان بعدما جئنا إلى تلك القرية عقب شتاتنا من وادي الدموع، ربما لإعجابه بحكاية سليمان، أو السقّا سليمان.

يُروى أن السقّا سليمان كان ينقل الماء على دابّته، في جلود الماعز، من مصبّ النهر ويقطع مسافات طويلة في الجبال الوعرة نحو البادية وصولاً إلى الصحراء كي يسقي أهل وادي الدموع، بعد جفاف مائها وتشتّت أهلها في الصحراء، بسبب لعنة أصابتها بُعيد مقتل مجنون الوادي.

هكذا يُروى: أن لعنةً حلّت على وادي الدموع فجفّ ماء نبعها، وهزلت قطعانها ونفقت، وراح أهلها يقدّمون الأضاحي إلى النبع كي يُكفّروا عن خطيئة القاتل.

ويُروى أن القاتل حمل القتيل ومشى نحو عمق الصحراء كي يخفي الجثّة. وكانت جروح القتيل طريّة، تنزف طوال الطريق، فتحوّل خيط الدم خلفه، إلى وادٍ نبتت فيه أشجار أبدية اللون الواحد الأحمر القاني، وفي المكان الذي دفن فيه القاتل ضحيّته، تدفّق نبع هائل لكنّه كان يغور لتوّه في باطن الصحراء، وكان يُسمعُ للنبع صياحٌ يشبه ضحكات مجنون الوادي حين كان يعتلي القمّة في الجبل الطائر، ويصرخ بأهل بلدته أن يستعدوا لمعاينته وهو يطير فوق الغمام. هكذا كان يفعل على مقتبل كل ربيع، يصعد إلى قمّة الجبل، وينادي أهل وادي الدموع ليعتلوا سطوح منازلهم ليشاهدوا ما سوف يفعله، كانت تتبعه شلعة من الصبية والكلاب والمواشي، في جلبة وصخب، وهو يغنّي:

رح طير وصير عالي

من فوق بشوف حالي

وبتصير الوادي قبالي

غنّوا معي يا صبيان

ويردّد الصبيان. يردّدون الأغنية: رح طير وصير عالي...، وعندما يصل إلى القمّة يفرد ذراعيه كجناحَي طائر، وبدل أن يطير يطلق قهقاته فيتردّد صداها في كهوف الجبل.

ويفرّ الطير جافلاً في الفضاء...

***

لا أعرف كيف اختلطت هذه الحكاية، حكاية بلدتي الأولى وادي الدموع، بحكاية السقّا سليمان الذي صار يحمل الماء إلى أهل الوادي في شتاتهم...

كانت ترويها لي جدّتي في العشيّات وأنا مكوّم في حجرها كفرخ طائر... كنت أشمّ في ثيابها رائحة صمغ الصنوبر... وروتها لنا أمّ حمزة في ذلك المساء، يوم مقتل والدي...

أفتكر الآن في هذا المزج العجيب، بين قصّة وادي الدموع التي لم يبق منها سوى هذه الطلول والخرب الداشرة، وكنت قد عشت شتات أهلها، وشتاتي مع أهلي إلى تلّة سليمان، أفتكر في هذا المزج بين هذه الحكاية وحكاية السقّا سليمان الذي صار يحمل الماء إلى أهل الوادي في يوم شتاتنا.

أذكر أنني كنت أسأل جدّتي، لماذا لم نلتق السقّا سليمان يا جدّتي، عندما مشينا في الصحراء وجفت حلوقنا من العطش، لم أذكر أنه مرّ بنا، وسقانا ماءً، فكانت تجيب جدّتي أن شتاتنا لم يكن الأول في تاريخ وادي الدموع، لقد سبق أن هُجّرت وادي الدموع مرات ومرات وتشتّت أهلها، هي كانت على مرّ العصور عرضةً للغزوات، ولعلّ سليمان، السقّا سليمان، حسبما تروي جدّتي، قد حمل الماء إلى أجدادنا في قديم الزمان.

كنت أصدّق جدّتي وأتخيّل السقّا سليمان على دابّته يجوب الصحراء، ويسقي الناس في متاهاتهم...

أمّا الآن فتراني أفكّر في هذا المزج بعقل نقدي، مع تفضيلي أن أعفي تلك الحكايات من التحليل والنقد، حتى لو كنت على يقين تامّ بأن ماء النهر في وادي الدموع، لم يجفّ بفعل الخطيئة. بل جفّفه الحاكم ليقتصّ من أهلها، وأفتى له بذلك إمام الوادي. ففعل، وجفّف ماء النهر بعدما غيّر مجراه، ثم أمر بقطع الشجر وبإشعال النار في الحظائر. ليستفيق صباح ذلك اليوم أهل وادي الدموع على بلاد مقصوفة الشجر تشتعل في حظائرها النيران. لقد أباد نخيلها ولم يُبقِ حتى الطير الذي هاجر بعدما فقد موطنه كما حال الناس.

كانت تفتح في الليالي، حظائر المواشي وتقاد نحو عمق الصحراء ثم تضرم النار في أكداس الشجر، فيختلط خوار البقر بثغاء الماعز والخراف بصراخ الطيور وبصوت اشتعال النار وبعويل النساء.

ما زال صوت جدّتي يطنّ في أذني، وهي تقول: «يا دلّي هذا يوم القيامة بعينه، شو مسلفينك يا ربي؟».

جثت عند عتبة البيت. وبكت...

... ومشينا هرباً من هذه الجحيم، مشينا أياماً في جهة هذه الصحراء. كانت الطيور زائغة في فضاء ذلك اليوم الجحيمي، تولول كأنها تودّع موطنها إلى الأبد، أو تبكي فراخها، التي لم تقوَ على التحليق. وكانت المواشي تخور وهي هاشلة داشرة في الغموض والدخان والغبار.

صراخ وزعيق، ونحيب، بكاء أطفال وعجائز يستغفرون الله، ويطلبون منه الرحمة والرأفة.

لم أنس ذلك اليوم، فهو محفور في بالي كالوشم الذي في ظاهر يدك يا جدّتي.

سمعت والدي، مرّة، يقول لأمّي، في عشيّة من عشيّات تلّة سليمان، كانا جالسين على المصطبة يشربان الشاي ويتذكّران البلاد... قال والدي: لم يكن ذلك اللعين بحاجة إلى فتوى من إمام أو مرجع أو فقيه كي يفعل ما فعله بنا، لكنه لدهائه، أراد أن يظنّ الناس أن ماءهم جفّ نتيجة خلطهم بين دينهم السماوي وطقوسهم الوثنية، في مواسم الربيع، ونتيجة معاندتهم لإمام المسجد الذي كان يدعوهم إلى ترك هذه الطقوس، واحتفالاتهم الموسمية المخالفة لشرع الله.

ويضيف والدي بعد صمت وتأمّل في أضواء شحيحة تبدأ تلوح في البيوت البعيدة المقابلة: «هذا من صنف الجنّ داهية، وثعلب»، ويقصد الحاكم. «لم يكن بحاجة إلى أيّة فتوى، هو الذي يقرّر ويفتي في كل شيء، لا أعلم من سينتقم منه على كل حال، لا بدّ وما يجي يوم...».

أنا بدوري، لا أدري متى سيأتي ذاك اليوم، أو أنه أتى في غيابي الطويل. أدري فقط أني مثقل بتلك الحكايات التي صرت أخلط بينها، بين ما قد حدث في الحقيقة، وما صنعه الخيال. حتى مقتل أخي مهدي صار يأخذ مع الوقت بعداً أسطورياً لشدّة ما تناقلته الألسن. فذلك اليوم العاصف كما رويت لك سابقاً، والذي جُمع فيه الناس عند الفجر ومشوا نحو الصحراء لمشاهدة وقائع إعدام أخي بواسطة الكلاب

المسعورة، صار حكايةً على كل لسان بدءاً من وادي الدموع وسط هذه الصحراء وصولاً إلى البادية وقرى الساحل السوري وسهول لبنان ومدنه. وعندما كان الناس يروون عن يوم القتل ذاك، كانوا يخلطون بينه وبين حكاية مجنون الوادي الذي بات خطّ دمه النازف في الصحراء وادياً لون شجره قانٍ، وبين السقّا سليمان الذي صار يقال إنه شوهد يحمل الماء لأهلي على دابّته، في ليالٍ مقمرة.

عجيب هذا الخلط وجميل...

وتراني يا صاحبي... دائماً أقع في السهو وألتبس على نفسي وأتخيّل أنّ ما أنا عليه الآن، هو أيضاً حكاية من تلك الحكايات، وأنا من صنع خيال، كخيال جدّتي، أو أمّي، أو والدة أبو حمزة... لكن تحسّسي لألمي وأعطابي ومشاهداتي لهذه البلاد الخربة، وصحبتي لكلبي، كانت دائماً براهين حاسمة، على وجودي المحسوس، وعلى تحديد مكاني وموقعي من العالم، هنا في وادي الدموع...

انتابني فجأة شعور بالحقد ورغبة في الانتقام، عندما عاودتني مشاهد أخي داخل قفص حديدي، عارياً تنهش من لحمه فصيلة من كلاب مسعورة. وكبر حقدي أكثر وأنا أذكر ذاك اليوم الآخر الجحيمي الذي حُرقت فيه وادي الدموع، وأُبيد شجرها وجُفّف ماؤها... ولكن ممن أنتقم؟ هل كنت هناك أيّها الحقير؟ سألت فرند، هل تذكر قصّة فرحان داوود الذي قطع الحاكم لسانه، لأنه غنّى:

«من أمنّك ما تخون ولو كنت خوّان».

لا بدّ أنك تعرف جيّداً تلك الفصيلة من الكلاب التي تنتمي إليها؟ كيف يحولونكم إلى ذئاب تفترس، وأنتم على هذه الدرجة من الوفاء؟ هل يقطعون عنكم الطعام؟ ويدربونكم على نهش لحم البشر أحياء...؟

يا إلهي.

عندما بدأت تلك الوحوش تنهش من لحمه، صرخ أخي عالياً، ففجّ السماء برق وهبّت عاصفة هوجاء.

حقير، متوحّش، وغبيّ ومجرم، صرخت به، صرخت عالياً مثلما فعل أخي. رفعت رأسي نحو سماء الله وصحت، ودمعت عيناي.

جفل فرند، تجمّع على نفسه وتكوّر، وحين رفعت عكّازي لأسحق رأسه بعزيمة المنتقم الآخذ بالثأر، تجمّع أكثر، ثم زحف نحوي، قدّم لي جسده، استسلم، لكأنه أراد أن يكون قرباناً لكل الخطيئة التي حلّت بنا.

يا الله... يا الله... ماذا أفعل، اعذرني، اعذرني، لم يكن ذنبك. أعلم، اعذرني، ليست سوى نوبات تافهة تنتابني، أظنّك اعتدتني واعتدت جنوني. هذا أنا يا صاحبي، فماذا يمكنني أن أفعل بكل هذه الأثقال التي على كتفي وعقلي وقلبي؟

ندمت.

نعم ندمت كثيراً على صراخي وتحقيري له وجنوني، داعبته، بدأت أمرّر يدي برفق على فروة رأسه نحو رقبته فظهره حتى ذيله الذي بدأ

يرقصه ابتهاجاً بعودتي إلى رشدي، إلى عقلي، بعودتي إلى صوابي. صرت أحكّ له تحت ذقنه فيرفع رأسه ويدلق لسانه ضاحكاً، أو مبتسماً لي. ربما أشفق عليّ! لا أدري، ومن يدري، ربما هو أدرى بحالي من نفسي، لذلك يشفق عليّ...

لا تخفْ، لا تخفْ أبداً، أنت صديقي، أنت آخر أصدقائي في هذا العالم. أعاهدك أني لن أكرّر هذه التفاهات ثانيةً، أعرف أني دائماً أعاهدك، وأنت أيضاً تعرف، وأعيد الكرة، عندما يتعكّر مزاجي وتعود تلك الصور الموجعة، فأشتعل وأحمّلك المسؤولية كاملةً. يا لها من مهزلة.

في الواقع يا صاحبي عندما أصيح وأشتم، أكون قد أشتم عجزي، أشتم عرجي، أشتم عاهتي، ضياعي، متاهتي، حياتي، هل تفهم؟ أهين نفسي من خلالك، أشتمها عبرك.

ثم سكتُّ، سكتُّ طويلاً ولفّ عنقي حبل. نظر نحوي بودّ وحكّ رأسه بخاصرتي، وغمز بعينه.

رائع أنت، أنت أهمّ مني. وما أهميّتي أصلاً؟ ضحكت على هذا التقدير الخرائي لذاتي. دعني أكمل لك حكاية زينب.

أنت تحبّ الحكايات، ولكن كلما قصصت عليك حكاية أخذك النعاس وأُصبت بالملل. هل لأن حكاياتي حزينة وأنت لا تحبّ الحكايات الحزينة؟ صدّقني لم أقصد أن تكون قصصي من هذا النوع الفجائعي، لكن هي الحكايات هكذا، معظمها محزن، هي الدنيا حزينة يا صاحبي، فراق، كلها فراق، اللقاء فيه قليل... أخي، وبلدتي، وأبي،

وأهلي، ومريم، كلها حكايات حزينة ومؤلمة. هي حكايتي، وأنت لا تعرف حكايتي كاملة، عرفت منها أني كنت إحدى ضحايا ذلك السجن اللعين الذي كنت أنت أحد حرّاسه الأوفياء. عذراً، لا أريد أن أعود وأذكّرك بما كنت عليه. نعم. عرفت ذلك، وعرفت أن عرجي ليس عاهة ولدت معي ورافقتني منذ الولادة، بل هي من فعل ذلك اللعين سجّاني، في واحدة من نوبات التعذيب، التي كان يتلذّذ بها... لا بأس... هل تعرف أن هذا المطرح الذي نحن فيه الآن، هو مسقط رأسي. هنا ولدت وحبوت ومشيت وصعدت هذا الجبل الذي يشبه الطائر، وقلّدت مجنون الوادي، قلّدت الطير وسقطت على التراب. هنا بدأت رحلتي نحو فكّ الحرف في تلك المدرسة التي لم يبق منها سوى الجدران بانتظار سقوطها النهائي...

* * *

الآن هنا، مرة أخرى يا صاحبي حيث ولدت وبكيت وضحكت، وحملتني أمّي وغنّت لي جدّتي، ورفعني والدي عالياً لأتناول وأقطف حبّات البلح من نخلة الدار.

أنت الآن معي. ولا أدري أكنت ستبقى معي، تتقاسمني الرغبة يا فرند، رغبة جارفة بين نقيضين، أو نقطتين، البقاء والرحيل. البقاء هنا حيث ولدت، أو الرحيل إلى حيث كبرت في تلّة سليمان حيث فقدت حبيبين: مريم ووالدي، ولا أعرف ما حلّ ببقية الأهل، بأمّي وإخوتي.

أنت حزين؟ لا تحزن، سأكمل لك حكاية زينب. هذه المرة سأكملها كلها دون أي خلط أو استطراد أو تحريف...

حكاية زينب حكاية ساحرة، ستخفّف عني وعنك حمل هذا العالم، وثقل هذه الذكريات...

زينب

إذاً، كما تذكر تركت زينب على حافّة النهر، هناك، في تلّة سليمان.

عندما كانت زينب تتأمّل في بركة الماء، اختلطت عليها الوجوه، صارت تتابع ظهورها، واختفاءها في القاع. صار وجهها وجهاً آخر يتداخل ويختلط بوجهها الحقيقي، إلى أن ظهر لها، واضحاً، وجه شاب ملثم أزاح لثامه عن فمه وقال: عليك أن تستحمّي في هذا الماء كي تُرزقي مولوداً يحيا ولا يصاب بمكروه أو أذية.

وكانت زينب كلما أنجبت مولوداً أُصيب بالحمّى ومات. وقد نذرت نذوراً كثيرة للأولياء في تلّة سليمان، وذبح زوجها السواعير عند مصبّ النهر، واغتسلت بمائه مرّات، وقد نصحتها بدريّة الشيخ رجب، أن تستحمّ في وضح النهار بماء النهر، لكنّها لم تفعل. كانت تخجل أن تتعرّى تحت السماء في وضح النهار.

سمعت زينب، وهي لا تزال مأخوذة بذلك الوجه الذي دعاها إلى

الاستحمام، سمعت صوتاً قادماً من القعر، يدعوها للنزول إلى الماء.

اختفى الوجه الملثّم وبان من جديد وجهها...

كانت شمس الضحى قد أضاءت معظم القمم والسفوح المتدرّجة نحو الغرب، وحرارتها حفّزت تلك الكائنات الصغيرة الطائرة، على الدوران والزيغان في سراب الوهج.

التفتت زينب في الجهات لتتأكّد أن المكان خالٍ من أي عابر سبيل، أو راعٍ أو قادم لغاية السكينة والتأمّل، ثم بدأت على شيء من التردّد والخجل بالتعرّي.

فكّت في البداية عن وسطها حزاماً من الحرير الوردي اللون، رمته جانباً على الصخرة الملساء، ثم راحت تخلّص أزرار فستانها من العروات، واحداً تلو الآخر بيدين مرتعشتين. بدأت من أعلى الفستان عند عنقها، وبكثير من الحذر، كأنها تختلس شيئاً ما، أو أنها لا تريد فضح سرّ خبيء الجسد.

وكانت كلما فكّت زرّاً التفتت يمنة ويسرة وإلى الخلف، إلى أن بان على مهل صدرها، عارماً، شاسعاً، شديد البياض، مكتنزاً ومتوثّباً.

... ثم عندما تخلّصت من آخر زرّ في أسفل فستانها، أزاح الهبوب الخفيف للنسيم، أطراف الفستان إلى الوراء.

بانت كمنحوتة لآلهة العشق في المعابد.

توثّب الضحى.

تخلّصت زينب على مهل من فستانها، ورمته خلفها بارتباك ممزوج

بالخجل والحياء. بان الجسد كاملاً. توهّج الضحى أكثر وخفق شعرها في الهبوب، وخفق قلبي.

شالت شعرها ورمته بتأنٍ من فوق رمّانة الكتف إلى الوراء، لا شيء تحت الفستان سوى ذلك الانسكاب المتأنّي لأنوثة، تمهّل كثيراً خالقها، حين سوّاها على هذا النحو والتناسق الذي يصيب الناظر إليه بالذهول.

خفق الضحى، لكأنه كائن ذكوري يلهث من فيضان النشوة والاشتهاء، وهذا الخفق هو هبوب الهواء الدائم على ذلك المجرى. حلّقت فوق جسد زينب طيور جاءت من قيعان الأودية، ومن السهول البعيدة، حطّت على الشجر المجاور، بخفر وخشوع، وبعرفانٍ ليد الخالق التي سوّت هذه القامة. صدح عند المصبّ غناء أنثوي جارف، هي راعية مولعة برشيد الذي مات.

غنّت، فطرب الطير.

شدّت زينب براحتيها على النهدين، كي لا يفضحهما الطير، أو تحسّباً لأيّ عين تتلصّص على هذا التورّد والرمّان.

قد تكون عيني التي اغرورقت بدمع غريب، حين مالت على نفسها وتقوّس الجسد.

كأن سهماً خفياً أصابني في سلسلة ظهري، فارتعش جسدي، وجلست بين الهشير، ينزّ جبيني عرقاً.

أقول الآن، بعد سنين طويلة، هي حكمة الخسران. مسكين الرجل،

كيف يصاب بالانحلال والقشعريرة ويهذي أمام هذا الانسكاب الأنثوي. جسد مليء بالاشتهاء والسمو، يعطّل دفعة واحدة قدراته العقلية، حتى لو كان عالم ذرّة أو شيخ طريقة!

على مهل أيضاً، راحت زينب تنزلق على دفعات نحو الماء، والماء هناك لمن خبره، قارس، شديد البرودة.

بلّلت في البدء أطراف أصابع قدميها فارتعش جسدها، كأن تيّاراً عبره، اقشعرّ البدن، تململ زغب النهدين والزندين والعنق. تحبحبت الفخذان، تورّدتا، اعترى ملمح الوجه حياء واضح، ربما استحت من نفسها، انهمر شعرها الكستنائي الملتمع تحت الشمس، انهمر على وجهها أو هي فعلت ذلك، خبّأت وجهها لتخفي حياءها من نفسها. ثم قوّست ظهرها. وضعت رأسها بين الفخذين، لكأن حياءها جعلها تتكوّر على هذا النحو، وتتّخذ وضعاً جنينياً.

سهم آخر انطلق حين قوّست ظهرها وأصابني، يا إلهي.

طار رذاذ خفيف من خفق جناحَيْ طائر لامس الماء فتناثر الرذاذ على سلسلة ظهرها، فانتفضت من جرّاء لسع الرذاذ، فشهقت «أوه...». أحسّت بإبرٍ وخزت ظهرها، تنهّدت مطمئنة بعدما تأكد لها أن طيراً بلّل جناحيه بالماء ورشّها. لقد رأته. الطيور هي أيضاً لها طريقة في التحرّش والمداعبات. هكذا افتكرت زينب، لوّحت برأسها وشالت بلفتة مغناج شعرها إلى الوراء ليرتمي على صفحة ظهرها.

انزلقت أكثر في الماء.

ارتعشتْ وتنهّدتْ... آه. هبّ الطير عن الأغصان، وحلّق فوق المجرى، ثم عاد ليتابع هذا العرض الساحر السخيّ، الذي ألفته يدٌ عبقرية في العطاء وكريمة، زادت دون حساب في منسوب الحسن، وتأنّت طويلاً في رسم الخطوط والدوائر والانبثاقات، وتمهّلت في سكب مقادير الشهوة في انسيابات الجسد.

هكذا أذكر أني رأيت، ولكني غير متأكّد أني رأيت آنذاك ما أراه الآن، هو السرّ...

انزلقت زينب أكثر في الماء، بقي منها النهدان عائمين على صفحة الماء كطيرَي يمام يغار أحدهما من الآخر. يقتربان ويبتعدان، ويهمّان بالتحليق، يخفقان قليلاً، ثم يهمدان.

لا أحد يرى ذلك سواي، يشاركني الطير الذي يحلق ويحطّ على صفحة الماء، وفي عودته للتحليق يتناثر الرذاذ في السماء ويلتمع كحبيبات الماس.

كان وجه زينب على ضحى ذلك اليوم خلاصةً للشهوة، ولا أدري أكان يدعوني إلى العناق والذوبان والتلاشي. كلما أتاني وتذكّرته أتتني الحمّى. أظنّ أني أبقى عاجزاً عن وصفه، مثلما تراءى لي في ذلك الصيف البعيد.

تخيّل يا صاحبي: أن يتأمّل المرء جسداً أنثوياً بهذا البهاء والتكامل يتعرّى على مهل، ويحار بين الشهوة والتأمّل بسرّ الجمال، يحارُ بين الغواية والعفّة. تخيّل وأنت تراها تداعب نهدها برفق، تخشى أن تؤلم

شموخه وكبرياءه، وتخرّب بروُوس أصابع قدميها سكينة صفحة الماء، وتنتشي من لسع رذاذه حين يداعبها الطير، ومرة تنتشي من هدهدات النهدين، وحيناً حين تلامس بتردّد ما بين فخذَيها المتورّدتين، ثم تطلق تأوّهاتٍ محمومة يجفل منها الطير.

لا. لا. لا أظنّ أن الأمر كان على هذا النحو. أذكر أني كنت أتصبّب عرقاً مذعوراً، أتلصّص من بين الهشير عليها. كان قلبي يخفق من الرعب. كنت أخشى أن تراني. أو أن يمرّ أحد ويراها، كنت لا أريد أن يراها أحد سواي. أعتقد أنه لولا صوت جريان الماء، لكانت سمعت صوت لهاثي، لا أعرف لماذا كنت أرتجف، وأتصبّب عرقاً. كان يزداد توتّري كلّما تمادت في مداعبة جسدها، وأخشى دائماً أن تراني في حالتي تلك.

اليوم، وبعد مرور سنوات، يحلو لي أن أصفها على ذلك النحو. هي في الحقيقة لم تكن أقلّ مما ذكرت، لكنّ المؤلم هو أن تعيد صياغة هذا البهاء حتى لو في الخيال والذكرى، وأنت في غير حالٍ وغير أرض وغير جسد، غير مهيّأ للصعود إلى النشوة الكبرى.

فلماذا أفعل ذلك؟ ولماذا أستعيد تلك الأيام؟ أظنّ أن في هذا حالة كثيفة من الحزن، ومن الحنين أيضاً إلى تفجّر ماء الحياة من جدّيد.

أن يتذكّر الإنسان ويروي عن سرّ من هذا النوع، هو بحدّ ذاته ألم لا شفاء منه.

اعذرني يا صاحبي.

لم أكن أتلصّص على زينب وهي تتعرّى وتستحمّ، كنت أصفها والآن أتخيّلها، وأحوك بهاءها، لأني صرت أملك عُدّة الصياغة لأحكي حكايتها. وسرّ زينب يا صاحبي، أنها حين تعرّت عرّتني من قناعي وأنا في عتمة الظلّ متوثّب، أراقبها، ولا أعرف أكنتُ أراقب الجسد أم وقائع حسنها الأسطوري. كنت حينها في بدايات اكتشاف الجسد.

لذلك أحسم أني آنذاك رأيت الجسد. واليوم أرى الافتتان والسرّ. وسرّ زينب يا صاحبي، لا سرّ فيه سواي، أنا الذي كنت أرى ولا تراني. حبست أنفاسي حين بدأت انزلاقها في النهر إلى القاع. كفّ الطير عن التحليق، أقول الآن: كي لا يشوِّش وقائع اللقاء بين الماء والجسد الملتاع.

صار قلبي يخفق.

كمّ عذّبني قلبي في سنوات لاحقة في سنواتي الرعوية، مع مريم. ليتني بقيت هناك، بقيت راعياً يقع عليه الليل وينام على هسيس سنابل القمح، ويغرق في العناق، ويضيع القطيع...

ليتني...

أشتاق إلى تلك الأيام.

المهمّ.

انزلقت زينب عن حافّة المجرى وغاصت نحو القعر، فاض ماء عن جوانب البركة، سقى عشباً وزهوراً ونبتاً، تململ وانبثق عشب آخر من كيمياء الشهوة.

فاض كثيراً.

وفاض حنيني.

شعرت بارتجاج أصاب السفح، تبعه هبوب هواء جاء من الشرق. شعرت بخوف حين أطالت زينب اختفاءها في الماء، صرت أحدّق إلى صفحته، منتظراً انبثاقها وإطلالتها. هدأت حركة الماء، عادت إلى سكينتها. شعرت برذاذ يتساقط على وجهي ويديَّ. شاهدت ظلاً يتحرّك أمامي قريباً من المجرى، ظلّ امرأة. ألتفت لأراها، لم أعثر على شيء.

هل تحوّلت زينب إلى ظلّ، إلى وهم كما كلّ الحكايات؟ شعرت بارتجاج عبر جسدي، حين رأيت ثانيةً ظلّها على الأرض، كان ظلّها يمشي، ظلٌّ لجسد غير موجود، ظننت في تلك اللحظة أنّي أحلم أو أتوهّم أني أتلصّص على زينب، وهي تستحمّ في ماء النهر، مثلما كنا نفعل مع الكثير من النساء، نختبئ في أعباب الشجر ونتابع مجريات التعرّي والاغتسال، والفضائح التي كنّ يتحدّثن عنها. ولكن شكّي هذا، سرعان ما تبدّد حين خرجت زينب من الماء بكامل بهائها وأنوثتها، وبحيرة جسد يتأرجح بين العفّة والغواية، بين الرغبة والتعفّف. أما وجهها فجعله الماء أكثر تورّداً، واصطكاك أسنانها، جعل الشفتين في حالة ذهول.

جفلتُ حين تقدّمتْ نحوي، يا إلهي، ظننت أنها كشفت أمري، لفّت فستانها على خصرها، عصرت شعرها، وتابعت التقدّم، كنت

مختبئاً بين الهشير خلف الصخرة في ظلّ يشبه العتمة، كاد قلبي يتوقّف، خطرت ببالي فكرة الهروب، عاينت الجهة التي سأندفع نحوها وهممت، لكنها جلست لتوّها معرّضة جسمها لأشعة الشمس. لم يفصل بيني وبينها سوى جذع شجرة، تمنّيت لو أن الأرض تنشقّ وتبلعني. لا أريدها أن تكشف سرّي، ولا أريد أن تراني، لأني سأخرب عليها كل ذلك الطقس، وأفسد متعتها، وأفسد الحكاية.

هناءات عابرة
يوم كنت راعياً

يوم عادت مريم، كنت في طريق البياض، عائداً بقطيعي إلى المبيت، شاهدت دخان موقدهم، فشعرت بحريق في حنجرتي. نهرت قطيعي واستعجلته، نبح نمر وعلا رنين جرس الكرّاز. سُحب غبار عبقت خلف حوافر القطيع، كانت تحجب رؤيتي، أحياناً يبدّدها الهواء فتنقشع البيوت في السفوح والأودية بحجم علب صغيرة.

كنت أستطيع تحديد موقع بيت أهلي بسهولة، فهو قائم على رابية صغيرة، قرب مقام أحد الأولياء، المحاط بشجر عتيق من السنديان.

كنت أتدحرج وقطيعي وكلبي من الجرود، وعيناي هناك حيث علا دخان موقد الجيران. جرس الكرّاز يختلط بغناء رعاة في السفوح المقابلة، وبنداءات أمّهات تحثّ الأبناء على العودة من الحقول، قبيل وقوع العتمة.

راعٍ يشتم جَدياً عنيداً ويقذفه بحجر، في أسفل وادي البياض، هواش كلب على دابّة داشرة في حقول الزيتون، خوار بقرٍ، وبدريّة تغنّي من على سطح بيتها قرب المسجد، والشيخ رجب يشتم دابّته صاعداً من المطحنة.

إنها جلبة ساعة اللفوة، أو المبيت، واحدة من عادات تلّة سليمان، من وقائع أيّامها وهي تتهيّأ لليل خريفي.

لكم أصبحت بعيدة تلك الأيام، بعيدة وموجعة.

وصلتُ الحظيرة الملاصقة لبيتنا، تدافع القطيع نحو بوّابتها، وكعادته، أطلق نمر نباحه، تحيّة المساء على أهل الدار، على جدّتي وأمّي وإخوتي، وكائنات أخرى من فراخ دجاج وقطّة كانت تفرح بنمر، وقد صادقته لسنوات.

كانت أمّي على السطوح تجمع حبوباً وخُضراً جففتها مؤونةً لموسم الشتاء. وإخوتي في بستان الرمان يعفّرون حبّات الجوز من شجرة الجوز العملاقة بقصبة طويلة، تُستخدم لهذه الغاية، وجدّتي تنهرهم كي لا يسقطوا في الهشير.

جرى نمر نحو إخوتي ملوّحاً بذيله. «يا هلا، يا هلا» قالت جدّتي، تمرّغت القطّة على المصطبة، وماءت، قفز إليها نمر، وتهارشا قليلاً.

«كانت لفوتك بكير اليوم». قالت أمّي من على السطح وقد حملت صينيّة جمعت فيها الخُضر المجفّفة، تستعدّ للنزول على السُلّم الخشبيّ.

لم أجبها، لكأني فهمت مقصدها، من كلامها الملغّز، اكتمل دخول القطيع إلى الحظيرة، أغلقتُ عليه تلك البوّابة الخشبية التي سوّاها والدي، مثل أشياء كثيرة كسور البستان، والمقاعد الخشبية على المصاطب، وسلالم السطوح. كانت تقول عنه جدّتي، إنه يعرف كلّ شيء.

هممت بالتقدّم نحو جدّتي، كانت جالسة على حافّة المصطبة تراقب إخوتي، لمحت مريم تطلّ من النافذة الغربية. كعادته، خفق قلبي.

أذكرها الآن كلوحة في إطار، وجه مكتنز مضاء بشمس الغروب، غروب بدايات الخريف، ظلال خفيفة لشجر الحور المحيط بالبستان، تروح وتجيء، تتراقص على النافذة، تخفي الوجه قليلاً، ليعود ثانية إلى الظهور تحت بقع الضوء المتسلّلة من بين أوراق الحور. لكأن الظلّ كان يداعب وجه مريم، وهي ساهمة في البعيد، في قرص الشمس على حرف الجبال الغربية، حيث سرب من الطيور كان يعبر ذاك الغروب.

إنه موسم الهجرات.

ظننتها للوهلة الأولى أمّها، قبل أن ألمح الأمّ خلفها تراقب المشهد نفسه.

كم كبُرت مريم. أصبحت بطول أمّها، أدهشني انتفاخ ثدييها، كانا مكوّرين كرمّانتين تحت فستانها، هممت لألقي عليها السلام، ثم لا أعرف لماذا تردّدت، كان لا يفصل بيني وبينها سوى شجر الرمّان على حافة الجلّ، لا أظن أنها لمحتني، لكنها بالتأكيد سمعت جلبة

القطيع ونباح نمر. وهي قد لا تعرف أني صرت راعياً.

لم أشعر بأيّ حقد أو ضغينة تجاههما، كأهل لقاتل أبي، وهممت مراراً لألقي التحيّة، ولكني فضّلت أن أعرف من أمّي كيف تسير الأمور.

أطالتا الوقوف، وهما تتابعان أفول الشمس وغروبها خلف جبال تلّة سليمان. انتابني شعور غريب، مزيج من الرغبة في التحدّث إليهما والخوف. كأني أردت أن لا أخرّب تلك الصورة التي جمعتهما في حالة من صفاء. ثم عبرني خيط من الحزن، وأنا أفكر في يوم رحيلهما بعد مقتل والدي.

تُرى هل تتفقّدان الغروب، مثلما تفقّدتا أشياء كثيرة في البيت. هي حال العائدين، بعد هجر، إلى منازلهم، يطلّون من زواياهم القديمة على المشهد الذي في البال، وعلى ما اعتادوه، يتفقّدون ما يؤكد حضورهم ويذكّرهم بأعمارهم...

تركتهما تتأملان غروب ذلك اليوم، وتابعت بصمت نحو بيت أهلي.

في صباح اليوم التالي، عدت إلى الجرود مع قطيعي، دائماً برفقة نمر، ويتبعنا دعاء أمّي وهي ترشّ الماء خلف خطواتي، لتخضرّ أيامي، حمّلتني زادي وبعض الوصايا الجديدة، أن لا أختلط بالجيران بعد عودتهم، وأبقى في منأى عن «القيل والقال»، وأنت؟ سألت أمّي، لا تتكلمين معهم؟ أجابت: «فقط الكلام اللازم والضروري. كلمة وردّ

غطاها، لكن ما بشعر بحقد أو ضغينة نحون، هن ما خصّن».

أنا أيضاً لم أشعر بأيّ حقد أو ضغينة نحوهما. أظنّ أن حقدي آنذاك كان على قاتل والدي، زوج أمّ مريم، الذي اختفى أثره كعادته، منذ صباح ذلك اليوم.

كان قدر مريم، أيضاً، أن تصبح راعية، فهي بدورها ورثت قطيع والدها، كانت تتناوب مع أمّها على الاهتمام به. أحياناً كما هي العادة، كانت أمّها تُكلِّف بعض الرعاة ضمّ القطيع إلى بقية المواشي المتكفلين بها، ولكن كثيراً ما كانت الأمور تختلط في العشيّات عند الفرز وعدّ الرؤوس...

على كل حال، لم ألتزم كثيراً وصايا أمّي، إذ إني منذ شاهدت مريم في ذلك الغروب، يوم عودتها من السهل ساهمة من نافذة بيت أهلها في البعيد، تراقب قرص الشمس وهو ينحدر ليختفي خلف الجبال، منذ ذلك الوقت، شعرت أني مهيّأ لشيء غامض نحوها، تكشّف بعد أيام أو شهور قليلة. إنه العشق، أو الحبّ، أو الشهوة التي كبرت معي ونمت مثل الشجر. فكلّما غمرنا الضباب في المراعي، نمت تلك الشهوة أكثر فأكثر، وكنا نكتشف أسرار الجسد المضطرب.

كانت أم مريم ترافق ابنتها أحياناً، لتتسلّى كما كانت تقول، فالوحدة قاتلة. ومرات كانت تسرح وحدها بالقطيع، تأتي وتجلس بجانبي، لتشتمّ مدى علاقتي بابنتها، وكانت تسألني أكنت أحبّ مريم. لم أتردّد في قول الحقيقة، أموت بمريم، فتضمّني إلى صدرها

وتبكي، وأشمّ رائحة عطر الورد، الرائحة التي شممتها منذ سنوات، حين ضمّتني إلى صدرها وكانت نصف عارية، كان ذلك يوم مقتل والدي.

«غريبان أنا وأنت» كانت تقول، وتضمّني أكثر فأشمّ عطر الورد، وأحسّ دفئاً غاوياً يصعد من جسدها ومن نَفَسها العطش.

ترى هل كانت تريد ترويض القاتل الذي ينمو ويكبر بداخلي، كي لا أثأر لوالدي، منها، أو من مريم، فتروح تعطيني تلك الدفعات من الحبّ والشهوة؟ لا أدري. لكني كنت أشعر بتوتّر شديد عندما كانت تضمّني ولم أتجرّأ أن أنظر في عينيها، ربما كنت أخاف من الاستسلام لها والوقوع في الغواية.

في كل مرة أصبح على حافّة الهاوية نحوها، وأشعر أن جسد مريم هو الذي يغمرني. ثم أصحو على صوتها تقول: «غريبان أنا وأنت»، تردّد ذلك وتغمرني ويفوح الورد من صدرها...

بعد زمن صار الذي صار، لقد سمّمت لابنتها مريم، وماتت مريم على يدي... وحين دخلت عليها في ذلك اليوم، كان بابها نصف مغلق، دفعته على مهل، أصدر صريره المعتاد، شاهدتها في ركن الاستحمام عند العتبة، تستحمّ وبياضها زائغ خلف بخار الماء في نصف الضوء المتسرّب من الباب.

يوم قتل زوجها والدي، أيضاً كانت تستحمّ! عجيبة هي المصادفات. اختلطت عليّ التقديرات حين شاهدتها عارية، وقد تجمّعت على

نفسها، ولم أعد أعرف أكنت قد دخلت عليها لغاية الانتقام لمريم، أم لمعرفة السرّ. وحين سألتها: « لماذا سمّمت لمريم»، لم تجب، وأوقعتني في الغواية، خدّرتني بعطرها وبجسد ملتاع، ثم أضرمت النار في البيت.

لقد حدّثتك عن ذلك، حدّثتك عمّا فعلته بي، كيف جعلتني أسيراً للشهوة. تذكر ذلك؟

... وتلفتُّ صوب كلبي، كان يغطّ في نوم عميق، وكان شريط حياتي يدور أمامي مشهداً مشهداً. فقلت ثانيةً: «هو المطر سقى جفاف ذاكرتي فاخضرّت».

لا شيء من كل هذه الترجيحات الشاعرية، هكذا أنا، وهكذا أصبحت، منذ عودتي من النسيان...

* * *

يوم آخر في وادي الدموع بعد يوم ماطر. أيقظني انبجاس الشمس من خلف خاصرة ذلك الجبل الأسطوري، الجبل الطائر الذي يتوسّط الصحراء لكأنه سقط سهواً من السماء، واستقرّ إلى الأبد لتقوم على سفحه وادي الدموع... هكذا تراءى لي في ذلك اليوم.

نشرت خرقي المبلّلة على حافّة السور المتهالك، ونشرت بالقرب منه نفسي، تمدّدت معرّضاً جسدي لانسكاب أشعّة الشمس، متأمّلاً في الوضوح الهائل للسماء وللمدى. صفاء كامل يأتي بعد الشتاء يحرّض

على التأمّل. شمس الصباح رحيمة. والتماعات جريان الماء في شقوق السفح رطّبت شقوقاً غائرة في نفسي.

شعرت أني مستسلم تماماً لذاك الصبح. بالقرب من خدّي، عشبة تنبجس، رأيتها بطرف عيني، راقبتها كيف تتململ تحت التربة وتمدّ بعنقها نحو السماء. أبخرة خفيفة تتصاعد من التراب الرطب، وحشرات طائرة صغيرة تزيغ في الفراغ، لكأنها ولدت للتوّ فبهرتها الشمس، سرب من الطيور على قمّة الجبل، يطير ويحطّ، في حالة من النشوة، كأنه يتزوّد الماء في جلبة احتفالية. ربما هذه الطيور، هي السرب نفسه الذي شاهدته مساء يوم أمس، حطّ على هذا الجبل ليستريح ويتفقّد عديده أو أن المطر غيّر مساره، فجاء ليبيت ليلة في وادي الدموع كي يتزود بالماء قبل مواصلة رحيله.

ترى هل بقي حيّاً ذلك الطير الذي كان يتعثّر في السماء خلف سربه؟ لا أدري.

اعتكر خاطري.

نظرت نحو سكّة الحديد، التمعت بوضوح أكثر، بعدما غسلها مطرُ يوم أمس. كانت تخترق المدى الصحراوي ذابحة الرمل. دائماً أراها جرحاً طويلاً، وأسأل نفسي وأمتحن وساوسي: لماذا تتراءى لي على هذا النحو الموجع؟

أمامي خلف بقايا السور، فردة حذاء غسلها مطر الليل، على بعد قليل منها، فردة أخرى، انتبهت أني لم أتبيّن هذه الأشياء،

ولم ألمحها في المرّة السابقة. فنهضت. اقتربت منها، حرّكتها بعكّازي. تُرى لمن هذا الحذاء؟ من كان ينتعله، أو من عافه ومضى على عجل، ولم يجد وقتاً لانتعاله، إذ إن الموت كان لا يهمل قدمين تحتاجان إلى نعل، كي تحتملا جمر الرمل ووعورة الرحيل.

أشياء أخرى بانت أمامي. بردعة على حافة البلى لدابّة نفقت في البرية. حبال مهترئة، مِزَق ثياب، جرس كبير، جرس دير عتيق، لم تزل بقاياه وجدرانه قائمة، قرب المقبرة. تذكّرت أيام كانت جدّتي تحملنا إليه نجلس تحت شجر ظليل، وتشعل البخور... بقايا كثيرة من حاجات الناس، كلّها اغتسلت بمطر الليل. بقايا عظام وحطام بشري. تذكّرت أن طريق متاهتي أو وجهتي الغامضة، منذ خروجي من السجن، كانت ملأى بهذه الاشياء، لم أتبيّنها سابقاً بهذا الوضوح، فالزمان موّهها وغطّاها بالغبار والأتربة.

الآن أقول:

لقد خبّأها الزمان عن عين الله كي لا تلمحها ويختلّ ميزان عدله. إنها وادي الدموع، بلاد أهلي وأجدادي وأجداد أجدادي، هنا منبت السلالة وأنا غصن أو فرع من فروعها، ولا أدري أكنت آخرها، لكنني صرت على يقين تامّ وأكيد أن حكاية جدّتي عن وادي الدموع، دارت أحداثها هنا، حيث أقف الآن بين هذه الخرب، وأمامي هذه البقايا البالية من مقتنيات أهلي...

عندما كنت أسأل جدّتي، هل صحيح أن أهل وادي الدموع عصوا كلام الإمام وتمرّدوا على الحاكم فأمر بإبادتهم؟ كانت تجيبني بشكل غامض أن غضباً حلّ بوادي الدموع، فجفّ نهرها ونفقت قطعانها ويبس شجرها ونخيلها، ومات طيرها، وتشتّت أهلها في أرجاء الدنيا...

ولكن هذه الحكاية تشبه حكاية وادي العجائب التي حكتها لنا أم حمزة، ليلة مقتل والدي. كنت أقول لجدّتي، فتتنهّد، وتمدّ يدها تمسح على وجهي، أذكر دائماً ذلك الوشم في ظاهر اليد النحيلة المرتعشة قليلاً.

يبدو أن جدّتي لم ترِد أن تقول لي الحقيقة كاملةً، لكأنّها تخاف من شيء ما. ربما كي لا أصاب بالذعر من همجيّة البشر. ولكن يا جدّتي، لقد اختبرت هذه الهمجيّة. منذ صباح ذلك اليوم الذي حُملنا فيه إلى قلب الصحراء، لنشهد إعدام أخي... وليتك تدرين اليوم ما حلّ بي.

الآن أيقنت يا جدّتي، أنَّ الغضب الذي حلّ بوادي الدموع، لم يكن من إله السماء، بل من آلهة الأرض.

هل تذكرين يا جدّتي ذلك الإمام، وهو يهدّد أهل وادي الدموع، ويعدهم بالخراب وبئس المصير من جرّاء ممارستهم طقوس الغناء والرقص في أعالي قمم الجبل؟ وكان يصدر فتاوى بتحريم ذلك، وكنت تحملين إليه الطعام إلى ظلّ النخلة، ويقول لك: «أنت وحدك يا

ليزا من أهل الجنّة، وهؤلاء الكفرة والمشعوذون للنار». ويلتهم طعامه ويمضي داعياً الناس إلى التقوى...

كانت طقوس أهل وادي الدموع في مواسم الربيع، تعطّل عمل الإمام، وتجعل المسجد خالياً. فكان هذا يثير غضبه ويضاعف من كرهه لأهل الوادي، فيجوب الأزقّة والدروب ويعتلي المئذنة ويصرخ في الناس: «عودوا إلى ربّكم وادعوا لحاكمنا بطول العمر». كان يصف أهل وادي الدموع بأنهم بلا دين، لأنهم لم يحتفلوا بعيد الثورة، بالزخم نفسه الذي يحتفلون به بقدوم الربيع، إذ لم يعد يجد أحداً يمارس عليه مواعظه، سوى جدّتي، لأن همّتها لم تكن تسمح لها بالصعود إلى الجبل. أحياناً كان والدي يحملها، لكنها كانت تتدرّج في المساء وتعود، قبل حلول العتمة. كانت ليالي الربيع في تلك الأيام، تُضاء بألسنة النار، وتصخب بالغناء. وكان الإمام يجترّ غضبه أمام جدّتي، وعجائز آخرين.

أذكر، كان وجهه مملوءاً بالحفر الصغيرة، عرفت من جدّتي أنها بقايا من مرض الجدري، وسألتها مرة: لماذا لم يطلق الإمام لحيته؟ أجابتني لأنه أمرد. لم أفهم معنى ذلك في تلك الأيام. عندما كان يدخل من بوّابة السور ويجلس تحت النخلة، تأتيه جدّتي للتوّ بالطعام. ولا أذكر أنه رفضه مرةً، بل كان يلتهمه على عجل ويطلب من الله، لجدّتي، طول العمر. ويردّد: «أنت الوحيدة يا ليزا من أهل الجنّة، على عكس هؤلاء المنافقين، ع النار إن شاء الله» ويكرّرها: «ع النار.. هاتي ماء يا

ليزا»، وتأتيه جدّتي بإبريق الفخّار، يشرب ويدلق قسطاً من الماء على جبّته.

لم أنظر إلى وجهه كثيراً، أذكر أنني لم أستطع التمعّن كثيراً في ملامحه الدكناء وعينيه الجاحظتين. كنت أخافه، وكان يغافلني ويقرصني من خدّي ويقهقه، ويقول لي كلاماً غامضاً عن عذاب جهنّم، حتى للأطفال الذين لا يحبّون الإمام والحاكم، كنت أخاف من الحفر التي تملأ وجهه أكثر من كلامه عن عذاب جهنّم للأطفال الذين لا يطيعون الإمام...

حين ينتهي من طعامه ويشرب الماء، يحمد ربّه، ويقف بقامته المربوعة، كان كرشه يتقدّمه بمقدار هائل، يفتح مظلّته ويخرج شاتماً كلّ من لا يتبع خطاه، متوعّداً أهل الوادي بالخراب والنار.

كان أهل الوادي يشعلون نارهم الأخرى في الجبل ويغنّون، ويختلط الغناء أحياناً بالبكاء والرقص، هو بكاء الوجد كما علمت لاحقاً، أمّا البكاء الآخر على سطوح المنازل في مواسم أخرى، فهو رثاء لمصير الإنسان والتطّهر...

هكذا هي عادتنا. كانت تقول جدّتي.

أذكر حتى الطيور كانت تشارك أهل الوادي في طقوسهم، تطير وتهجع وتحلّق عالياً، تدور حول القمّة، وتحطّ على رؤوس الناس، وعلى أيادي الصغار، وتدغدغ النسوة برفيف الأجنحة وخفقها...

ليتك تعلمين يا جدّتي أني الآن هنا في وادي الدموع، عدت بعد كل هذه السنين، إلى مسقط رأسي ومسقط الحكايات، ولم أكن أخطّط لعودة أو لعبور سريع، أو تقصٍّ عن بلاد أهلي القدماء. هي مصادفة، محض مصادفة.

الآن هنا، حيث كنت تغنّين لي تحت سعف النخلة، على ضوء القمر، كي أنام. كان يجافيني النوم وأطلب منك أن تحكي لي حكاية البشر الذين تحوّلوا إلى صخور في الصحراء. هل تعلمين يا جدّتي أنني مررت بهم؟ مررت بهذه الصخور. ليتك تعلمين.

كنت تحملينني على ظهرك، وتتسكعين بي في هذه الأزقّة، تسوّين من عباءتك خرجاً يتّسع لي، تجلسين القرفصاء وتقولين: اصعد على ظهر الفرس، الفرس العجوز، وتضحكين وأصعد، وأمدّ يدي صوب أعباب النخيل، لأقطف بأطراف أصابعي حبّة صفراء. وتغنّين لي العديّة:

اركب ع ضهر الحمارة

ع ستّك هالختيارة (...)

لم يبق من غابة النخيل يا جدّتي سوى الجذوع، لا شيء هنا، مثل الحكاية التي كنت تحكينها في تلّة سليمان، لا شيء سوى رائحة الهجران، أشمّ رائحة عباءتك يا جدّتي، رائحة عشبيّة، رائحة تلك الأيام.

سلامٌ عليك...

* * *

نبح كلبي.

انتبهت أني أقف عارياً قرب السور المتهالك، سور بيت أهلي، أداعب التربة الرطبة بعكّازي. نبح فرند على رفّ من الطيور هبّ من السفح.

نظرت إلى جسدي العاري، إلى عضوي المحايد، لكأنه خاصة طفل، ضامر، هزيل جداً، نظرت إلى ساقي المعطوبة وشعرت برغبة في الضحك. الضحك يراود المرء كما البكاء، وأحياناً لسبب غامض. ضحكت من شدّة هزالي ونحولي. ضحكت من عضوي الأقرب إلى دودة في حالة الانكماش.

لم أشعر بحسرة. كنت بحاجة إلى الشمس، بعد ليل ماطر، عدت وتمدّدت على ظهري، استقبلت حرارتها بقفص صدري، عرّضته كاملاً لأشعّتها، وكان يشبه سلّة قصب خاوية.

اقترب مني فرند، وشمّني، لعق رقبتي، وتثاءب. عرفت أنه يتفقّد حضوري حياً، كثيراً ما كان يفعل ذلك عندما كنت أستسلم للموت، وأعرّض بدني وروحي للفناء، فكان ينبح ويعضّني برفق من يدي ويشدّني، يجرّني، يحرّضني على النهوض. لكنه الآن لم يفعل. يبدو أنه يعرف أني بحاجة لحرارة الشمس، ومتيقّن أني مستسلم للحياة، راغب في العيش...

قلت له: «لا تخف أنا هنا حاضر، لماذا تخاف؟ تخاف عليّ أن أموت وتبقى وحيداً؟ بدون شك أمر موحش أن يبقى المرء وحيداً. إذا متُّ فلا بدّ أن تقودك غريزتك إلى الخلاص، لا تفزع» كنت أحدثه وأنا

مغمض العينين، لم أستطع فتحهما على أشعّة الشمس. التفتُّ نحوه، وجدته هو أيضاً ممدّداً مستسلماً للدفء. ثم تثاءب وهرش رقبته بحافر قائمته، فعلت مثله، حككت لحيتي ورأسي وصدري. لا لحم تحت جلدي. تاريخياً أنا هكذا، جلد منشور على عظم، ولكن ليس إلى هذا الحدّ المهين.

ثانيةً عنّ ببالي أن أعرف ماذا حدث وتغيّر في هذا العالم، أن أُقدّر وأتخيّل على الأقل ما الذي جرى، ماذا حلّ بتلك الأمكنة والمدن والبلاد الأخرى التي عرفتها، ماذا حلّ بمن بقي من أهلي؟ فتلك الآلة التي مرّت يوم أمس، حرّكت نوازع كثيرة في داخلي، هدّأها المطر قليلاً وغسل بعض ظنوني.

ترى ما الذي تغيّر في هذه الدنيا التي أنا خارجها أو بالأصح على تخومها؟ لا شيء يربطني بها سوى أني حيّ، وبرفقة كلبي.

عجيب أمري. كنت في البدء أحاول أن أنشغل بالذكريات، أن أخلّص من النسيان مشاهدي وحياتي التي مضت، أو جزءاً منها، وراقتني جداً فكرة التذكّر ومحاولة استرجاع صور الماضي. كنت مستأنساً بهذه اللعبة، أما الآن فبدأ يشغلني ما هو آتٍ، ولم أعرفه، بدأ يشغلني ما جرى خلال غيابي، ما لم أتوقعه وأصبح ذكرى لمن عاشه وجرّبه.

أشياء كثيرة حتماً حصلت في غيابي عن العالم، وأصبحت ذكريات بالنسبة إلى غيري. كثيرون هم الذين ولدوا والذين ماتوا وصاروا ذكرى.

غريب أمر تناقضي يا فرند، تارةً أرغب في التيه والنسيان، وتارة أرغب في الحياة وفي معرفة ما يقع خلف هذا الأفق، حيث مرّت يوم أمس تلك الآلة وغابت تاركةً وراءها سؤالاً هائلاً ومرعباً عما ينتظرني، فيما لو تبعتها وواصلت سيري خلفها، أتبع آثار عجلاتها، ترى إلى أين كنت وصلت؟

بقي فرند ممدّداً وكأني أتحدّث إلى جدار، هو في الأصل اعتاد سخافاتي وأسئلتي التافهة. هل تسمعني يا حقير؟ مازحته. أنت حقير، هل تسمعني؟ أستشيرك في مسألة مهمّة جداً، يتوقّف عليها مصيري ومصيرك أيضاً.

... تململ، تمطّى، فتح عينيه قليلاً، عدت وسألته: هل هذه بوادر تحسّن يا فرند؟ أم هو مأزق آخر سنقع فيه، ما رأيك؟

شيء ما سقط داخل واحد من البيوت الخربة، وأحدث صوتاً وارتجاجاً وانهيار أتربة. انتفض فرند مذعوراً ووثب بعيداً.

خفت؟ ولو، لا تخفْ... وقف متوتّراً يراقب موضع الانهيار، مرةً يلتفت صوبي ومرة إلى المطرح نفسه حيث الانهيار، كأنه أراد أن يعرف ردّة فعلي، ليبني عليها خطوته اللاحقة. طمأنته، ناديته، فاقترب مني، داعبت رقبته، صرت أمسّدها، وأدغدغ خاصرتيه...

استأنس.

علمت أنها عارضة خشبية، أو قدرت ذلك، أنها عارضة من تلك العوارض التي تحمل سقوف البيوت في وادي الدموع. كل سطوح وادي الدموع تقريباً، سقوفها من الخشب وفوق الخشب سعف وتراب مرصوص، يبدو أن السوس نخرها، وأصابها الهجر بالاهتراء، تقوّست بمرور الوقت فوق جدارين، وحين جاء المطر ضاعف ثقل التراب فوقها، زاد حملها أكثر من طاقتها، فانكسرت، وأثار تحطّمها هذا الانهيار...

قلت: إنه أسيدُ الزمان، كفيلٌ بإتلاف الأشياء، هل تعرف ذلك؟ سألته فغمز بعينه، ولوّح قليلاً بذيله.

لكأن هذا السقوط مما بقي من السقف، يذكّرني بأن لا مطرح لي هنا، حتى لو كانت وادي الدموع مسقط رأسي.

فأين أصير؟

لوّح بذيله ومشى.

تركني لتساؤلاتي وتخميناتي، وقفز عن بقايا السور واتّجه نحو السفح، صرت أراقبه، دون توجّس، كان يمشي متمهّلاً، يشمُّ في طريقه أشياء بالية تستوقفه، مزق ثياب، فردة حذاء، آنية، فخّارة، نحاسيّات صدئة، عظام كائنات ماتت جوعاً على الأرجح، كان يمشي تسكّعاً، لكأنه يريد تقطيع الوقت، هكذا دون هدف آخر، ربما يفعل ذلك، أو أنني أُسقط عليه سلوكي ومشاعري.

ترى هل يشعر بالزمن وبمرور الأيام، مثلما نشعر نحن البشر؟ هو

يحزن، ويفرح، ويعبّر عن ذلك، ويمكن أن نعرف أنه حزين من عينيه، ومن تعفّفه عن الطعام والشراب، وحين يفرح يقفز عالياً ويداعبني، ويرقّص ذيله...

هو الآن ليس فرحاً وليس حزيناً، هكذا أراه، في منطقة عابرة بين الحزن والفرح، لكأنه سئم المراوحة في المكان نفسه، سئم هلوساتي وذكرياتي وأحاديثي، وانتظاري هذا، للمجهول...

صار يمشي قليلاً، ثم يقف ويصغي، وينظر إلى البعيد... وأقدّر أنه يتقصّى عن الغامض في المدى، مستخدماً راداراته الذاتية بأقصى احتمالاتها...لا بدّ أنه يسمع شيئاً ما، لم أقدر أن أسمعه.

تابع بعد قليل تسكّعه إلى أن وصل إلى بركة ماء تجمّع من مطر يوم أمس. شرب وصعد السفح نحو القمّة، وعندما وصل إلى رأسها الذي يبدو دائماً كرأس طائر عملاق، أطلق نباحه.

تُرى لماذا ينبح؟ هل ينادي أحداً من أهله، بعد أن أصيب بنوبة حنين، أم ينبح احتجاجاً على هذا العالم الذي ذكّرته به وبفواجعه؟ أم هو كالعادة ينبح نباحاً احترازياً؟

كنت أواصل تخميناتي، وهو يواصل نباحه المتقطّع، ثم فرّ عن القمّة سرب من الطيور، فقلت لنفسي، لعلّه ينبّه هذا السرب لمتابعة هجرته، ثم قفز عالياً نحوه والتقط طيراً.

انقبض قلبي.

حزنت لفعله هذا، لكني حاولت النسيان وتجاهل ما رأيت، هو

بحاجة إلى أن يأكل شيئاً غير هذه الكسرات من الخبز اليابس التي يتقاسمها معي.

صرتُ أتسكّع مثله وأراقب الأشياء، أو تلك الإشارات التي تذكّر بقيام حياة ماضية هنا. سهوت عنه، لهوت بانبثاق عشبة من بين فلقتَي صخرة، بدت لي كأنها تنمو على عجل قبل أن يجفّ الماء.

عاودت النظر نحوه، كان جالساً على قفاه على طرف صخرة امتدّت كلسان في الفراغ، يتأمّل في المدى اللامتناهي، بدا لي يحرس الصحراء. يحرس الصحراء ممّن؟ سألت نفسي، فقلت: من نفسها، أو تراه يحرسني، إنها استنتاجات تافهة، على كل حال، أفرح عندما أتوصّل إلى نتائج أو تحليلات كهذه، هي من خصالي القديمة.

عنّ ببالي قطيعي، وجبال تلّة سليمان.

عبرت السماء سحابة عملاقة، تتبعها جمهرة من الغيوم الأخرى، لكأنها أمّ تُنزّه أولادها في سماء الله، حجبت الشمس قليلاً وذكّرتني بعريي، جمعت خرقي ولبستها، تفقّدت ما بقي معي من زاد، مشيت صوب برك الماء عند السفح، عبّأت مطراتي.

انتبهت إلى أن هذه الاستعدادات إشارة على مواصلة الرحيل، أو السير نحو مكان ما... التفتُّ صوب فرند، صرخت به أن يتبعني.

قفز في المنحدر، راح يثب ويطيّر الهواء فروه ويطيّر قلبي المجهول.

ومشيت...

الجزء الثاني

مدرستي القديمة

... ومررت قرب مدرستي الأولى. ما زالت قائمة بجدرانها في مطرحها، لكن سقفها كان مصيره مشابهاً لتلك السطوح التي انهارت. هنا بدأت خطوتي يا فرند نحو فكّ الحرف. هنا حجر الزاوية في عمارتي المدمّرة، لكنه باقٍ.

لو لم أبدأ من هنا، لما كنت قلت لمريم: «سلامٌ لمن علّمني فكّ الحرف لأزرّر قميص الحرير».

عجيب، وكأن مسار حياتي، بعد خروجي من السجن رسم بدقّة، كي أعيد ترميم هذا الحطام القابع في النسيان...

وقفت في باحتها، حيث وقفت من زمان، وتخيّلت نفسي في يومي الأول، يوم جرّتني أمّي إليها، وأنا أرجو منها أن تعفيني من هذا المجهول، وأبكي.

الآن مرةً أخرى هو المجهول...

أذكر، أن أمّي خاطت لي ثوباً أسود، وقالت لي تعال يا عبد الجليل، جرّب هذا. زمّت أطرافه بيديها، جمعته وضمّته حتى فتحة العنق، وأدخلته في رأسي، وشدّت أطرافه إلى أسفل، سوّت كمّيه، وقالت لي اذهب إلى المرآة، مرآة الخزانة، لقد صنعها والدي وكانت تتصدّر البيت، أذكرها الآن تحفة تتوسّطها مرآة، كانت أمّي تضع فيها بعض الملابس الجديدة والقليلة، والصابون، وصندوقاً صغيراً، خبّأت فيه أساور وصوراً وأوراقاً لا أعرف مضمونها.

نظرت إلى نفسي في تلك المرآة، بدوت كاهناً صغيراً على درجة ممكنة من الاستعداد للعزلة والتأمّل. الآن أفتكر على هذا النحو، وأتخيّل نفسي، وبالتأكيد آنذاك لم يراودني هذا التشبيه على الإطلاق. لكني الآن، من هنا، من هذا المكان، من هذا العمر، أذكر نفسي في ذلك الثوب، كبداية انفصال عن أهلي، رأيت نفسي غريباً به. لباس وضعني على سكّة أخرى، غامضة ومرعبة.

فبكيت...

في صباح اليوم التالي، جرّتني جرّاً من البيت، شعرت حينها أنها تتخلّى عني، وتتركني لمصير مجهول، شعور يستعصي وصفه بدقّة، لشدّة مرارته ولشدّة وطأة الفجيعة التي أصابتني.

أظنّ أن استغاثاتي يومذاك، رافقتني من بداية البيت حتى هذه المدرسة حيث أقف الآن. أرى نفسي بوضوح، أتفرّجُ على حالي وأنا مَقُودٌ في ذاك اليوم، هذه من أكثر الحوادث التي أذكرها جيداً.

كنت مَقوداً كالذبيحة إلى الأضاحي، معانداً، متشبّثاً بفستان أمّي، أشدّها وأترجّاها بصوت مفجوع أن لا تتركني، أن تُعيدني إلى البيت، وتمهلني يوماً واحداً، أن لا تتخلّى عني، لكنها كانت صامتة، عاقدة الحاجبين.

توحي لي بالغضب والصلابة في آن واحد.

أذكر ذلك تماماً، وأسمع صوتي الذبيح، الذي بُحّ في النهاية. أذكر ذلك الصبيّ الذي كنته، ابن الخامسة تقريباً بقنبازه الكهنوتي، وبمزود معلّق في رقبتي فيه كتابي الأوّل، كتاب الأحرف ودفتر. وقلم رصاص وممحاة ومبراة.

الآن أسمع صوتي القديم. لا تتركيني يا ما...

شعرت أني سأضيع، وأموت وحيداً...

هنا، في هذه الباحة، في هذا الملعب، وقفت مذهولاً، وأمامي فوق تلك المصطبة الدائرية الصغيرة التي تعلو الملعب بخمس درجات، خلفها باب مفتوح على شيء غامض، على تلك المصطبة، يقف رجل يرتدي بزّة كاكية اللون على ما أذكر. لا يشبه أهلي، غريب الملامح واللباس، أرعبني منظره.

شعرت، حين وقعت عينه عليّ، بالانهزام التامّ.

انكمشت، وتضاءل حجمي.

استسلمت لمصير مجهول.

دفعتني أمّي، برفق من ظهري، إلى الأمام، فرجوتها رجاءً أخيراً أن تبقى معي يوماً واحداً، فقط، في هذا البيت الجديد، أو الغريب. فقط

يوماً واحداً... رجوتها كثيراً وهي تدفعني نحوه، نحو ذلك الرجل الذي يقف هناك ببزّته الكاكية ينظر إليّ بعينين زرقاوين، يحمل بيده قضيباً يضربه برفق على فخذه وبإيقاع منتظم، تك. تك. تك. وقلبي تزداد دقّاته. كان ينظر أحياناً في المدى، يراقب في السماء غيمةً عابرة. أستغل تلك اللحظة لألحّ على أمّي أن تبقى معي، لكن دون جدوى.

عادت أمّي وأمسكتني من يدي، وتقدّمت بي نحوه، صعدت بي الدرجات الخمس، تعثّرتُ بإحداها وسقطت، رفعتني دون أي كلام أو تعبير، غار صوتي في صدري، صار كصوت المستغيث في كابوس، لم أعد أسمع صوتي، صرت منفصلاً عن ذاتي، زائغاً، لم أعرف ما الذي ينتظرني. صرت أبكم وكسيحاً في مواجهة شيء مجهول وأمام تجربة، هي أولى التجارب في حياتي، لم أستطع آنذاك تقدير ماهيّتها ومسارها ونتائجها، لم يكن إدراكي يسعفني على مثل هذا النوع من التحليل. حتى إنني كنت لا أعرف الغاية من الإتيان بي، لخوض هذه التجربة.

إنها المدرسة.

كانت تقول أمّي وتغريني ببعض الحلوى، وبأشياء سوف أتعلّمها هناك، تجعلني فرحاً وعظيماً. فالمدرسة هي أحلى بكثير من البيت ومن اللهو في الدروب والزيغان في محطّة القطار. هي أجمل من حكايات الجدّة. كانت أمّي تقول لي شيئاً من هذا النوع، ودائماً تذكّرني بأني سأصبح عظيماً ومهمّاً إذا واظبت على الذهاب إلى المدرسة.

الآن، أذكر أني قلت آخر الكلام همساً لأمّي، قبل أن تسلّمني

كضحية تشبه فرخ طائر لا يقوى على التحليق، إلى يد غريبة، يد ذلك الرجل الكاكي، الذي أشار إليّ بحزم للدخول، من هذا الباب الذي هو أمامي الآن، تخيّلته في ذلك الوقت، باب كهف سوف يُسدّ بصخرة بعد دخولي.

قلت لأمّي هامساً في أذنها، وقد جفّ حلقي وغار صوتي عميقاً في صدري، «خليكِ معي يرحم تراب أهلك ياما»، أفلتتْ يدي، وعبرتُ خدراً من هذا الباب. شعرت بجسدي مفكّكاً، وكانت خطواتي غير منتظمة، متعثّرة، متردّدة، متشابكة، لا أعرف لماذا تذكّرت جرو كلب ضائعاً في فلوات الوادي شتاء ذلك العام؟

الآن أذكر، كانت أمّي تنزل الدرجات الخمس، سمعتُ صوتها تقول للرجل الكاكي، المسمّر على سفرة الدرج: «خلّي بالك على عبد الجليل يا أستاذ الله يخلّيك، اعتبرو واحد من ولادك»، التفتُّ نحوها، لمحت على خديها دمعاً، يبدو أنها حبسته طوال الطريق وهي تجرّني مكابرة، متصنّعة الحزم.

«بكرا بتتعوّد» صارت تقول لي في الأيام التالية، «لا تخاف، بكرا بتصير تلاقيها أحلى، أحلى من البيت ومن الركض خلف الغنم. والركب على الدواب. بكرا بتصير معلّم». كانت تحلم بي أن أكون شخصيّة ما. يبدو أني لم أحقّق حلمها.

أذكر أني كنت أردّد طوال الطريق وهي تجرّني، يرحم تراب أهلك ياما لا تتركيني. لكنها آنذاك تركتني. كان عليها أن تتركني. ثم بعد سنين

أنا الذي تركتها في وطنٍ آخر في بلاد أخرى يوم سعيت إلى مصيري...
سلامٌ إلى يديها النحيلتين وإلى صوتها الشجيّ.

* * *

أول صورة شاهدتها، حين دخلت، وطُبعت في بالي، كانت صورة القائد، تتوسّط الجدار قبالة الباب الذي دخلت منه. يبتسم ابتسامة مائلة، توحي بنوع من الترحيب. هكذا أحلّل الآن وضعه في تلك الصورة، التي علمت أنها معمّمة على جميع المدارس، على عكس صوره الأخرى التي أذكرها كأنها تخصّ قادة آخرين، على غير ملامح وزيّ، وتعبير. فمثلاً صوره التي ملأت جدران السجن، كانت غالبيتها بالزيّ العسكري، نظرة حادّة، وحازمة، توحي بالرعب. لكأنه في تلك الصور كان يراقب السجّانين والسجناء. هناك واحدة من صوره على جدار السجن الخارجي، كان من الصعب التمعّن فيها، لكأنه في تلك النظرة الحادّة، الثاقبة، يعلم كل شيء وقابض على الحقيقة، يعرف ماذا يدور في رؤوسنا ونحن نتمشّى في الباحة. كنت أتحاشى التطلّع إليه، لأمرين، خوفاً من نظرته، ومن نظرة السجّان الذي كان دائماً يبحث عن ممسك للتشنيع بنا، «آش بيك بتطلع بسخرية من صورة القائد يا حقير»؟ ويجري الذي يجري...

لذلك كنا نتمشّى في معظم الأوقات مطأطئين رؤوسنا، كي لا يقع نظرنا على صورة الجدار.

كنت لا أزال واقفاً في باحة المدرسة، أنظر إلى نفسي صغيراً متعثّراً على هذه الدرجات... بدت لي أصغر بكثير مما كانت عليه في تلك الأيام، والدرج الذي يؤدي إلى المبنى المؤلّف من ثلاث غرف، أستطيع الآن صعوده دفعة واحدة، لو كانت ساقي سليمة، كنت أذكرها دائماً، ضخمة وهائلة.

شعرت برغبة في تفقّد عالمي القديم.

صعدت الدرجات الخمس، خفق قلبي، لكأني أواجه المصير نفسه، يوم قادتني أمّي إلى هذا المكان. لا أبواب، ولا سقف. حطام، أكوام ركام ومقاعد بالية. الصورة لم تزل في مكانها تتوسّط الجدار، بالقرب منها روزنامة مهترئة الأوراق، اقتربت من الجدار، مسحت براحتي الغبار عن تلك الصورة، فتفتّتت. هي نفسها صورة القائد، تفتّتت تحت راحتي، أصبح بنصف وجه. حاولت ترميمها لأتبيّن ملامحه كاملة، وأتذكّره كما كان، ففشلت وتفتّت ما بقي منها، بقي الإطار فارغاً. وتساءلت هل يا ترى واجه المصير نفسه في صورته الحقيقية؟ خفت من هذه الفكرة والتفتُّ حولي، كأن أحداً يراقبني ويفضح مشاعري، وأفكاري. رأيت صورة أخرى له على الجدار المقابل، كأنه ينظر في وجهي. أشحت بنظري، والتفتّ ورائي، لا شيء خلفي سوى ذلك الباب الذي دخلت منه قبل أكثر من خمسين سنة، مشرّع على المدى، على سماء تعبرها في تلك اللحظة قافلة من الغيوم، وتظهر في البعيد تلك المحطّة

المهجورة للقطار، وبيوت متروكة للخراب والصمت، تتحلّل في هذه العزلة.

أذكر يوم دخلت من هذا الباب، شاهدت قطيعاً من الأولاد، يشبه قطيع ماعزٍ فاغرة الأفواه، هكذا بدا لي آنذاك زملاء المصيبة، جالسين على مقاعد خشبية متراصّة ومهلهلة، متلاصقين. كانت عيونهم تستقبلني في دهشة وترقّب، أذكر أن خوفي أو رعبي خفّ، حين رأيتهم، وشاهدت في ملامحهم مزيجاً من الريب والبلاهة والاستغراب وبالطبع الخوف. هذا ما أتصوّره الآن، وأستطيع توصيفه بدقّة، كانوا أقرب إلى قطيع جافل من صوت ذئب، يصغي متحفّزاً.

بالقرب من اللوح يقف واحد منهم، يبدو أنه الأكبر سنّاً، والأكثر تجربة، والأعتق. أذكره الآن حزيناً مشتّتاً، كان يحمل في يده قطعة طبشور وممحاة، يدوّن بين حين وآخر أشياء وإشارات على اللوح كانت تبدو لي مبهمة. علمت لاحقاً أنه عريف الصفّ، ينوب عن المعلم في حال انشغاله، والمعلّم هو المدير، الرجل الكاكي الذي تسلّمني من أمّي في ذلك الصباح الخريفيّ الغابر...

كان هذا الصبي الذي يكبرني سنّاً، بالتأكيد، فهو أطول وأعرض مني بكثير، ينوب عن المدير، وإنابته تقتصر على مهمّة جليلة واحدة، هي تدوين أسماء التلامذة الذين يشاغبون، والشغب يراوح بين المشاجرة والهمس، أو القيام بأي حركة يراها مريبة.

علمت هذا الأمر سريعاً، ليس من فرط ذكائي لأن اسمي أُلحق بتلك

القائمة المدوّنة على اللوح. كان، إضافة إلى الاسم، يكتب التهمة. وتهمتي الأولى في ذلك اليوم هي البكاء.

عندما دخل المدير وقف التلامذة صائحين بأصوات حادّة متنافرة، صباح الخير يا أستاذ كريم. نهضت مثلهم، فتعثّرت بمزودي الذي علقت حمّالته في أسفل المقعد وشدّتني إلى أسفل، ولصغر حجمي، لم ينتبه أحد إلى وضعي المتعثّر. يبدو أن قعودي وقيامي لا يثيران أيّ انتباه ولا يوحيان باختلاف فاضح في قياسي.

قرأ المدير قائمة الأسماء المدوّنة على اللوح، اصطفّ المشاغبون بانتظام قرب الحائط. وبدأت حفلة العقاب، وتفاوتت أشكاله على قدر التهمة. قضيب على راحة اليد أو قضيبان، بينهما آخر سليط على المؤخّرة التي تستدعي للتوّ الهرش، كانت الاستغاثة واحدة «يرحم تراب أهلك يا أستاذ، ما بقى عيدها».

أما أكثر أشكال العقاب إذلالاً، فهو الركوع بموازاة الجدار ورفع اليدين، كان هذا أكثر أشكال التأنيب مهانة، فهو يثير بين التلامذة الناجين، الهمس واللغو والسخرية والضحك الخافت. كانت الأيادي تصاب بالخدر وتذبل، فيريحها صاحبها متشابكة فوق الرأس، سرعان ما تنتصب مجدّداً بعد لسعة قضيب على ظاهرها، مصحوبة بصرخة ألم.

أذكر حين قرأ اسمي، وقفت كما فعل الأشقياء الآخرون، وتقدّمت نحوه، بعد تدبير أمر مزودي العالق. سألني لماذا تبكي يا صغير يا

فلعوص؟ فأجبته بنوبة جديدة من البكاء، إذ إني لم أجد ما أقوله. لم أتمكّن من التعبير عن سبب بكائي آنذاك، بالطبع، هو يعرف السبب، ومرّت عليه حالات كثيرة من هذا النوع البائس المشابه لحالتي والمصاب بالهلع. ضحك بعضهم من بكائي، وبكى الآخرون، فوضعي فتّق في أنفسهم تلك المشاعر المشابهة لمشاعري آنذاك. صرخ المدير آمراً الجميع بالصمت والخرس التامّ. فخرس القطيع وبدأت الرحلة.

نشيد الثورة أول المحفوظات، وتمجيد القائد فاتحة كل الأيام.

بعد أيام قليلة اختفى عريف الصفّ. علمت أنه ابن أحد الرعيان الذين أحرقت حظائرهم وغادروا إلى غير بلاد... أحسست برغبة في البكاء حين عرفت ذلك، وبكيت.

بكيت ذلك الذي دوّن اسمي في قائمة المشاغبين، وكان شغبي آنذاك أيضاً البكاء، وهو لم يكن يدرك مثلي الآن، أن هشاشة الكائن البشري في مواجهة المجهول تدفعه إلى البكاء، احتجاجاً أو مقاومة أو استسلاماً...

هي هشاشتي، ثانية، دفعتني إلى هذا الفعل الآن، وأنا أتذكّر أيامي في هذه المدرسة.

هنا يا صاحبي تعلّمت فكّ الحرف لأصبح شاعراً، وسجيناً أيضاً. هنا بدأت أحبو نحو اللغز المحيّر، تلك اللغة التي تسعفني على هذا البوح والإخبار والحكي والتذكّر والوصف والاستعارة والتشبيه، والصمت...

نزلت درجات صفّي الأول نحو الملعب، وكلبي كعادته يبحث في الأرض والأشياء، عن روائح تصوّب مسار غريزته.

فجأة، طرأ تبدّل في مزاجه، صار متوتّراً، حذراً، توثّب وحرّك أذنيه كأنه يسمع صوتاً بعيداً، اتّخذ وضعية موحية بالانقضاض، وتابع «جعيره» المعادي.

ما بك؟ سألته، لم يلتفت صوبي، ما بك شو القصّة؟ شو سامع؟ أحسست بشيء من الخوف، وأنا أتابع ردود فعله، توجّس أكثر، اتّخذ وضعية توحي بجهوزية أعلى للانقضاض، وعيناه مسمّرتان في البعيد، حيث لا أرى شيئاً، ليس من شيء في البعيد. بعد قليل شعرت بارتجاج خفيف تحت قدمَيّ، قدّرت أنه بداية هزّة أو زلزال قد شعر به قبلي، وتلك ميزة من ميزات الكلاب كما يقال، تشعر بالزلازل قبل الإنسان، أي بالخطر، تشمّ الخطر، أنا حتى هذه اللحظة، فقط، أشعر بارتجاج بدأ يقوى، ثم تحوّل إلى ما يشبه الجرش المعدني. بدأ يصلني، صوت ليس بغريب تماماً عن مسمعي وذاكرتي، كأني أعرفه... يا إلهي لا أصدّق، مستحيل... صار الصوت يقترب وصار قلبي يخفق. حين أطلق صفارته، عبرتني، من أولي إلى آخري واجتاحني الحنين. إنه القطار يا فرند. انطلقت بعزيمة الصبيّ الذي كان، وحاولت الركض، مثلما كنت أفعل حين كان يمرّ بوادي الدموع قبل أكثر من نصف قرن، حاولت أن أجري خلفه، لكن ساقي خذلتني، صرت أقفز على ساقٍ واحدة كنبّاض وأصرخ، وأشتم عرجي. غير بعيد مني، كان يشرط الصحراء مطلقاً

صفارته الناحبة، جرى خلفه فرند كالسهم، جرى طويلاً وبعيداً حتى كاد يختفي خلفه في الأفق. ثم عاد خائباً وجثا أمامي.

كنت أتابع فلوله كأني أشيّع آخر الآمال. في تلك اللحظة، أيقنت أني ما زلت أشتهي الحياة، وأن رغبتي في التقصّي عن عالم أجهل ما حلّ به في غيابي، ازدادت، أو على الأقلّ، أصبحت يقينيّة وأكيدة. ثم افتكرت وتساءلت: لماذا أطلق هذا القطار صفارته حين اقترب من وادي الدموع، مثلما كان يفعل من زمان عندما كنت صغيراً. كان يعوي، كما تقول جدّتي، عندما يقترب من محطّة الوادي، حيث لا شيء الآن، لا أحد يأتي، ولا أحد يغادر، لا أحد ينتظر عائداً من غربة، ولا من زائر، ولا من مدرّس يأتي مع الموسم حاملاً حقيبته، والدي يستضيفه غالباً في غرفة فوق السطوح، لا من زوّار لمقام الوليّ، أو للجبل الطائر، لا شيء هنا سوى هذا الخراب والتحلّل والصمت، وأنا وكلبي.

ترى لماذا أطلق صفارته؟ شغلني هذا السؤال بعض الوقت، ورجّحت أن يكون السائق من أصول وادي الدموع، ربما كان له هنا، أهل وأحبّة، وذكريات مثلي، من يدري؟ وإلاّ فلماذا أطلق صفارته الناحبة، أو التي أسمعها ناحبة، في هذا العبور السريع؟ لعله مثل حالي يعلن عبوره، لأطياف من رحلوا، إنه يلقي تحيّته وسلامه على وادي الدموع وأهلها القدامى، لذلك حين أطلّ على محطّة الوادي، تلك المحطّة المهجورة، لوّح على طريقته لتلك الأيام...

هي مسألة حنين ووفاء... أليس كذلك يا فرند؟

منازل السُلالة

لا أعرف لماذا عنّ ببالي أن أزور مقبرة الوادي. منازل الأسلاف. هي ليست بعيدة. هناك على خاصرة الجبل، تبدأ من سفحه زاحفة في الصحراء. ما زال شجرٌ ظليل هناك، أشاهده ساكناً يلوح بخجل. عجيب! كيف نجا هذا الشجر من الإبادة؟ سألت نفسي.

اتبعني يا فرند.

أريد أن أزور مقبرة السلالة. أهلي القدماء. ومضيت نحو المقبرة، كأن صوتاً ما يناديني من هناك. كان صوتاً رحيماً. شعرت بسلام اجتاحني. أغمضت عينَيّ كالذي اطمأنّ لخلاص ما.

ليست ببعيدة يا صاحبي، اتبعني.

لوّح بذيله وماشاني. مشى بقربي بموازة خاصرتي، فرحت به. كنت أفرح حين يلوّح بذيله، يبدو أنه يعديني بفرحه فتصيبني موجة من السعادة.

عبرت أزقة الوادي مرة أخرى. بقايا بيوت، جدران متداعية، تلف ونسيان، نسيان متجسّد، هذا هو النسيان يا صاحبي. والنسيان له رائحة، هل شممتها يا فرند؟ شعرت أن كلمة صاحبي أجمل. «بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه...».

سأناديك دائماً يا صاحبي. غمز السراب، وتقصّى عن مسار الغريزة.

كنا نعبر الأزقة باتّجاه المقبرة، لا شيء استثنائياً أمرّ به، أنا الاستثناء الوحيد هنا. أشياء أتلفها الهجران والفراق. بقايا، بقايا، لا شيء مكتملاً. فردة من زوج نعال. كسرة من إناء، جدار من بيت، جذع من نخلة. فردة من نافذة، باب لا باب فيه وداخل لا داخل فيه... كلها تذكّرني بأهلي، وبحالي.

ماشي الحال يا صاحبي...

درتُ نصف دائرة حول الجبل، فبانت «منازل» السلالة بسكينتها الأبدية وشواهدها. أذكرها تماماً على هذا النحو، عندما كنا نجري صغاراً خلف الجنازات، تبدأ من السفح وتمتدّ في الخلاء الصحراوي. ودائماً يلوح هذا الشجر على بدايتها من ناحية السفح يظلّل ضريحاً لوليّ، مجهول الاسم، سمّوه ضريح الحائر، كانت تزوره النساء أكثر من الرجال. وأُشيع أن الضريح هو لراعية نذرت قطيعها للجائعين، بالطبع كان الرجال وخاصّة منهم الإمام يحتجّون على هذه الأقوال السخيفة، هذا ما أذكره. لكن كل ذلك لم يمنع النساء من زيارة ضريح

الحائر، الذي صار يعرف بمقام الراعية لدى النساء.

لا شيء تبدّل هنا يا صاحبي، سوى إضافة بضعة قبور على الطرف القريب من البيوت، تبدو من حجارتها المرتجلة كأنها أقيمت على عجل ودون شواهد.

صرخت بأعلى صوتي: من يغفو هنا، من ينام؟ جفل صاحبي. كرّرت ندائي. من يغفو هنا، من ينام؟ لا أدري. لا أحد يجيب.

خطر ببالي أن أقيم خطبة في هذا النعاس الأبدي، في هؤلاء النيام، البعيدين البعيدين، أخبرهم عما حلّ بي وبأهلي، وبالوادي...

أيّها الناس، يا أهل قريتي...

صعق كلبي من هذياناتي تلك، ونبح عليّ، لكأنه أراد أن يُثنيني عن الفعل الذي أقوم به. انتابتني حالة من الضحك، لا أعرف هل هي من أعراض الجنون، أم شيء يشبه بياناً صريحاً بالإفلاس التامّ والعجز. ليست المرة الأولى التي أقع في هذه الحالة، كانت تأتيني في مواقف متشابهة من حيث الحوافز، أخمِّن دائماً فيها وضعي النفسي، أقوم بمعاينة ذاتية، وأسأل نفسي أسئلة تخصّ جهوزية العقل، مثلاً: ما الفرق بين العاقل والمجنون؟ أجيب. المجنون لا يعرف أنه مجنون، أما العاقل فيعلم أنه سويّ ويتوقّع ويقدّر ويحلّل ويقرّر. على كل حال، لم يعد أحد من جنونه وأخبرني عن رحلاته. كنت أعرف في قرارة نفسي، أن نوبات الضحك الصاخبة هي مثل البكاء، نوع من الدفاع عن النفس، أو فرع من فروع الاحتجاج، تنتهي إلى الصمت وإعادة التفكّر

مثلما انتهت الآن. لكن من يراني وسط هذه القبور أضحك، قد يظنّني مجنوناً، ويأسف لحالتي، وبدوري آسف لظنونه.

أخذت نَفَساً عميقاً بعد تلك الترجيحات التي قمت بها. عاينت المدى والجهات، لا شيء. لا شيء. وحدها الصحراء تتثاءب من سأم وتزفرُ سرابها، وأنا عليّ في كل حال متابعة مسيري وعرجي. ويتبعني صاحبي.

تظنّني مجنوناً يا صاحبي؟ أيّ عقل يحتمل هذا التيه وتلك السنين السوداء؟ أيّ عاقل؟ لو تعلم ما الذي كنت أشعر به، حين كان يرفسني ذلك القبيح بنعله ويضغط على رقبتي وأتقيأ دماً. كان الألم يبلغ مطارح عميقة في روحي، لا أشعر بجسدي، كأنه يغادرني حين تبدأ نوبات الإذلال، كما يسمّيها مصطفى شبلي. أظنّ أني رويت لك عن ذلك. لا أعرف هل حكيت لك عن سنوات الذلّ؟ أنتم معشر الكلاب ذاكرتكم قويّة. لا بدّ أنك شعرت على الأقلّ، ولو مرة واحدة بالألم.

ليتك تنطق وتقول لي من هو الذي سبّب لك ذلك. بلا شكّ ينبغي أن يكون من صنف البشر. بعد ذلك لا بدّ أنك حزنت. أعلمُ، أعلم أننا بعد الآلام التي يسببها لنا الآخرون، نحزن كثيراً، وأنت أيضاً تحزن، أعرف من عينيك.

لماذا عيونكم، أنتم الكلاب، حزينة؟ حزينة وجميلة، حزينة ومُعاتبة، حزينة وتوحي الأمان والوفاء، لماذا أنتم أوفياء إلى حد مهين؟ لا أظنّ أنّ هذا شيء جيّد وحسن، أن تكون وفياً إلى هذا الحدّ.

لا أعتقد أن كائناً يتعرّض للإهانة والضرب، ويبقى مطيعاً ووفياً كما أنتم. أنتم والحمير، الحمار أيضاً مطيع وحزين وصبور، وذكي. ربما نحن المساجين نصبح هكذا، نألف السجّان ونطيعه ونرضخ لأوامره، لا أعرف هل هذا نوع من الوفاء بالإكراه.

ما رأيك؟

التفتُّ نحوه، وكرّرت، ما رأيك؟ أجبني، فتح شدقه ولوّح بذيله.

تسخر من كلامي وآرائي يا نذل؟ فنبح مرّتَيْن، وقدّرت أنه يقول نعم، أهزأ من هلوساتك.

حقير، نعم حقير وجميل.

تلك طريقتي في التودّد.

كنت أتسكّع بين القبور، دون غاية أو هدف واضح، أقرأ بعض أسماء الموتى على شواهد قبورهم. تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة، كان أهل الوادي يعتقدون أنهم أبديّون في بلدتهم، لذلك كانوا يعتنون بشواهد أمواتهم، كي لا تختلط الأشياء بمرور الزمن، وتلتبس القبور على أهلها الأحياء. لا أعرف أحداً من أصحاب هذه الأسماء، حتى جدّي الذي أحمل اسمه لا أعرفه، أعرف صورته التي حملتها جدّتي من جملة ما حملت، يوم رحيلنا من وادي الدموع. كنت أتخيّله عندما كانت تصفه وتحكي عن جولاته في الحياة، وبالطبع أعرف قبره لأنني كنت غالباً برفقتها عندما تزوره، هناك بالقرب من الضريح الذي تطلب منه التدخّل

لإعانتها على احتمال الدنيا، وأن يتدخّل شخصياً لدى الله كي يلهمهم ليفرجوا عن أخي. كنت لا أعرف من هم هؤلاء الذين لم يلهمهم الله على ما يبدو، لأني شاهدت إعدام أخي بالكلاب المسعورة، لم تفلح وساطتك يا جدّتي...

وصلت وجثوت بالقرب من قبر جدّي، ألقيت عليه السلام، سلام عليك يا جدّي، أنا عبد الجليل حفيدك، لا أعرف أكانت كلمة حفيد تليق برجل ستيني، هل تذكر، أنا كنت أجيء، مع جدّتي ليزا قبل خمسين سنة، كانت تمسك بيدي هذه التي أحمل بها عكّازي، تغيّرت كثيراً، أليس كذلك؟ أقصد أنا الذي تغيّر، أليس كذلك؟ أنت لم تتغيّر، ولم تبدل مكانك، أنت أنت لم يطرأ عليك أي تبدّل سوى الإمعان في الغياب.

هذا كلبي، صاحبي، صار كلبي، التقيته في الطريق، نعم أنت لا تعلم ماذا حدث في غيابك، أو أنت تعلم! لا أدري، ربما أنا الذي لا أعلم، إن كنت تعلم أو لا تعلم أقول: أنا غبت مثلك لسنوات، لكنني غبت حيّاً، لذا غيابي بالنسبة إلى غيابك، غياب ناقص مجزوء، وتافه، وعديم المعنى. لكن يا جدّي غياب الأحياء، أحياناً، من مثل حالي، تعبير فاضح عن نقصان الرحمة، واختلال العدل، ما رأيك يا جدّي؟ من بين الذين كانوا معي في ذلك الغياب اللعين المرعب، منهم مَن كفر، ومنهم مَن كان كافراً وآمن. ومنهم مَن وقع في الشكّ، ومنهم من تحدّى الله أن يثبت عدله في تدخّله لإنقاذ الإنسان من فضيحته... غيابك يا جدّي غياب رحيم، غياب أبيض، شفيف، داخل في السرّ.

أما غيابي فدخل في التجربة الكُليّة، للسحق والهتك والتعذيب والسحل، والبتر، والفقء... تجربة تلك الأفعال التي هي من ابتكار البشر، ليس من كائنٍ يستطيع القيام بهذه الأفعال المرعبة سوى البشر، لذلك كان غيابي حافلاً بهذه الأحداث على عكس غيابك الحافل بالسكون والصمت. ليت غيابي كان شبيهاً بغيابك، ولكن، هذا حظّي من الدنيا، هنيئاً لك يا جدّي لأنك لم ترَ ما حلّ بأهلك وبوادي الدموع الذي كنت تسمّيه وادي الخير. لقد اجتثّوا البشر والشجر يا جدّي، حلاّق ماهر حلق غابات النخل، وشجر الوادي البري. وهجّر حتى الطير. ما من أحد هنا يا جدّي سوى أنتم سكّان المقبرة. كانت جدّتي تقول، ونحن في طريقنا إلى تلّة سليمان على ظهور البغال، «يا ليت فيي أحمل كمشة من تراب جدّك معي، حاسّة حالي ناقصة، في شي ناقصني».

كانت تردّد ذلك طوال الطريق في هجرتنا إلى تلّة سليمان. في الغرب هناك، بدأنا حياة جديدة، لم تكتمل، لا شيء يكتمل إلاّ الغياب. هناك، أيضاً صار الذي صار. لا أريد أن أخرب عليك هذا الصفاء، هذا السكون. خذْ يا جدّي هذه كمشة أخيرة من تراب وادي الخير، واديك.

نثرت على القبر كمشة تراب مثلما كنت أفعل في زياراتي مع جدّتي، كانت تحمّلني نوعاً من الزهور البريّة اليابسة ذات رائحة طيّبة نفّاذة، تقول لي افركها بين يديك وانثرها على القبر، جدّك يحبّ العطر. كنت أفعل، وهي أيضاً تفتّت كمشة منها وتنثرها وتعبق رائحة طيّبة

في المقبرة، تبقى رائحتها في راحتي لأيام. حينما أتذكّر يد جدّتي أشمّ تلك الرائحة وأرى الوشم...

كان بودّي أن أعرف أين دفنوا أخي مهدي، أو ما بقي منه، بعد أن نهشته الكلاب المسعورة. علمت أنهم حملوا أشلاءه، ليلاً، ودفنوها في هذه المقبرة. ربما يكون واحداً من تلك القبور التي لا شواهد لها. كان يُمنع أن توضع شواهد على قبور الذين يعدمون، يُدفنون دون معالم قبر أو شواهد... هذا ما روته لي جدّتي. لكنها تعرف قبر أخي لأنها علّمته قبل رحيلنا ببضعة حجارة، ذهبت ليلاً وفعلت ذلك. كانت جدّتي تظنّ أن رحيلنا من الوادي موقّت، لذلك علّقت المفتاح في رقبتها. وحملت ما أمكن حمله، فقط بدافع الشكّ، خوفاً من غدرات الزمان، رحلت جدّتي وبقي المفتاح معلقاً في رقبتها.

نهضتُ. ودّعت جدّي. وقلت له: سأحمل سلامك إلى أهلي في تلّة سليمان، إلى من بقي منهم! جفلت من هذا الكلام، الذي يتضمّن تصريحاً واضحاً ويقينياً بالجهة التي أنوي الذهاب إليها، فضحت سرّي لنفسي! على كل حال لم أقل لجدّي إن والدي قُتل، وإن وادي الدموع ذبحت من الوريد إلى الوريد. لا أريد أن أخرب عليه هذا النوم وهذا السلام. ربما هو يعلم ذلك كما ذكرت، يقال إنّ الأرواح تعرف كلّ شيء. لكنها لا تستطيع أن تتدخّل، ما رأيك؟ هكذا كانت تقول جدّتي، أحبّ أن أصدّق ما تقوله جدّتي، حتى لو كان يتنافى مع العقل وحدوثه مستحيلاً. أحبّ أن أصدّقها لأني أشعر براحة حين أصدّقها، خاصّة

الآن. أحبّ ذلك أكثر بكثير ممّا كنت عليه سابقاً، يوم كنت شاباً يؤمن بالفكر العلمي، ومدافعاً عن قصيدة النثر والحداثة. أجد أن ذلك الكلام سخيف أمام كلام جدّتي، وهي تروي عن جرح الراعي الذي كان ينزف، ويترك خيطاً من الدم على الصحراء، وتحوّل إلى نهر نبتت على ضفافه أشجار باسقة تزهر في كل موسم لوناً مختلفاً.

أيّ خيال هذا يا جدّتي؟ ما هذا الحبّ؟ أليس أهم من كل الكلام الذي قيل في ستينيات القرن العشرين عن الوحدة، عن مستقبل العمود الشعري، أيّ عمود هذا يا فرند؟

يا الله... يا الله كم أنت عبقريّة يا جدّتي.

أرأيت يا صاحبي أعمدة بيوت وادي الدموع كيف أكلها الهجران ونخرها السوس وتهاوت، حتى أعمدة بعلبك وتدمر وروما لم تصمد في وجه الزمان، فكيف حال أعمدة الشعر.

هل تعرف بعلبك يا فرند؟

هل تعرف جدّتي يا فرند؟

مرةً أخرى صعد مزاجي، ورحت أضحك وأترنّح بين القبور، صائحاً بسكّانها أن يمعنوا في غيابهم.

توغّلوا... توغّلوا في هذا الصمت.

وأخذني بدوري لمحٌ من الغياب.

وسقطت. هويت إلى قعري.

القتيل الذي سمّيته
حامد المقدسي

كنا على تخوم المقبرة، بعدما ودّعت جدّي، تابعت عرجي، وأنا أقصّ على صاحبي مطالع حكايات وأفكار، وجدتها نوعاً من التمارين التي يكتشفها المرء مع تمادي الصحراء في الوحشة وتمادي النفس في الترجيح. هي ضرب من ضروب المغالبة مع الزمن، والغلبة، في نهاية المطاف، له. هو كما ذكرت مرةً، أشد الأعداء فتكاً. وليس من ألم لطعناته، ولا من أثر مباشر، هو يحدث نقصاناً غير مرئي، وتلفاً بليغاً يشعر به المرء بعد حين.

يا إلهي، كم هو مؤلم.

* * *

مرّة أخرى، توثّب فرند، ثبت في مطرحه، وراح يتفحّص بمنخريه

الأسودين رائحة ما يحمله الهواء من بعيد، من ناحية الغرب. يتفحّص ويصغي، بعد قليل سمعت جرشاً، يروح ويجيء مع حركة الهواء. نبح فرند، جلت بنظري في الأفق المفتوح أمامي على المجهول، شاهدت كتلة من غبار تتحرّك نحوي.

خفق قلبي.

أحسست بشيء من الخوف والترقّب. الكتلة كانت تتقدّم كعاصفة رمليّة أو زوبعة، جرى كلبي نحوها فأمرته بالعودة. عاد وواصل نباحه، صرت أهدّئه، وأهدّئ ظنوني وخوفي. غريب هذا الخوف الذي شعرت به، ظننت أنّ هذه المرحلة قد قطعتها من زمان. وصارت خلفي. ثم قلت في قرارة نفسي، وماذا سيحدث أكثر مما حدث، ماذا سيكون أسوأ مما كنته ومما أنا عليه؟

حين أصبحت تلك الكتلة الغامضة في مرمى نظري، زال غموضها، تبدّد، وبانت سيارة غبراء تشبه آليات الجيش.

توقّفت، وكأن الذين في داخلها شاهدوني وراحوا يتشاورون في أمري، هكذا رجّحت. أو هكذا يفترض أن يكون. لو كنت في الموقف نفسه، لفعلت. بعد أقلّ من دقيقة تحرّكت صوبي على مهل، همّ فرند بالانقضاض. هدّأته، يبدو أنه اشتمّ رائحة الخطر، صارت تتقدّم نحوي ببطء وأفكاري تتسارع، ترى من هم هؤلاء؟ للوهلة الأولى تغلّب ظنّي بأنهم رجال أمن يتعقّبون أثري، أو هم في دورية اعتيادية وحظوا بي، أو على الأقلّ في مهمّة بحث عن هاربين...

اختلطت مشاعري، اختلط الأمل بالرعب.

خفّفت السيارة من سرعتها، لمحت فوهات بنادق خارج نوافذها.

ارتفع منسوب الخوف وغلب الأمل، تسارعت نبضات قلبي، فحرت، حرت من خوفي المبالغ فيه، ومن شكوكي في أمر القادمين. عندما اقتربت أكثر، اهتاج فرند بجنون، فصرخت به، جفل، وكفّ عن النباح. للمرة الأولى أمارس هذا النوع من السلوك، وأصدر أمراً بهذا العنف الذي جعل فرند يجثو أمامي راضخاً ذليلاً... كان صراخي ناتجاً من خوفي عليه، خوفي من أن يثير غضب هؤلاء، ويتّخذوا قرارات لم تكن في حسبانهم، أن يطلقوا عليه النار مثلاً، ليتخلّصوا من نباحه. ربما لدى أحدهم رعب من الكلاب ووجدها مناسبة ليثأر... كان صراخي في الواقع، بهذه الغاية. خفت عليه، وهو لا يعلم أنني خفت عليه... ظنّ أني أمارس سلطتي وأذلّه أمام الغرباء، نظر إليّ بعينين خائبتين معاتبتين.

عندما أصبحت تلك الآلة الغبراء، على بعد مترين مني، توقّفت. ترجّل أحدهم على مهل وبثقة، ترجّل آخرون بأسلحتهم، بدوا لي أقل شأناً منه، تعثّروا بلباسهم، بقي السائق في السيارة. صرت أهدّئ كلبي. من الواضح أنهم ليسوا من رجال الأمن الذين أعهدهم. كانوا يرتدون تنانير بمستوى الركبتين، على رؤوسهم حطّات بيض دون عقال.

ملتحون جميعاً، ولحاهم متفاوتة الطول والحجم، حليقو الشوارب، تحيط بعيونهم هالات سوداء، جالوا بنظراتهم المريبة في المدى، وصوّبوا بنادقهم نحوي.

اقترب مني زعيمهم، هكذا بدا لي أنه زعيمهم، إذ إن الآخرين بقوا على مسافة منه ومني، على جهوزية تامّة. قدّرت أنهم ليسوا بحاجة إلى هذا الجهد وهذه الجهوزية، لكني لزمتُ الصمت.

سألني: من أنت؟

أجبته بعفوية ودون تخطيط، أو تدبير مسبق:

- راعي غنم.

- وأين الغنم؟

تاه مني منذ يومين (وافتكرت بمظهري الذي يوحي بما قلته، ويعزز صدقيّتي، لباسي، عصاي، كلبي، وزادي، ومطرات مائي. وهذا يكفي كي أكون راعياً).

(كرّر)

- أين الغنم؟

- قلت لك، تاه مني منذ يومين.

- أنت كذاب.

جفلت، ولكني استدركت ورميته بنظرة احتجاج.

قال: هنا لا يوجد لا عشب ولا ماء... أين ترعى غنمك؟

قلت له بثقة عالية:

ـ بلى يوجد ماءٌ، انظر هناك عند السفح، برك الماء. (في الواقع هي بقايا برك من مطر أمس).

(التفت بخفّة).

ـ وكيف تاه منك القطيع؟

ـ قصة طويلة. تاه. إن شاء الله سأعثر عليه.

ـ قل لي كيف ضاع؟ لم أرَ في زماني راعياً يضيّع قطيعاً بهذه السهولة.

(أجبته بحزم): بلى يوجد الكثير من الرعيان الذين ضيّعوا قطعانهم. وهذا كله من عند الله... (صرت أستخدم كلمات إيمانية تماشياً مع مظاهرهم الموحية بشيء من هذا القبيل).

ـ قل لي كيف ضاع؟ (رمقني ببرودة وكان يطقطق بسبحة صفراء، كأنه يعد حباتها... يسأل وينظر إلى السبحة، أكثر من تمعّنه في وجهي...).

(أيضاً تدبّرت حيلةً دون عناء) وقلت له: وقعت وعطبت ساقي، ويبدو أني غبت عن الوعي وقتاً طويلاً. وعندما صحوت لم أجد القطيع. ربما أحد اللصوص عثر عليه وهو متمادٍ في الصحراء بحثاً عن طعام، إن شاء الله سأجده...

ـ وهذا الكلب لماذا لم يحرسه؟ لماذا يقودك للتقصّي عنه؟

ـ هذا الكلب، آخ من هذا الكلب؟ لقد اختار بيني وبين قطيعي. أيعقل أن يترك صاحبه مطروحاً في الأرض ويمضي خلف القطيع؟

ـ الآن لماذا لم يقدك؟

ـ إننا نفعل، الآن أتبعه حيث يمشي ويشتمّ الرائحة. لا أعرف ربما هناك اقتاد اللصوص القطيع إلى مكان بعيد. العلم بيد الله، (صرت أسرف في استخدام العبارات التي تحيل مشكلتي على الله. وأظنّهم يحبّذون ذلك أو هكذا يفترض)، يا ريت فيي أقلع عيني وأبعتها مع الطير حتى تشوفو وين... (وهممت بالبكاء، وكأني صدّقت نفسي، صدّقت أني راعٍ وقد ضيّعت قطيعي).

ـ أين تبيت؟ أين تسكن؟

ـ على باب الله كل يوم في مطرح، حسب ما يجرّنا العشب، مرة هنا، ومرة هناك، ليس هناك من مطرح دائم... (وأشرت بعكّازي إلى جهات الأرض). الدائم هو... (أشرت بها إلى السماء).

ارتعشت، لا أعرف لماذا ارتعشت...

سأل: والأهل، العشيرة؟

ـ الأهل؟

ـ نعم؟

وفكّرت أن أقول له، أن لا أهل لي، ولكن خفت من هذا الجواب، خفت أن يجعلني دون جذور أو منبت أو أصول. وأجبته: الأهل هناك (وأشرت بعكازي ناحية الغرب، ولم أكذب، أعلم أن أهلي هناك). وتابعت: وقسم منهم هناك (وأشرت صوب المقبرة، وأيضاً لم أكذب، قسم من سلالتي يسكن هذه القبور).

دائماً الآخرون على جهوزية، صوّبوا بنادقهم نحوي، في الواقع تجاهلتهم، وصرت أداعب فرو الكلب، بدوا لي أغراراً، عديمي الخبرة.

سأل: لديك هوية؟

(ضحكت، في الواقع تضاحكت، كي أشتت ظنونه).

- تضحك؟

- أضحك؟ نعم أضحك، وهل الضحك عيب؟

سألتك عن الهوية.

(أجبته بجدّية): نحن هويّتنا هذه (ورفعت عكّازي عالياً)، وهذا (أشرت إلى كلبي).

انصرف، نادى جماعته، صعدوا سيارتهم، ومشيت، مشيت حذراً، ودون تخطيط، صرخ بي بحزم، ها... ها... شو اسمك أنت.

نطقت، أيضاً دون تفكير، يوسف، مثلما نطقت به يوم هجرتي الأولى مع أهلي من هذا الوادي، وسألني العسكري على حاجز عن اسمي، فقلت له: يوسف وكنت ابن خمس سنوات تقريباً، ولا أدري لماذا أتاني هذا الاسم، واليوم، بعد قرابة ستين عاماً تكرّرت اللعبة نفسها. لعلّ اسم يوسف يحميني.

هو درعٌ خفية أو تميمة، وإلاّ فلماذا نطقت به مرتين، كنت أحلّل هذه الحادثة، وأنا أسمعه يقول لي، أو بالأصح، يأمرني: قف عندك لا تروح...

وقفت واعترتني قشعريرة، كأن حدسي قال لي شيئاً خطيراً، كنت أسمع أصواتهم وهمهماتهم تصلني غامضة لا أفهم شيئاً منها، كأنهم يتشاورون في أمري، ويخطّطون للخلاص مني، لقتلي، ولكن، لماذا يخطّطون لقتلي؟ فهم لا يعرفون عني شيئاً، لا اسمي ولا أهلي، ولا مسقط رأسي، ولا الماضي الذي استهلكني، ولا أشكّل عليهم خطراً، لماذا إذاً يخطّطون لذلك؟ ربما هذا نوع من التمنّي، كي أرتاح من هذا الدوران في الفراغ والسعي إلى مجهول آخر.

أمرني أن أقف، هذا يعني أنه يريد شيئاً مني! يُدبّر لي أمراً ما! وهذا أكيد، وإلاّ كان تركني أمضي وشأني، أبحث عن قطيعي المزعوم. أحببت أن أستشير كلبي، لكنه لا هو، ولا الوضع الذي نحن عليه، يسمحان لي بهذه التّرهات. فكلبي متحفّز. نظرت في عينيه، بدا لي خائفاً، يا إلهي، هذا الذي كان يطارد الآدميين ذات يوم، صار يخاف منهم، لا بدّ من أن هؤلاء الملتحين أشرار، وجبناء، والجبان خطر أكثر من القاتل، فكيف إذا اجتمع الجبان والقاتل في آن واحد؟

ترجّل أحدهم من السيارة، واقترب مني قائلاً: إذا تبغي نوصلك لمكان ما في طريقنا أمشي معنا.

شكرته على الفور وبشكل قاطع وقلت: أفضّل أن أمشي لعلّي أعثر على أثر لقطيعي، إن شاء الله سأجده...

أطلّ زعيمهم، أو الذي وجدته زعيمهم، يبدو هو الأكثرهم ذكاءً

وحيلة، برغم اكتشافي المبكّر لهشاشته. المهمّ أطلّ رأسه من نافذة السيارة وأمرني أن أتقدّم نحوه:

تعال (قال، تعال... لم يكرّرها، بل ثابر على الطقطقة بسحبته يتأمّل في حبّاتها الصفر...) وسأل: ليش ما تبغى تصعد معنا، نوصلك لمكان فيه ناس؟

(أيضاً شكرته) وكررت: أريد أن أتبع أثراً لقطيعي. وهكذا يستطيع الكلب تقصّي الرائحة بشكل أفضل...

كان كلبي يشدّ بي إلى الخلف، كأنه يريد التملّص من هذه المكيدة التي أشتمّها.

قال: إن كنت تريد قطيعك، اِصعد، نحن إنحصلّك إياه.

صعقت، وبسرعة حاولت تحليل باطنه، هل هو يعرف أني كاذب؟ أم هو الذي يكذب؟ ماذا أجيب؟ هل أقول له، لا أريد قطيعي، وهل يعقل أن يتخلّى راعٍ عن قطيعه. ولكنني عالجت وضعي المرتبك بسرعة، وقلت: كثّر الله خيرك، أتعرف أين قطيعي أنت يا ابن حلال؟

قاطعني، وضع حدّاً لمديحي الماكر، وقال إنه يعرف بيوت الرعاة وإنه خبير بقطّاع الطرق واللصوص، وراح يقدّم لي إغراءات من هذا النوع وغامَ صوته في مكان غامض من إدراكي. صرت أتأمّل وجهه الممتلئ، وعينيه الحائرتين، واهتمامه المفرط بتعديل كوفيّته على رأسه الحليق، وفي قرارة نفسي أسأل: ماذا يريد مني هؤلاء السابلة، من أين أتوا؟ وما نفعي لهم، بحالتي هذه وبعرجي، وضموري، وخرقي

وأسمالي، وتفاهتي وحقارتي وضلالتي ولعنتي؟ وماذا سيحدث أسوأ مما حدث؟

تظاهرت بالفرح الشديد والعرفان وطلبت من كلبي أن يصعد السيارة قبلي، صائحاً بفرح: لقد وجدنا القطيع يا صاحبي، جازاك الله خيراً، يا أخ، وهممتُ لأتعرّف على اسمه، سألته، الاسم الكريم، فصرخوا بي جميعهم، بصوت واحد لا. لا. لا، كأنهم نبحوا جماعياً، نبح كلبي ذعراً، هدّأته، صار دوري التهدّئة، تهدئة الجميع، القطيع البشري، وكلبي، وسألتهم: خير إن شاء الله على شو هذا الصراخ؟ فأجابوا جماعة: هذا الكلب، لا نستطيع أن نأخذه معنا. وصاح أحدهم في المقعد الخلفي، بصوت حادّ متكلّف، مستغفراً ربّه مرات عديدة وبسرعة، لا تعرف يا بني آدم، أنه يفسد طهارتنا، فهو نجس، أبعده أبعده عن السيارة، أستغفر الله...أستغفر الله... أستغفر الله، صار يتمتم، ويهذي، وترتجف لحيته ذات الشعر القليل.

يا إلهي من هؤلاء؟ شعرت أني سأتقيّأ من قرفي من هذا المخلوق. ابتعدت، تراجعت وكلبي إلى الوراء، وأدركت فوراً أني وقعت في فخّ آخر، أشدّ فتكاً من السجن الذي أكل عمري، وجسدي، قالوا جماعة: اصعد وحدك، تبعهم صوت منفرد، صوت زعيمهم: اصعد وحدك، يتبعنا.

أجبت: لا أستطيع أن أمشي بدونه.

قلت اصعد وحدك ويتبعنا (قال الزعيم).

أجبت: وكيف يتبعنا؟ لا أريد أن أصعد، سأمشي ومشيت.

جاء صوته: حازماً تريد القطيع أم الكلب؟

لم أجب.

كرّر السؤال، بنبرة موحية بالتحذير: تريد القطيع أم الكلب، يا بني آدم؟

(يبدو أني اتّخذت قراري بالمنازلة، إذ إني كنت مدركاً سلفاً، أن أسوأ ما في الأمر هو الموت، وهو ما أريده فعلاً)، فجاوبت قاطعاً: أريد الاثنين وضحكت هازئاً. راعي بدون كلب؟ (سألت)، شفت بزمانك راعي بدون كلب ولو، وتابعت سيري، صاروا يتبعونني بسيارتهم على مهل، فاستدرت وغيّرت اتّجاهي، ففعلوا. استداروا مثلي، وسمعت صوتاً من الخلف، هو صوت المهووس بالطهارة، أميّزه من فرط حدّته ونفوره: اصعد وإلاّ فسترى ما لا يعجبك، نخر أذني، استدرت نحوه، بردّة فعل، وقلت: اللي ما عاجبني، هو سحنتك وصوتك وحضورك كله، افعل ما تشاء. تبرّع صوت آخر أكثر اعتدالاً من حيث الحجم، والنوع، عربش وإلاّ بصلحلك إجرك الثانية، هذه اللهجة أعرفها، وفكرة التصليح هذه هي من الإنتاج اللبناني، قلت بنصفي اللبناني: اللي بيطلع بإيدك بيطلع بإجري العطيلة، روح بلّط البحر، افعل اللي عاجبك. اللي كان بجهنم ما رح يخاف من موقدة. قلت في قرارة نفسي، تابعت، لا أريد أن أسمعه الجملة الأخيرة، كي لا يتمادى في الأسئلة. تدخل زعيمهم، بحكمة مفتعلة ومفضوحة، وهو يستغفر ربّه،

وكنت أفكر في تلك الشجاعة المباغتة التي أتتني، توقّف، توقّف أريد أن أقول لك شيئاً.

توقّفت، اقتربت السيارة مني، أطلّ برأسه من نافذتها، تأمّل في ملامحي، يبدو أنه يقوم بعملية تقدير لأفكاري، يزن تصرفاتي، يتفحّص منسوب شجاعتي، هزّ رأسه، انزاحت حطّته عن رأسه الحليق، عدّلها، رفع سبحته بمستوى وجهه، طقطق حبّتين، وقال لي بحكمة مستعارة مفضوحة: اصعد يا أخي، لا تخفْ، نمشي على مهل، وكلبك يتبعنا، نحن نعرف أنه عزيز عليك، ولكن كما تعلم، هي الأصول، لا نستطيع أن نحمل في العربة نجاسة، نَفَس الكلب لا تطهّره النار، هذا شيء منافٍ لديننا، حرام، حرام، لا تجوز معصية كلام الله ورسوله...

ـ لا أريد الدخول معك في نقاش عقيم، يا أخي، ولكن مش حرام ترك روح في هذا الجدب، لا أكل ولا ماء، ثمّ يا أخي، هذا كلبي، والقطيع اللي ضايع قطيعي، أنا أجده بنفسي، أشكرك، أشكرك... الله معكم، حبيت تساعدني، أنا رفضت، ما بدا زعل، شكراً...

عمّ الصمت.

طرفان يكذبان في حوار صادق، لا أحد يعرف إلى أين ينتهي، وكيف ستكون نتائجه. طرفان يكذبان، هذا أكيد، ولكن غير الأكيد، هو أنهم لا يعرفون فعلاً أنني أكذب، هم يعرفون فقط وأكيد أنهم يكذبون عليّ لغاية مبيّتة في نيّاتهم، لا أعرفها، ولا أعرف أيضاً هل صدّقوا أنني راعٍ ، وإن صدّقوا أنني راعٍ، فماذا يقدّم أو يؤخر

في نيّتهم؟ فقط تتغيّر مفردات الحوار، أنا أعلم أني كاذب، وهم أيضاً كاذبون، لأنهم تبرّعوا بالبحث معي عن القطيع، وأنا لا أملك قطيعاً، فلو كانوا صادقين لما أصرّوا على فكرتهم بالصعود معهم دون كلبي، ولكن لا أدري على الإطلاق، ما الذي يريدونه من رجل على هذه الدرجة من التلف والبؤس، وما نفعي؟ هل سيتمرّنون بي؟ يجعلونني حقل اختبار لهم؟ إذ بدا أنهم غير متمرّسين في الخطف، أو السلب، وماذا سيسلبون مني، لا أملك سوى خرقي، وزاد متناقص، وهذا الصديق المذعور، الذي يرتجف. للمرة الأولى أراه على هذه الدرجة من الرعب... فكّرت أن آمره لينقضّ عليهم، ولكن خفت أن يردوه بطلق ناري في رأسه، فهؤلاء أوغاد وأبناء زانية.

كانت هذه الأفكار والاستنتاجات، تمرّ سريعة في بالي. وفي الحقيقة، أزداد توتّراً وارتباكاً وحيرة. لا حيلة لديّ للتخلّص من هؤلاء، لعنة حلّت، لعنة حلّت، بكل اللعنات. أنا في مأزق حقيقي، فخّ لا مفرّ منه. فكّرت أنني إذا تماديت برفضي أوامرهم فقد يطلقون النار على هذا البائس الذي هو صاحبي، صديقي، آخر أصدقائي. قد يفعلون ذلك، ما الذي يردعهم؟ أخلاقهم الحميدة؟ خوفهم؟ إيمانهم؟ لحاهم؟ آثار كاذبة لصلاة على جباههم، ما الذي يمنعهم من إطلاق النار عليّ أيضاً، وأصير حقلَ رماية وهدفاً بالنسبة إليهم، هؤلاء السابلة أبناء الزنى، على الأرجح هم يخطّطون لإطلاق النار على كلبي، عندها تبطل حجّتي،

وأصعد معهم، فهم يريدونني حيّاً على ما يبدو، وإلاّ فما المانع من أن يردوني قتيلاً هنا؟

التفتُّ صوب زعيمهم وقلت: إذا أردت مساعدتي حقّاً فاتركني في سبيلي، وإذا لا، أصعد مع كلبي، ضعوا الكلب في الخلف، (تبادلوا النظرات بارتباك).

وأجاب دون تردّد: لا مكان له بيننا، لا مكان أبداً.

أجبته، ولا مكان لي بدونه، أضيع كما قطيعي فيما لو لم يكن بصحبتي...

اصعد وحدك. هو يتبعنا، فتح بابه وأمرني:

اصعد..

لم أصعد، كأنني انغرست في الأرض، ثبتّ مكاني، تناول رشّاشه وأطلق قربي، أثارت الطلقات زوبعة من الغبار، نبح كلبي وفرّ، صرخت لكأني أصبت بطلق في صدري، ولكن الذي أصابني هو صوت كلبي وهو ينبح، ولا أعرف ما إن كان قد أطلق عليه. لم أتبيّن من الغبار، أسمع صوته بعيداً، ناديته... فرند... فرند. وركضت نحو الصوت، أطلقوا النار ثانيةً، امتزج كل ذلك بقهقاتهم. صاروا يضحكون من عرجي وأنا أقفز كالنبّاض خلف كلبي، شاهدته بعيداً يجري، اتّجهوا صوبه وأطلقوا ثانيةً، صاروا يطاردونه ويناورون، حلّفتهم بالله أن لا يفعلوا، وأني سأصعد معهم. توقّفت، تابع كلبي نباحه، وهو يجري في البعيد وهم يطاردونه، خفت أن أناديه كي لا أثير شهوتهم إلى قتله. كان

السائق يدوس على دوّاسة البنزين، استعداداً للمناورة، فتجعر السيارة وأجعر بدوري. أحلّفه بالله، إن كنت تحبّ رسول الله، فلا تفعل، رجوته، رجوتهم، أنا أفعل ما تشاؤون، ولكن اتركوا هذا المخلوق لمصيره، لا تقتلوه...

يبدو أن الزعيم أمر السائق بالاقتراب مني، تقدّم ببطء... هدأت عاصفة الغبار، سكت كلبي، شاهدته في البعيد جاثياً، يراقب وقائع المشهد، يبدو أنه غير مصاب، لأنه وقف وتقدّم بضعة أمتار رافعاً أذنيه متوثّباً، أو بالأحرى متعجّباً مما يجري...

إنها واحدة من سفالات البشر، قلت له...

فتح باب السيارة: اصعد قال الزعيم، اصعد، يتبعنا، بعد قليل...

لم ألفظ حتى أنفاسي، قطعت نفسي، خفت إنْ سمعوا نَفَسي، أن تُثار شهواتهم وغرائزهم في القتل فيقتلوا كلبي. لا أدري كيف أصبحت وسطهم في داخل سيارتهم، هي في الواقع أقرب إلى شاحنة متوسّطة، لم أرَ مثلها سابقاً، حتى صوتها وهي تطارد فرند، كان مرعباً... شكلها يوحي بالاعتداء، أكثر من كونها سيارة لنقل الناس. فوراً شعرت بأني داخل السجن من جديد، مع فارق أن هذا السجن الجديد، هو سجن متحرّك، لا يستقرّ في مكان. لذا تبقى الأفكار في حالة توالد مرير وموجع، والأمل يختلط بالتوقّع الذي تفرضه تلك الآلة العجيبة وهي تعبر، وتجعر... شممت للتوّ رائحة كريهة، رائحة أنفاس عفنة، ذكّرتني برائحة أنفاس السجناء البدلاء، الذين قايضونا بهم ذات سنة غابرة،

على الحدود. وشممت رائحة البلاد، ورائحة أنفاس عطشى. التفتُّ ورائي، لم أتبيّن شيئاً واضحاً. على مسافة غير بعيدة، من النافذة رأيت فرند متوثّباً، ذكّرني وضعي هذا بليلة اختطافي من بيروت من وادي أبو جميل، يومها حملوني في صندوق السيارة، كصرّة من ثياب بالية، تلك الليلة كانت بداية هذه الرحلة الطويلة التي ظننتها انتهت قبل أيام، ولكنها على ما يبدو لم ولن تنتهي.

لم أجرؤ على النظر في وجوههم، لكن، بطرف عيني، تبيّنت أني بالقرب من ذلك اللعين المهووس بالطهارة. أمر الزعيم بالتحرّك، تحرّكت السيارة.

نبح كلبي نباحاً جريحاً، لكأنه يسألني ماذا أفعل، وهل سأتركه، عوى...عوى... انشلع قلبي من صدري، ورجوتهم أن يتوقّفوا وينزلوني، حلّفتهم بالله... واصلت السيارة تحرّكها البطيء وواصل كلبي عواءه. تطاولت برأسي، أخرجته من النافذة لأراه، لكزني المهووس بكوعه على خاصرتي، فشهقت وجعاً، بعد قليل التفتُّ ورائي، رأيته من بعيد يتبعنا، خفّت لهفتي قليلاً، كان يتبعنا حذراً، يُسرع قليلاً ثم يقف. كان السائق يقود بهدوء، وبسرعة موازية لسرعة فرند حسبما قدّرت. ضغط الزعيم على زرّ في التابلوه، خرجت أسطوانة فضيّة اللون، أرعبني شكلها وهي تنزلق من فتحتها. لم أعرف على الإطلاق وظيفة هذه الأسطوانة، بدت لي للوهلة الأولى شفرة دائرية، تناول واحدة مماثلة، تأمّلها، وأدخلها، ثم أدخل واحدة أخرى، أدخل

ست أسطوانات على التوالي. أحسست أن هذا الانهماك في اختيار الأسطوانات وإدخالها واحدة تلو الأخرى في تلك الفتحة، سيحدث أمراً ما، ربما يخصّني، لكن لم أفلح في تحديد ملامح ذلك. تلك الحركة اللعينة، جعلتني أنسى للحظة كلبي، سرقتني من لهفتي عليه. في الواقع أربكني هذا الشيء، زعزع يقيني أو شوّش أفكاري. التفتُّ ثانيةً من النافذة لأرى فرند، كان تقريباً يسير بموازاة السيارة، دَهِشاً، دالقاً لسانه، أسمعه «ينعص»، كأنه يستجدي، كان صوته آنذاك موحياً بالرجاء. زاد السائق من سرعته، نبح فرند نباحاً محشرجاً، رجوته أن يسير متمّهلاً كما وعدني. فعل، جعل سرعته موازية لسرعة فرند، لكن إلى متى يبقى الوضع على هذه الحال؟ سألت نفسي مشدوداً بكليتي إلى فرند، بخيط واهٍ من الأمل.

ضغط الزعيم على زرّ آخر في التابلوه، خرج صوت يدعو المسلمين للانتقام من الكفرة والحكّام والطواغيت والغزاة، الأميركيين والبريطانيين، وراح يعدّد مآثر الإسلام في التاريخ، وعند كل وقفة، كانو يكبّرون، الله أكبر. أيقنت من أمرين، أولهما أن هذه الأسطوانات الفضية، هي كالتي عرفتها في ستينيّات القرن العشرين مع فارق أنها كانت أكبر حجماً وسوداء، والأهم أنها كانت تبثّ أغنيات أحببناها وحفظناها لأمّ كلثوم وعبد الحليم حافظ وناظم الغزالي وفيروز. أما الأمر الثاني، فهو أني تأكّدت أن هذا المتحدّث هو داعية، وهؤلاء الشبّان هم من أتباعه.

يعجبك كلام مولانا الأمير؟ (سألني الزعيم، بعدما خفض الصوت. لم أتوقّع أن يسألني سؤالاً كهذا، فأجبت بسؤال آخر):

ـ تسألني؟

ـ نعم أسألك.

لا أعرف بماذا أجيب هذا اللعين، فأنا أكره هذا الصنف من البشر، أو في الأصح يقرفونني، أشعر بالغثيان حين أشاهدهم وأسمعهم وهم يهدّدون ويتوعّدون باسم الله ويعدون المارقين والكفرة والزنادقة ببئس المصير. يلوّحون بسبابتهم، ويشهقون وعيداً، ويزبدون ويتطاير لعابهم رذاذاً فوق رووس الخاشعين. هكذا أنا منذ أيام بعيدة، منذ كنت طفلاً في وادي الدموع، كنت أقرف من هؤلاء...

كنت مشدوداً إلى كلبي، وهو يجري خبباً على بُعد قرابة عشرين متراً على جانب السيارة. كرّر الزعيم سؤاله: أيعجبك؟

لم أسمعه جيداً، أجبت باقتضاب وبرغبة أن يكفّ عن مساءلتي، لكنه رفع منسوب الصوت، وراح الآخر يرعد كما عهدت أمثاله أيام زمان، لكن هذا الأخير يبدو صارماً، حازماً، وجاداً في ما يقول، إذ إنه ذكر عمليات قام بها أنصاره، وهي من النوع المرعب، ووعد بدكّ بنيان واشنطن ولندن، وبقطع رؤوس ملوك وحكّام خونة، كما وصفهم، وختم: إن شاء الله تصلكم بعض رؤوس هؤلاء هدايا...

ـ سمعت، الآن؟

ـ نعم.

ـ عظيمٌ كلامه؟

ـ نعم.

ـ هؤلاء الكلاب يجب علينا سحلهم بالنعال.

ـ بالتأكيد.

ـ هؤلاء الكفرة أبناء الكفرة سنحرقهم أحياءً إن شاء الله.

سكتُّ.

ـ ما بك سكت؟

ـ أريد كلبي. أنزلوني، أريد كلبي، فقط، لا أريد شيئاً آخر، أنزلوني. أرجوكم...

تمهّل السائق، تمهّل كثيراً ثم توقّف، توقّف فرند. ضغط الزعيم على زرّ آخر، سكت الأمير، عمّ الصمت، فقط صوت المحرّك، وشيء يشبه الأنين. اقترب الزعيم من السائق، وشوش في أذنه، فاعتدل، داس السائق على دوّاسة البنزين مرات متتالية، فجعرت الآلة، وتمايلت مثل كائن خرافي. كان فرند يتابع وقائع المشهد، وكنت في قرارة نفسي قد أدركت أن النهاية أعلنت بدايتها، ودخلنا في الشوط الأخير من لعبة المجهول تلك. كان محرّك السيارة يجعر وكان قلبي يخفق، وعقلي يتحلّل. ثم انطلق، وراحت العجلات تحفر خنادق خلفها مخلّفةً زوبعة من الغبار. انطلق فرند نابحاً، أو ناحباً على الأرجح، انطلقَ بكل عزيمته، لكأنه أدرك أن المنازلة الأخيرة قد بدأت. كان يجري بموازة النافذة وصار السائق يناوره، يسرع ويخفّف، حلّفته بالله أن يسير على

مهل، فزعق بوجهي، قائلاً: لا تحلّفني، أنت مجنون. صرخت به، حرام، هذا روح يا بني آدم ما تخاف الله؟ ثم طلبت من الزعيم، ممن سمّيته الزعيم، ورجوته أن يتدخّل، أن يطلب من السائق القيادة بتمهّل، لكن هذا الأخير لاذ بالصمت. وللتوّ ذكّرني وجهه بوجه ذلك اللعين، آمر السجن، عندما تصبح تعابيره محايدة، لا توحي بأيّ معنى أو دلالة أو إحساس أو تعبير. بقي السائق يناور، مرة يتمهّل حتى يصبح الكلب بموازاتنا، وتارة ينطلق بأقصى سرعة ليصبح الكلب خلفنا، يحاول عبثاً اللحاق بالسيارة...

يبدو أنهم استساغوا اللعبة، صار بعضهم يخمّن الوقت الذي يستطيع فيه الكلب مواصلة الجري، والبعض الآخر يقدّر سرعته ويقيسها بسرعة السيارة، وبدأ الهرج والرهان وتناسوا أني معهم وأنهم خطفوني لغاية لا أعرفها، وضاع رجائي في قهقهاتهم.

انتشوا، فرحوا بلعبتهم تلك، وكانوا يصيحون بهجةً، عندما يشاهدون فرند يجري بكل عزيمته ويقفز نحو النافذة ويسقط خائباً متعثّراً في الرمل. أخرجوا رؤوسهم من النافذة ليتابعوا وقائع جريمتهم بمشاهدة أفضل، طارت حطّاتهم وبانت رؤوسهم الحليقة، فصاروا يلوّحون لفرند بها، كما يفعل لاعب الثيران. هكذا ارتجلوا إضافةً إلى عرضهم، إلى لعبتهم، ليزيدوا من شقائي.

واصل السائق مناوراته بعزيمة وشهيّة أشدّ، وبنشوة عارمة، كان يقهقه شهيقاً، أجفل حين يشتدّ شهيقه، أظنّه يشرف على الاختناق فيزداد

خوفي، لكنه يستعيد نفسه ويستعيد الكرة في تضليل فرند، يجعله دائماً يصل إلى موازاة النافذة، يوهمه بالوصول وبالفوز، ثم يضاعف سرعته، فينأى كلبي خلف السيارة كشبح، وينأى نباحه، يبتعد، يغور، يغور في الرمل، إلى حدٍّ يجعلني أنطوي أكثر على نفسي، أنكسر كضلع شجرة وأغور في أعماقي، لكأن ما بقي من جسدي الحيّ انفصل عني نهائياً وتلاشى.

تحزن للكلب؟ يسأل زعيمهم.

لا أجيب، أدخل على نحو أعمق في ذاتي.

تمهّل. أمر السائق، ففعل خفّف من سرعة السيارة، صار يقود ببطء، استعدت أنفاسي، سمعت نباحه يأتي، من بعيد، التفتُّ خلفي، شاهدته، زوالةً تجري في سراب، تتضح ملامحه شيئاً فشيئاً وهو يقترب من السيارة، وحين أصبح على مقربة منا وحاول القفز نحو النافذة، عاد ذلك النذل وضاعف سرعته، فتضاعف شعوري بالخواء وتلاشى بعضي الآخر. ودائماً كان يصخب الهرج والرهان ويتعاظم الضحك، ويختلط هدير المحرّك بهياجهم وبنباح فرند الذي بدأت قواه تتلاشى، ويخيب أمله باللحاق بنا، ويخيب أملي بالنجاة من هذا الفخّ البشري المهين.

«أبوس أيديكم ونعالكم، أمشي على مهل، حرام يا بني آدم هذي روح، لا تخاف الله؟...».

كان رجائي هذا يُداس، يسحق تحت عجلات الآلة الجبّارة ويثير شهوتهم إلى التعذيب. لا أعرف كم مضى من الوقت وهم يناورون

ويراهنون ويهتاجون. بدا لي ذلك من أشدّ أنواع العذاب فتكاً في النفس وأطولها مدّة.

كنت أشعر كأني في منام. بعد أن مضى وقت طويل بَعُدَ صوت فرند، لم أعد أسمعه، صرت أسمع شيئاً يشبه النحيب الآتي من جوف الزمان، وأنيناً خافتاً وموجعاً. لم أعد أستطيع أن أُقدّر، إن كنت أسمع ذلك فعلاً، أم هي تهيّؤات... عمَّ الصمت... فقط، هدير المحرّك يجرش، لكأنه يجرش لحمي، لا أحد يتنفّس، أصيبوا كلهم بارتخاء وبوهن بعد حالة هياج هستيرية، صاخبة.

بقيت أسمع أنيناً موجعاً ومخنوقاً لا أدري من أين يجيء.

توقّف السائق. نزل. مشى بضع خطوات. بال. نفض عضوه مرات، تناول من الأرض كمشة من الرمل، فرك عضوه. بصق، انحنى ثانية حمل كمشةً أخرى وفرك راحتيه... نظر في قرص الشمس، لكأنه يعاين المواقيت، تمنّيت لو يظهر فرند من باطن الأرض وينقضّ على عنقه، ينهش وريده، ابن الزانية هذا اللعين المريض. طحنت غضبي بين أسناني وهززت رأسي محيلاً لعبة الانتقام على الأيام.

عاد وتأمّل في قرص الشمس واضعاً راحته فوق عينيه، «إنه العصر» قال، وتحرّك باتّجاه السيارة، صعد وأطفأ المحرّك، ثم عاد ونزل. نزلوا واحداً بعد الآخر تيمموا بالرمل. وتأمّلوا في الجهات، رفعوا رؤوسهم نحو السماء... بقي أحدهم بالقرب مني، هو ذلك اللعين المهووس. عُدت أسمع أنيناً عميقاً لا أعرف مصدره، لكني قدّرت أنه يخرج من

مكان ما في السيارة، ظننته في البدء شيئاً يوحي به صوت المحرّك، ولكن حين أوقف السائق المحرّك، استمرّ الأنين متقطّعاً ومخنوقاً. قلت في نفسي، ربما هذه تهيّؤات، أو أنه يخرج من تلك الأسطوانات الفضية. لكزني المهووس، وسألني، لا تصلي؟ قلت في قرارة نفسي بدأ الامتحان... أجبته بجدّية: لا أستطيع السجود والركوع بسبب قدمي، أُصلي غالباً واقفاً، أو جالساً. هكذا كانت إجابتي واضحة صريحة، لا تستدعي أيّة إضافة أو شرح، وأردت بها أن أختم الحوار، وأضع حدّاً لأيّ سؤال آخر.

أنا في الواقع لم أمارس هذا الطقس على الإطلاق. حاولت أن أنزل من السيارة، فقال لي: لا، ابقَ هنا، كيف تصلي وترافق كلباً؟ ألا تعرف أن نفسه يفسد وضوءك وصلاتك، أم أنت من أولئك الكفرة والعلمانيين، قل لي أين تقع القبلة؟

(أجبته من جعبتي الصوفية التي تغذّت من بلال الدمشقي في سنوات السجن)، أينما ولّيت فهناك وجه الله.

سكتَ، نظر من النافذة، بالطبع لم يكن ينظر بنيّة البحث عن وجه الله كما ذكرت له.

أضفت: ثم يا أخي أنا راعٍ، مش إمام مسجد.

التفتَ صوبي ورمقني بحقد وقال: أسألك عن القبلة الشريفة، ألا تعرف اتجاهها؟

نظرت بدوري من النافذة وكرّرت الإجابة نفسها، أينما ولّيت

فهناك وجه الله، ثم أنت بأيّ حقّ تسأل وتفتي؟ سترى بأيّ حقّ؟ ونزل من السيارة، وراح يحرس صلاة الآخرين، أو بالأحرى يحرسهم، ولا أعرف ممن؟ ويراقبني، ويحرسني، أو يحرس عجزي، وأنا لا حيلة لي، ولا قدرة على فعل شيء، سوى الانتظار.

كان مصير آخر يتحدّد لي ذلك العصر.

أنظر في البعيد، أتمنّى لو يظهر فرند من ذلك السراب، لا شيء، لا شيء في البعيد سوى كرات من العشب يتسلّى بها الهبوب، يدحرجها على سطح البسيطة. دائماً يتدحرج قلبي خلفها، ولا أدري لماذا يعتريني الحزن عندما أرى تلك الكرات من العشب والشوك الصحراوي، تتدحرج ويقذف بها الهبوب، يحيّرها، حين يلتفّ زوابع صغيرة، أو يحملها بعيداً، تنأى في السراب، لتظهر أخرى هنا، أو هناك تتدحرج، وتستقرّ وهكذا إلى أن تتحلّل ذات يوم.

ودائماً يعصر قلبي هذا المشهد.

ترى إنْ تمعن فيها هؤلاء، فهل يرون ما أراه؟ ويشعرون بما أشعر؟ سألت نفسي وكان انتباهي مركّزاً على احتمال بزوغ كلبي من السراب دالقاً لسانه، يجرّ نفسه نحوي لأنقذه من الفقدان، وينقذني بدوره من هذا المجهول. لكن رغبتي تبدو في ذلك وهماً وسراباً آخر، لقد أنهكه الجري الطويل خلفنا، ثم إن السرعة التي كان يقود بها هذا السائق الرخيص النفس، كفيلة بأن تجعل بيننا وبينه مسافة يوم كامل، لا بدّ أنه

في مطرح شديد البعد عني، ولا أعرف بأيّة جهة، تحديداً، ترى ماذا عساه يفعل؟ هل يتبع آثار السيارة أم تاه وراح يمشي دون هدف، أم عاد إلى وادي الدموع؟

لا أدري.

قطع توقّعاتي صوتٌ خرج من مكان ما في السيارة، صوت جهاز على ما يبدو، كان يبثّ نوعاً من الإشارات الصوتية، لا أعرف معناها أو مصدرها، ويبدو أن هؤلاء المصلّين لم يسمعوا شيئاً وحارسهم موغل في صمته على بعد أمتار...

السيارة من الداخل غريبة، لم أرَ مثيلاً لها في حياتي. كنت أقدّر أن الأشياء والحاجات والدُنيا تطوّرت، ولكن ما كنت أفلح في تحديد ملامح هذا التطوّر. عندما كنت داخل السجن، ونسمع خبراً، أو نقرأ شيئاً في مجلّة رماها آمر السجن من نافذته إلى الباحة، بعد نوبة من نوبات السأم التي كانت تصيبه، ونشاهد في تلك المجلة، إعلانات وصوراً لسيارات حديثة، حينها لم يخطر في البال ولم أتوقّع أن السيارات تطوّرت على هذا النحو، بلمسة زرّ تفتح الأبواب وزرّ آخر يرفع السقف. التابلوه أمامي مملوء بالمفاتيح والأزرار الملوّنة، كذلك بالقرب من مسكة الباب الذي بقربي، ضغطت على واحدة من تلك العلامات التي رُسمت عليها أسهم حمراء وبيضاء، فتحرّك بي المقعد، خفق قلبي وارتبكت، ظننت في البداية أن السيارة هي التي تحرّكت، واصل المقعد تحرّكه صعوداً وانحناءً إلى الخلف، صرت أضغط

عشوائياً على بقية المفاتيح كي أوقف هذه اللعنة إلى أن توقّفت، تنفّست، أخذت نَفَساً عميقاً، نظرت نحوهم، ما زالوا في صلاتهم. فلمسته مرة أخرى دون أن أتجرّأ على التجريب ثانيةً، لكن انتابني فضول لمعرفة دور هذه المفاتيح الملوّنة التي فوق رأسي في سقف السيارة، ضغطت واحداً بعد تردّد وارتباك في الأصابع وخفضت يدي بسرعة خوفاً من ظهور شيء يؤذي أو يقطع، بدأ قسم من السقف بالحركة، ارتعبت، لم أقدّر نتائج ذلك، فضغطت عشوائياً على المفاتيح الأخرى فراح يتحرّك صعوداً ثم إلى الخلف، ثم استقرّ لكنه بقي مفتوحاً قليلاً على السماء، شاهدت السماء وخيطاً من أشعّة الشمس اخترقه إلى المقعد الجلدي الذي أمامي. حاولت أن أعيده إلى حيث كان، لكني لم أفلح. كان يتراجع ويرتفع، ثم يتقدّم. وحين أرفع إصبعي يتوقّف. توقّفت، رأيت فوق رأسي مباشرة غطاءً بحجم الدفتر، له فتحة صغيرة تحتوي على زرّين، ضغطت أحدهما فانزلق الغطاء وتحرّك نزولاً على مهلٍ، إنها مرآة وللتوّ شاهدت فيها وجهاً غريباً غائر العينين، ملتحياً وأشيبَ يحدّق في وجهي، نظرت خلفي. لا أحد خلفي، عدت وشاهدته، ما زال يحدّق في وجهي، ثانيةً نظرت إلى الخلف، لا أحد في الخلف، مددت يدي نحو وجهي، شاهدت يدي تلامس الوجه، أنزلتها، اختفت، عدت وهرشت لحيتي، هرشت يدي لحية الوجه، إنه وجهي، هذا أنا؟ يا إلهي، هذا أنا صرخت. انتبهوا. انتبه حارسهم، تقدّم مني، وسأل: صرخت؟

قلت: لا سعلت، عفواً، وسعلت ثانية، أو افتعلت السعال.

ابتعد إلى موقعه، تابعت لعبة التأمّل في وجهي، أدركت أن رحى الوقت تركت الكثير من الغبار عليّ، وهذا كلام جدّتي:

ما تقول يا عبد الجليل بيّك شاب

هيدا غبار الزمان غطّاني

هذا هو غبار الزمان يا جدّتي، هذا أنا الذي كنته زمان. اختفيت في ملامحي الجديدة، داعبت شيب رأسي ولحيتي، فتحت فمي على ما بقي من أسنان، وجدت أن شكلي يستدعي الضحك أكثر من الشفقة، على الأقل، من قبلي. لم أرَ في ملامح الوجه في تلك اللحظة ما يحزن، أو يجلب الأسى، هي لعبة الزمن، بدا شكلي موحياً لي بالضحك، فضحكت. ورأيت نفسي في المرآة أضحك. ففقدت السيطرة على نفسي وضحكت كثيراً وبصوت عالٍ أثار انتباه حارس الصلاة ثانيةً، التفت صوبي، فتمثّلت وضع من يسعل، وتصنّعت نوبة من السعال المصحوبة بزخّات من الضحك، وزالت تدريجاً النوبة... استقررت، هدأت، دمعت عيناي، وبرزت عروق رقبتي، وتساءلت من أين تأتي تلك الخطفات المتهكّمة؟ هل أنا مجنون؟ ودائماً أستنتج بعد كلّ شك، لو كنت مجنوناً لما علمت ذلك؟ ما حدا راح ع الجنون ورجع وخبّرنا شو صار؟ كما الموت...

كنت أحلل كعادتي، تقلّبات مزاجي، عدتُ للتأمّل مرةً أخرى في ملامحي، وجدتها في المرآة، هذه ملامح منكسرة، ملامح رجل

ستيني، هزيل خاوٍ، جلد أدكن يغطي عظمتَيْ وجهي البارزتين، وعيناي غائرتان عميقاً في جبيني، ولحيتي بيضاء، بيضاء، رفعتها، شاهدت نحول رقبتي، غريب كيف تحمل رأسي وهي على هذا القدر من النحول؟ رفيعة أكثر مما ينبغي أن تكون رقبة آدمي... حاولت تبيان العينين في مغارتيهما، شاهدت الندب الواضح على جبهتي، هو من آثار سيخ النار، الذي كواني به آمر السجن في جلسة العرق الشهيرة، كانت منازلة في الشرب وامتحاناً في الكرامة، ونطحني يوم ذاك ثم كواني، واستفقت معمّماً بعدما لفّ رأسي بخِرَق بالية.

... وددت لو كان كلبي معي، لأخبره ماذا رأيت في وجهي، وكيف يصحّ فيّ موّال جدّتي:

ما تقول يا عبد الجليل بيَّك شاب

هيدا غبار الزمان غطّاني

كان بودّي لو أن أحداً ما أعرفه كان بقربي، كنت بحاجة لذلك، ولكن لا أحد كما هي العادة...

حاولت أن أعيد غطاء المرآة إلى موضعه، لأغيّب وجهي، لم أعد أريد أن أرى ما صرته. ضغطتُ على المفتاح الثاني، ارتفع تلقائياً، طوى ملامحي وخبّأها... تخيّلت ذلك. صرت فضولياً في تكبيس الأزرار ولكن بحذر شديد كنت أتلمّس تلك الأشياء التي فتح أحدها صندوقاً مملوءاً بالنقود، أقفلته على عجل وشعرت أن خدراً أصاب يدي...

في ظهر المقعد الذي أمامي حاملة جلدية في داخلها صحف وخرائط. سحبت واحدة من الصحف بحذر شديد. منذ ربع قرن لم أتلمّس جريدة، قربتها من أنفي وشممتها، اشتقت لهذه الرائحة، كنت أحب رائحة الصحف، بمقدار حبّي لرائحة الخشب، والتراب عند أوّل شتوة، رائحة ثابتة، لا تتغيّر مهما تغيّر الكلام في الجريدة ومهما كان الخبر، إن كان يتحدّث عن مذبحة بشرية، أو عن حقول الورد في أمستردام. الرائحة نفسها. شممتها قبل أن أتبيّن أخبارها... تصفّحت العناوين على عجل قبل أن ينتبه حارس الصلاة كما سمّيته، قرأت: العثور على مقبرة جماعية في إقليم كردستان، تشييع الشاعر جواد بندر الذي قتلته الجماعات المتشددة، تحطيم معابد أثرية... اللاند كروزر قاهرة الصحراء: إعلان لسيارة تقفز فوق كثيب رملي... ويطير من نافذتها طرف كوفية... Call me any where صورة لعلبة سوداء كتبت تحتها هذه العبارة، لم أفهم مغزى ذلك! قلبت الصفحة، قرأت: تعثّر المفاوضات على الجانب الفلسطيني، إسرائيل تواصل بناء المستوطنات. انتابني شعورٌ مفاجئ بالرعب، لم أعد أتبيّن الكلام، أو صرت أقرأ دون أن أفهم... صور وإعلانات، وتشييع ضحايا، وانتخابات، وحقول ألغام.

لماذا هؤلاء «الحارنون» تحت شمس العصر حملوني إلى هنا وفعلوا ما فعلوه بكلبي؟ لماذا تركوني طليق اليدين ولم يضعوا عصبة على عينَيّ مثلما فعلوا بي سابقاً، أولئك الذين بدوا أكثر تمرّساً وخبرة

في بيروت؟ كنت بقيت داخل نفسي، لم أرَ ما رأيت، ولم أقرأ ما قرأت، ما كنت شاهدت وجهي... في هذه المرآة.

لا أريد أن أعرف شيئاً آخر، أعدت الجريدة إلى مكانها. عاد الأنين خافتاً. لا أعرف لماذا ربطت فوراً بينه وبين العنوان الذي قرأته في الجريدة عن المقابر الجماعية. بدا الأنين كأنه يأتيني من باطن الصحراء، تماماً حيث تقف بي هذه الآلة التي بدأت بدورها تثير رعبي. كان الجهاز الذي في مقدّمتها قرب المقود يبثّ إشارات صوتية تضاعف من خوفي، والأنين يتواصل مريراً موجعاً... في البعيد البعيد... دائماً سراب يتراءى لي أن كائنات غامضة تتحرّك فيه، ودائماً دائماً تلك الكرات من العشب والشوك يتسلّى بها الهبوب وتلحظها، كما ذكرت مرة، عين الله بحياد. من جعل هذا يتسلّى بذاك؟ سألت. ومن هم هؤلاء الذين بدوا لي كأشباح وسط هذا العدم الصحراوي؟

انتهوا من صلاتهم، سلّموا نحو اليمين ونحو اليسار، السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله. تحفّزت حين وقفوا وسألت نفسي كيف للذي يقول بالسلام والرحمة أن يفعل ما فعل بي وبكلبي، وينتشي لعذاب روحين، إنه أمر في منتهى النفاق... عاد ومسّني شيء من صلابة، تهيّأت. وقفوا، نفضوا قنابيزهم، وركبهم التي علقت بها حبّات الرمل، شُغل أحدهم بشوك علق بذيل ثوبه، مسحوا جباههم المدموغة بآثار السجود، مسّدوا لحاهم التي كان يبعثر انتظامها الهواء الذي بدأ يشتدّ مع اقتراب الشمس من خطّ المغيب. ربطوا حطّاتهم

على رؤوسهم كي لا يطيّرها الهواء، مشوا خلف زعيمهم خطوات أو أمتاراً بعيداً عن السيارة التي قدّرت أنها لاند كروزر بعدما شاهدت مثيلتها في الإعلان. وقفوا حلقةً، تشاوروا في أمر ما، تفكّروا! عمَّ السكون... التفتوا إلى الجهات الأربع، أشاروا بأصابعهم، بسباباتهم تحديداً تلك التي يرفعونها للشهادة، وأشاروا نحو أمكنة غامضة. كلّ الجهات هنا غامضة، لا شيء فيها، لا إشارة تميّزها من سواها.

تململت في مقعدي.

لا أعرف نيّاتهم ولا أستطيع الترجيح، لكنهم بالتأكيد كانوا يدبِّرون أمراً ما غير عادي.

عاد الشك يراودني ويأكل عقلي.

عاد الأنين، قلت، وها أنا أهذي، أو أن هذا الأنين الموجع يأتي من مخيّلتي، من مكان ما في داخل رأسي، من ذاكرتي المحشوة حشواً بالأنين البشري، قد يكون أنيني أنا، أنيني الذي يأتي من بدني الآتي...

حارس الصلاة كما سمّيته للتوّ آنذاك، ما زال مسمّراً عن يميني، ليس بقريب وغير بعيد، في مطرح وسطي بيني وبين جماعته، يتفحّصني تارةً وتارةً يزيغ في السراب، مرتبك طوال الوقت بكوفيّته التي تنزلق عن رأسه الحليق حين يشتدّ الهواء. كانت تسقط أحياناً فيُسرِع لالتقاطها قبل أن يحملها الهواء بعيداً. وجهه الدائري وعيناه الناعستان وملامحه لا توحي بصوته الشنيع. على كلّ بدا لي مرتبكاً وغرّاً لا خبرة لديه.

بدت لحيته المبعثرة كأنها إضافة، أو أنها تخصّ شخصاً آخر، استعارها منه لقضاء حاجة تستدعي وجود لحية.

مشوا باتّجاه السيارة، تقدّم أحدهم من الباب الخلفي، فتحه، نظرت إلى الوراء لأرى ما يجري. لم يكن بإمكاني أن أتبيّن ما في الصندوق، إذ إن غطاءً بموازاة المقاعد الخلفية، ينسحب فوقه ويحجب ما في داخله... بعدما فتح الباب أدخل نصف جسده كأنه يتفقّد شيئاً.

ثم عاد إلى الخلف وصرخ انزل. فتحت بابي وهممت بالنزول فوراً، صرخ بي الآخر حارس الصلاة، مش انت، ابقَ في مكانك. تمايلت السيارة، ارتجّت من فعل تململ حدث خلف المقاعد في الصندوق.

أصبح الأنين أكثر وضوحاً.

صرخ زعيمهم، فكّ قيوده يا غبي.

أدركت أن رجلاً مكبّلاً ورائي في الصندوق، يا إلهي، ما هذا؟ ماذا يفعل هؤلاء؟ وماذا يخططون؟ من هم، ومن هو هذا الذي حشروه في الصندوق مكمماً مكبلاً طوال هذا الوقت؟ أعرف تماماً كيف تكون حاله الآن، لقد عشت هذا النوع من ممارسة الهمجية، يوم خُطفتُ من بيروت ورُميتُ كصرّة من أسمال في صندوق سيارة، كانت أصغر من هذه، دفعوني إلى الصندوق بعدما أحكموا على عينَيّ وعلى فمي بخرقٍ عفنة تفوح منها رائحة جيفة. أعرف ماذا يشعر وماذا يحسّ، وتلك الأوجاع التي تطاول عميق روحه، ومفاصله، وذلك الدوار الذي يغرق في لجّته، وذكّرني أنينه المكبوت بأنيني يومذاك...

تشابكت توقّعاتي، ثم تعطّل عقلي...

فكّ قيوده وأمره ثانيةً بالنزول، بالتأكيد لم يستطع النزول فالخدر يجعل من جسده خرقة يابسة مكوّمة، لا حيلة له ولا قدرة على الحراك، مفاصله ميبّسة، وحلقه جافّ، ناشف، متشقّق...

شاهدت ذلك الذي أمره بالنزول مذهولاً، كان حليق الرأس كما الآخرون، ولحيته مسنّنة تزيد من وجهه المتطاول انحداراً، كان زبد يُرغي على جنبات فمه المنهدل، بدا لي متوتّراً، عيناه غير مستقرّتين على هدف، قصبتا رجليه نحيلتان ترتجفان تحت قنبازه الرمادي اللون، لكأنه هو الضحية التي تنتظر مصيرها...

جاء آخر بدا أكثر مراساً وضغينة، وأكبر حجماً وأكثر وعورةً، مدّ يده الهائلة، وسحبه من الصندوق كذبيحة.

سقط وارتطم رأسه بحافّة العجلة، أصدر أنيناً موجعاً.

سقط قلبي.

جرّه من شعره. شعره كستنائي كثيف يرتدي قميصاً زيتياً وبنطالاً كاكي اللون.

انزع عن فمه، (أمر الزعيم). صرت أسترق النظر.

نزع عن فمه خرقة دكناء، وأبقى أخرى على عينيه.

فكّ قدميه، أمرَ الزعيم ثانيةً.

فكّ قدميه، تقلّب الرجل على الرمل، فرد جسده على مداه، كالمصلوب، وأقسم بالله إنه لا يعرف شيئاً ولا ينتمي إلى أيّة جهة.

وإنه كان في زيارة لأقربائه هناك، وإن تلك الأموال التي كان يحملها، هي كل ما جناه في حياته، وإن السيارة التي كانت بحوزته هي ملك للشركة، كان ينوي أن يعيدها اليوم، ويعود إلى عائلته، وأن... وأن...

غار صوته في أعماقي، كأن نصفي مات.

كنت أستطيع أن أميّز اللهجات، تلك خبرة اكتسبتها في سنوات متاهتي، منذ خروجي من تلّة سليمان، يومها لم أخطّط لأيّ مسار، كانت الصدف هي التي تقع عليّ مرة ساخطة ومرة ليّنة، وتعمّقت هذه الخبرة أكثر. في سنوات السجن حيث تمظهرت كما يقول الرفاق قديماً، الوحدة العربية خلف القضبان، من كل الجنسيات كنا هناك... نعم، أعرف الناس من لهجاتهم، كما أني أعرف البلاد من رائحتها، وكنت أشمّ رائحة الغيم والمطر، وكنت أشمّ رائحة الخطر، مثلما تعوّدت شمّ الورد بين نهدَيْ مريم. أيضاً تعزّزت قدرات حاسّتي الأنفية، في سنوات السجن حيث صرت أميّز بين رائحة الضحية ورائحة الجلاد، وأعرف ماذا يحمل الأقرباء إلى ذويهم في أكياسهم.

غار صوته عميقاً، عميقاً.

خذوا كل شيء واتركوني أرجع إلى أهلي وعائلتي. عرفته أو عرفت جنسيّته. إنه فلسطيني، أينما حلّ هؤلاء تحلّ بهم النكبات، قلت في قرارة نفسي، كأني نسيت نكبتي وما ينتظرني!

تقدّم الزعيم وصرخ: كافر وتعمل مع كفّار، داس بحذائه على رأسه.

سكت.

تجمّعتُ على روحي، توقّف نَفَسي، أدركت أني مخطوف مثله، ومصيري مشابه. عُدت أجوجل أفكاري، باحثاً عن السبب الذي دفعهم إلى خطفي، فأنا لا أحمل مالاً ولا أملك شيئاً سوى عكّازي وخرقي وزادي الشحيح ومطرات مائي...

ترى ماذا يريدون مني؟

قدّرت أن هؤلاء الملتحين ما زالوا أغراراً في ممارسة هذه المهنة! يتمرّنون بمن يطاردونه، مهما كانت نوع الطريدة، لا فرق بين المسمّنة والعجفاء. وقلت: الذي مثل حالي لا يصلح لشيء حتى للتمرين، لكنهم قد يجدون في جسدي ما يختبرونه.

سأل أحدهم: أقتله؟ وصوّب نحو رأسه.

جفّ حلقي.

أجابه الزعيم بأعصاب توحي بالبرودة: أنا أعرف من سيقتله، رفع قدمه عن رأس الرجل، تطلّع صوبي، وتقدّم ببطء.

جفّ حلقي أكثر، تيبّس لساني، شعرتُ أن جسدي أصبح أكثر ضآلة، تجمّعتُ أكثر على نفسي حين تقدّم نحوي محدّقاً بعينيين فارغتين في وجهي، اتّكأ على حافة نافذة السيارة، مدّ رأسه، أدخله قليلاً وهمس: هذا كافر، إذا قتلته تنال ثوابك وتذهب في سبيلك، وإن لم تقتله فسأقتلك وأقتله...

كأني لم أسمع بقية كلامه، صار صوته يتدحرج في جسدي كحجر

في جوف وعاء معدني... هممت بقول شيء ما، أذكر كأني فتحت فمي، فغار صوتي في حلقي الجافّ، وشعرت بانحلال تامّ اجتاح كل مفاصلي.

فتح باب السيارة، أمسكني من يدي، أنزلني، حمّلني رشّاشه، كنت أسيرُ خدراً، لكأني في مطرح عديم الجاذبية، خفيفاً، لا أذكر إذا كنت أسمع كل شيء، لكن بالتأكيد قال لي: هذه فرصتك أمام الله، اُقتله تدخل الجنّة.

أصبت برعشة كالتي كانت تعبرني في جلسات التعذيب، ارتجّ بدني، تفكّكت مفاصلي، سقط الرشّاش من يدي، سقطت معه، سمعت ارتطام جسدي على الرمل، ثم بدأت تتسرّب إلى جوفي أصوات تقول أشياء غير واضحة، مفكّكة، كلمات متقاطعة:

نقتله، نقتل، إش.. الراعي، هم، غنم، هم، إن، كلب، كافر، خرس، أنا بفتي، خرس، ترك، تركوا، جرعاً حرام، عطشاً، نار، لا ناقة لي ولا جمل، (سمعتها كاملةً)، حرام، حرام، حرام... راعي فرد. لأ... سمّي بالله... الشهادة.

بوضوح آخر، سمعت رشقات رصاص، انتهى بالصمت، «فجّه» إقلاع السيارة، تبعته رشقات أخرى، ثم راح ينأى هديرها، ليتلاشى، وعمّ الصمت كثيفاً، وغبت...

* * *

رأيت نفسي مثلما كنت أراها في مناماتي القديمة، أتمدّد على غيمة بيضاء وأحلّق فوق المدن والقرى، أقطع سهولاً وجبالاً متّجهاً نحو الشرق وأنا أعدّ البيوت والقطعان في المراعي. كنت أشاهد نفسي خلف قطيعي مرة، ومرة أتدحرج ومريم على العشب. رأيت الشلال في تلّة سليمان، وبركة الماء حيث تلصّصت على زينب وهي تستحمّ، ورأيت نفسي في طريق البياض أودّع أمّي، ثم رأيتني في حضن جدّتي أنظر إلى الوشم في ظاهر يدها على الرسغ، ووالدي مُسجّى ملفوف الرأس يبتسم لي. رأيت نفسي أجري في الحقول خلف شبح، هو جَدْي ماعز جفل من الذئب، ورأيت نفسي مكوّماً في صندوق السيارة أكاد أختنق من رائحة حريق العادم، التي تتسرّب إلى داخل الصندوق، رأيتُ، رأيت، رأيت أهلي القدماء، وأنبياء على دواب تقطع غابات الأرز والسنديان. وقف أحدهم على رأس جبل أجرد وصرخ في وادٍ سحيق، فبدأ الطوفان... ثم رأيت بياضاً كثيفاً وشجرة وحيدة على تلّة تظلّلني، مرّ بي قوم على بغال وسألوني عن جهة البلاد التي أنا منها، فأشرت إلى تلّة مقابلة، تابعوا رحيلهم، نسيت أن أسألهم من هم، ورجّحت أنهم أصيبوا بالشتات واللعنة، غابوا في المنحدر وحوافر البغال تقرقع على الحصى، وتنهّدات تأتي من الغيمة، سألتها تعبتِ؟ قالت لي أخاف إن أمطرتُ أن تقع.

شعرت أني مبلّل، ورحت أغرق تدريجاً في قلب الغيمة، وراحت الأشياء تختفي وتغيب وأغرق أكثر في السواد، هل أنت تعبة؟ سألتها

ثانية وأجابتني: لا، لكني حُبلى، سأمطر. فأمطرت، ووقعت، ارتطمت بأرض رطبة، وطارت مني أشيائي، ثم همدت دون حراك...

صحوت.

التبس عليّ ما أنا فيه، افتكرت في البداية، وللوهلة الأولى أني بين خرائب بيوت أهلي في وادي الدموع، وأني غرقت في نوم طويل. أخذني ملاك النوم إلى أدغاله البكر، نظرت حولي متفقّداً كلبي وأشيائي التي رأيتها تتطاير مني في المنام. لا أثر لفرند. رأيت زادي وعكّازي ومائي على بعد أمتار. كان حلقي يابساً ولساني قطعة من الخشب. حبوت نحو مائي، فتحت المطرة، ودلقت في فمي، كرج الماء نحو حنجرتي، قسم منه على حافات فمي، فإلى عنقي، وقع نظري على رشّاش مرميّ على جهة اليسار. على امتداد ذراعي، تجمّد دمي... شممت رائحة تذكّر بتلك التي كنت أشمّها عندما يعلو الصراخ خلف الجدران، في نوبات التحقيق، رائحة تأتيني من مكان ما داخل النفس، لا من خارجها، تتوالد مع الإحساس التامّ بالخواء، كأن شيئاً يحترق، أو يتململ ويولّد تلك الرائحة، أعرفها، رائحة الجريمة. كنت قد جلست بعدما صحوت، ما زالت مطرة الماء في يدي، الماء يكرج خفيفاً على صدري... التفتُّ بحذر خلفي، إذ إني شعرت بشيء أو توقّعت شيئاً مرتبطاً بآلة القتل هذه... استدرت، رأيته...

اختلّ يقيني وغرقت في الذهول...

بعد قليل، حاولت أن أعيد ترتيب أفكاري، ووضع اللحظات

التي مضت في سياق يعيد إليّ توازني، ويجعلني قادراً على إدراك ما حدث.

لا، ليس ما أراه فصلاً من منامي، هو شيء آخر، سأحاول تذكّر حدوثه، ولكن ذلك لم يمنعني من أن أنظر إلى السماء، وأصرخ عالياً عالياً:

لماذا هذا كله يا إلهي؟

لماذا أنا؟

من هذا، ماذا فعلت؟ لماذا أنا؟ اختلطت عليّ الأمور للوهلة الأولى، سلاحٌ، وقتيلٌ، ولا من أحد سواي، ولكن أنا؟ أنا يا ربّي لا أقوى على قتل نملة. مستحيل هذا الذي أراه، غير ممكن، شعرت بخدر يتسرّب إلى عقلي، إلى داخل رأسي. أنا لا أقوى على قتل عصفور أو دوس نملة عن طريق الخطأ، لا... لا... لا أصدّق أني فعلت. نهضت لكأن نبّاضاً دفعني إلى أعلى، وصرت أدور على نفسي كحجر الرحى، أروح وأجيء، هاذياً، لكأني خرجت عن مدار السيطرة، أنظر مرة نحو القتيل ومرة في يدي، وأخرى في السلاح المرميّ، بحياد وإصرار في الوضوح، يسمّونه آلة أو أداة الجريمة، عناصر ثلاثة مكتملة، قتيل وقاتل وأداة الجريمة. بدأت الشكوك تطعنني بنبالها، وتعضّني بنابها السام...

هل ما أراه حقيقة أم من جملة الأشياء التي أراها في هذيانات النسيان والغيابات، أم هو امتداد للمنام الذي حملتني خلاله الغيمة وعبرت البلاد؟

جثوت، رفعت رأسي عالياً لأبتلع الفراغ العالي، الهواء الحبيس في هذا الوقت. رأيت السماء شديدة الصفاء على ذاك الغروب، وعنّ ببالي أن أصرخ ثانيةً بأعلى ما يمكن، فصرخت: لماذا أنا يا خالقي؟ غابَ صوتي مدفوعاً في السماء، نحو الكون، نحو المجاهل الكبرى نحو العدم نحو اللاشيء، وأنا أعلم أني أصرخ، فقط محتجّاً على هذا الاختلال المروّع في العدل والصدف، والحادثات، محتجّاً على هذا المصير الذي دُفعت إليه بكل عتوّ، وما من أحد مال إلى كتفي وواساني. طز، طز في هذا العالم المخزي.

غرقت في صمتي... مرّ وقت، مرّ وقت طويل، مرّ ثقيلاً وبطيئاً. كنت أسمع هسيسه وهو يمرّ، للوقت صوت كنت أسمعه عندما يشتدّ عليّ الوجد أو الحال، أسمعه كماء يجري في باطن صخري، يشبه التسرّب المتواصل بين الشقوق، يفتح أمام المرء كوّة نحو الزمان، يتبيّنه على هيئة السراب تطلّ منه أطياف كائنات وبشر تمشي، تمشي وتتقدّم، تمشي وتتقدّم ولا تصل...

مرّ وقت طويل، وأنا مستسلم لهذا الشعور الطاغي بالفراغ المطلق، قبل أن أستعيد نفسي من تبدّدها في هذا الفراغ، لملمتها من الصدوع والشقوق وجمعتها على هيئتي، استعدتها من الذي أسمّيه الغياب ومن النسيان. وقبل أن تفتح تلك الكوّة في ذاكرتي على ما حدث لي قبل ساعات قليلة، أخذت نَفَساً عميقاً، عبّأت رئتَيّ بأكبر قدر من الهواء ثم زفرته كأني أخرج عبئاً صخرياً من قلبي.

حبوت نحوه، نحو القتيل، كان لم يزل معصوب العينين، نزعت تلك الخرقة المعفّرة بالرمل والمبتلّة بالدم عن عينيه. عيناه مفتوحتان تحدّقان إلى الفراغ، نظرة بقي فيها ألم شديد وعتاب، أغمضتهما براحة يدي، وأنا أستعيد ذلك المشهد المروّع. أستعيد وقائعه منذ البدايات حتى تلك اللحظة التي أطبقت فيها عينَيْ القتيل على الدنيا. عندها تحوّل خوائي وخوفي إلى قوّة، توقّد ذهني، واشتعل، صرت الذي كنته قبل ساعات.

تأمّلته وهو مكوّم أمامي بكل وضوحه، أسمر أشعث الشعر، يزيدني طولاً وبالتأكيد بدانةً، وينقصني عمراً، ينقصني ما يقارب الجيل، أربعيني، شيب خفيف غبّر شعره. شعرت أنه يخصّني، واحد من أهلي، وعلت في رأسي فكرة الانتقام له، علت، ثم عبرت. لو أردت أن أنتقم لكنت بدأت بالانتقام لنفسي، وقمتُ بجردة حساب طويلة مع الزمان لأصفّي حقوقي، ولكن... فكرة أخرى عصفت في مخيّلتي، وأرعبتني، وهي أن أحداً قد يمرّ ويظنّني قاتله، الأدلّة جاهزة، رشّاش، وأنا حيّ موجود دون أي لبس أو غموض في ساحة الجريمة، ولكن من ذا الذي يمرّ هنا، سوى أشباه هؤلاء الملتحين القتلة؟ لا أدري. لقد أرعبتني الفكرة، وبدأت أستعدّ لأجوبة تبرّئ ساحتي، كأن أروي لهم بالتحديد ماذا حصل، وأدلّهم على آثار عجلات السيارة، على آثار خطوات الجناة، ولكن، إنْ سألني أحدهم، المفترض طبعاً، لماذا لم يقتلوني أيضاً؟ فبمَ أجيب؟ فعلاً هو سؤال محيِّر، لماذا لم يقتلوني؟ كان بإمكانهم أن لا

يقتلوا هذا الرجل أيضاً، إذا كانت غايتهم فقط هي السرقة، مال وسيارة، وما حجّتهم بتكفيره سوى ذريعة للسطو المقنّع بحجّة إلهية، وبدافع تبريري، ربما هم صدّقوا أنهم مكلّفون تأديب الكافرين وقتلهم.

ربما تقمّصوا هذه الأدوار ودخلوا في غير شخصياتهم الرثّة المهترئة، ولعبوا لعبتهم على أتمّ وجه، ومضوا إلى المجهول... وأنا؟ لماذا لم يطلقوا عليّ ويريحوني، ما داموا قد دخلوا في لعبة القتل، ما دامت أيديهم تعوّدت، وتمرّست على ضغط الزناد والتصويب نحو الهدف؟ لماذا؟ ربما أيضاً لأنهم وجدوا أني لا أستحقّ ذلك، أو أني بريء وليس من حجّة تصمني بالكفر، أو الخروج عما يجدونه الصحّ؟ ترعبني فكرة الصحّ والخطأ، ليس خوفاً من العقاب الذي يدبّره حامل المعيارين الصحّ والخطأ، بل لكونها تحوّل البشر إلى قطعان ومذنبين. على كل حال، لا أعرف بالتحديد لماذا عافوني، وليتهم لم يفعلوا، لا أعرف، سأجيب أني لا أعرف... إذا مرّ أحد وطرح عليّ هذه الأسئلة.

لا أعرف شيئاً.

كانت هذه التوقّعات وهذا السيناريو أشياء تتشابك في مخيّلتي، وأنا في غمرة التأمّل في الركام الإنساني الذي أمامي، حطام بشري، أمام نظري، وأنا الشاهد الوحيد، في محكمة الزمان... أيّ محكمة هذه يا عبد الجليل؟ من زمان لم أسمع اسمي الحقيقي بهذا الوضوح. يا عبد الجليل. ولكن بدوت أني غير مستأنس بتركيبته، لم يُعجبني، لم

يعجبني اسمي هذا. لا أحبّ أن أكون عبداً لأيّ شيء إلاّ للهوى الذي رماني من زمان...

تجاهلت الأمر.

المهمّ.

تخلّصت قليلاً من أثقال هذه الأفكار، وهذا الوضوح الدموي، وتذكّرت «فرند»، صاحبي. جلت في الجهات وفي الأفق البرتقالي، لا أثر له، ترى أين هو الآن؟ ماذا يفعل؟ هل تُسْعِفه غريزته وحاسة الشمّ على اللحاق بي؟ أيضاً لا أدري. لا أدري شيئاً، ربما نعم، ربما لا، وربما ضلّ طريقه، أو أن هؤلاء القتلة، عادوا إليه أو مرّوا به وتمرّنوا به، هدفاً آخر في لعبتهم.

لا أعلم.

ماذا عساني أفعل بهذا القتيل؟ خطر لي أن أبحث في جيوبه، لعلّي أجد شيئاً، يفتح أمامي بعض احتمال، أو يثير فكرة ما تجعلني أتدبّر أمره. قلت لعلّي أعثر على وثيقة ما، أو هويّة، أو ورقة تدلّ على اسمه ومصدره ومطرح سكنه، ثم افتكرت في جدواها، لو توفّرت فعلاً وعثرت عليها، فما نفعها إذا كان اسمه مثلاً حامد المقدسي، من مواليد مدينة الناصرة، سكن واحداً من مخيمات دمشق أو بيروت، أو أنه يعمل في بغداد، وقد جاءها مع والده في بداية السبعينيات، أو أنه يقيم في حيّ الحمراء في بيروت أو في واحدة من حارات القاهرة، أو أنه كان عميلاً للموساد، أو جاسوساً للاستخبارات المصرية في إسرائيل، أو ثائراً انتمى إلى منظمة

التحرير، أو شيوعياً غيّب المادية التاريخية، عن ظهر قلب؟ ما نفع كلّ ذلك؟ ماذا يضيف إلى ما هو عليه الآن؟ هل ينجيه من موته ويعيده إلى مزاولة الحياة؟

على كل حال، لم أجد فيه أكثر من كونه غريباً مثلي، والغرباء غرباء حتى لو كانوا في أوطانهم وبين أهلهم. وهذا أنا، أعرف أني عبد الجليل الغزال من مواليد وادي الدموع، سكنت تلّة سليمان في شمال لبنان، بعد هجرة أهلي ومقتل أخي، أتيت بيروت، وأحببت هدى، وتُيِّمتُ بمريم في سنوات الرعي، وهاجرت إلى قبرص مع قوافل المقاتلين الفلسطينيين، ولم أكن مرة مقاتلاً، لكن غادرت معهم كغريب. هذا أنا لا أملك أيّ وثيقة تعرّف بي وبأهلي وبمصدري. أنا الوحيد الذي يعرف من أنا، يعرف كم مرّ عليّ في السجن، بعد اختطافي من بيروت من حضن التي كانت ستصبح زوجتي، ويعرف وجوه الجلادين والسجّانين ويحفظ وجوه المساجين كما يحفظ شجرة السدر التي ظلّلت يومي الأول في المتاهة، ويحفظ الكثير من الشعر الجاهلي وشعر الصعاليك والمتنبّي، ومتوحدٌ، وحزينٌ، وخرى وطز، وطز، وما نفع كل هذه المعلومات الخرائية؟

ماذا سينفع لو عرفت تماماً من سيكون، أو من كان هذا القتيل؟ لأنّ الذي سيكونه صار، صار قتيلاً في طريقه إلى التراب، إن عثرت على ملمح له أو لم أعثر، هو الآن إلى التراب، إذا دفنته أو تركته تحت سماء الله عرضة للوحوش الضالة والكواسر...

هو تراب إلى تراب...

وتذكّرت تلك القصيدة التي تقول:

ها الدني ورشة

وترابها كمشة

في تراب بعدو تراب

وفي تراب عم يمشي

ولكن كل هذه الأفكار لم تمنعني من البحث في جيوبه، فوجدت محفظة نقود صغيرة، لا نقود فيها، عثرت في واحدة من طيّاتها، على ثلاث صور، واحدة لطفل في حدود العاشرة من عمره، حنطي تزين خدّه شامة، شعره داكن السواد، وعيناه مذبوحتان على سواد عميق وبريق، ابتسامة توحي بالخجل والدهشة. لا أعرف اسمه، ليس من اسم على خلفية الصورة التي عليها دمغة الاستديو: «عين الظلّ» شارع بلقيس... لا اسم للمدينة. لم يمرّ ببالي هذا الشارع، ولم أمرّ به. صورة أخرى لطفلة، أصغر قليلاً، شديدة السمرة، تضحك وقد بانت أسنانها الحليبية التي خسرت اثنتين منها في المقدّمة. صورة ثالثة لامرأة تضع على رأسها شالاً بنفسجياً، تركت خصلات بنّية من شعرها تنسحب فوق جبينها نحو الحاجب بتأنٍّ، واسعة العينين، بريقهما خافت قليلاً، شفتها السفلى مكتنزة، وخدّها مزيّن أيضاً بشامة. صورة رابعة لشاب في العشرين، أسمر، شعره أشقر، متوسّط حجم أنفه، جميل ساخر في الملامح... لا أعرف هل هي صورة القتيل أم صورة أخ له، رجّح يقيني

المأسوي أنها صورة أخيه الذي قتل، أو خطف وفقد... وافتكرت أن لكل منا في هذه الناحية من العالم أخاً خطف، أو قتل، أو سجن...

قلّبت الصور لأقرأ شيئاً على ظهرها، لا شيء، بياض، بياض يتوسّطه عنوان المصوّر: عين الظلّ، شارع الستّ بلقيس، ربما هذا الشارع يكون في بغداد أو دمشق أو اليمن، أو القاهرة، أو بيروت، أو المغرب... وفكّرت أن بالإمكان معرفة المدينة لو تقصّى المرء عن أسماء الشوارع في المدن.

على كل حال، حفظت اسم الشارع، ليس من باب الاحتياط، بل لكثافة وضوح ما حصل لي واستقراره في ذاكرتي التي هي على كل حال مرشّحة للنسيان، مرشّحة دائماً.

أعدت التفكير في هذه الصور، ربما تكون صور العائلة التي أصبحت منذ الآن، لا سند لها، وبدون ربّ يرعاها، غداً أو بعد أيام سيعرفون أنه فقد، ربما هؤلاء القتلة سيعلنون أنهم نفّذوا به حكم الله كما يقولون دائماً. ولكن عندما يطالب أهل الضحية بالجثّة هل يعودون؟ وهل يعثرون عليها في هذا الخلاء المتمادي؟

لا أدري...

سيعتاد الأهل، سيعتاد الصبي أبو الشامة، والبنت السمراء والأمّ المكتنزة الشفة، سيعتادون جميعاً فقدانه، وسوف يبحثون على أمل بعودته. سيتعادل الفقدان والأمل في أيام العائلة، وهي تصرف أوقاتها على شيء من التوقّع والانتظار. سيكبر الصبيّ وتبقى في باله صورة

الأب المغادر الذي لم يعد، كذلك البنت، ستحلم به في ليالي الوحشة والضيق والخوف. أمّا الأمّ فسيبقى كالوشم في قلبها، حرقة دائمة، جمراً دائم الاشتعال في القلب، ستذبل وهي تنتظر أن يعود، ستذبل، وتبيضّ خصلات شعرها فوق جبينها القمحي، ستنهدل شفتها على ذهول أكبر، ويضمر الشغف، ويغور الحنين في الأحشاء... ستعالج كلّ ذلك بالتنهّد. والإحالة على الله أن يردّه من غيابه، ولكن... لا أحد يعود يا سيّدتي... يا ليتني أعلم أين أنت كي أجيء لأخبرك.

لا أعرف لماذا شعرت بشيء ما تجاه صورتها، شعرت كأننا إذا تلاقينا، فسيحدث بيننا شيء ما. سأنظر إليها بطرف عيني، وهي تمسح دموعها بعد أن أكون قد أخبرتها، ربما أكون بجانبها وأغمرها كي أخفّف عنها وطأة الحزن والفجيعة، وأشعر أن نبضات قلبي تسارعت، وعبق نفسها الساخن في عنقي، وابتللت بدمعها... رأيتني أشتهي ذلك وأثارني.

تأمّلت في الصورة ثانيةً، في شفتها المكتنزة، المقلوبة قليلاً، وفي نظرتها الشهوانيّة. لا أعرف أهي شهوانية أم أنا أراها على هذا النحو، في حلكة الأسود في عينين متماديتين في الاتّساع، وتخيّلت عندما أعبر شارع الستّ بلقيس وأصل إلى استديو «عين الظلّ»، سأخرج هذه الصور وأعرضها على الرجل الذي سيكون هناك، وأسأله: هل تعرف هؤلاء؟ يجيبني نعم، هذه زوجة حامد المقدسي، وهذه ابنتها دلال، وهذا عامر.

هل تعرف بيتهم؟

نهاية الشارع على جهة اليمين، مقابل سوبرماركت الهنا، الطابق الثالث، شمال المصعد.

تابعت لعبتي، تابعت سيري في شارع بلقيس، أحمل نبأً مأسوياً لعائلة لم أعرفها قبلاً. أعرف القتيل، تعرّفت إليه لحظة قتله، لم أتمكّن ولو للحظة واحدة من سؤاله أو من تبادل بعض الكلام، تابعت سيري، لم أحمل أية نيّات أخرى، لم أخطّط لأيّة حادثة، لأيّ غرض، فقط، أحمل نبأ مقتل حامد. لم يكن في شارع بلقيس الكثير من الأشياء المبهجة، شارع مهمل، متروك ووسخ، صبية حفاة يلعبون على الرصيف، وسيارات أجرة جرداء اللون تطلق الدخان القاتل من عوادمها، وعربات تجرّها خيول ضامرة، ووجوه تعبة وسئمة أمام الدكاكين، تنظر إليّ بريب. الأولاد الذين كنت أمرّ بهم كانوا ينادون بعضهم بعضاً، تعالو شوفو، هذا، وهذا هو أنا. كانوا يتفرّجون عليّ وأنا أعرج قاصداً بيت حامد المقدسي.

يشبه إبليس، قال أحدهم، خرج صوته من الدكان، لا... حرام، يبدو أنه عابر سبيل على باب الله... صوت أكثر رحمة ووقاراً، صحّح تقديرات جاره. ولد صاح: تعالو شوفو أنشتاين، فرحت بهذا التشبيه، يبدو أن شعري المنعوف أوحى لهم بذلك، ولكن ليس هنالك شبه بيني وبين أنشتاين، حتى منسوب الذكاء شديد الاختلاف، حبّذا لو كنته. هكذا صرت فرجة في شارع الستّ بلقيس، صبية مشوا ورائي وراحوا

ينشدون يا هلا، يا مرحبا، بالمبصراتي، وضربوا على التنك. واحد من الشبان يبدو خصب الخيال سمّاني سعيد أبو النحس المتشائل، فرحت به أيضاً لأنه يبدو أنه مثقّف وأنه قرأ الروائي إميل حبيبي. لم أعلّق على ما سمعت، لكن سررت بأني موضع فرجة، فرجة تستدعي في الواقع الشفقة ولا التهكّم، فرحت بمنسوب التهكّم، يبدو أن الناس خيالهم ضحل ومحدود، جعلهم يتسلّون بي، وقبلت.

صعدت الطابق الثالث، طرقت الباب. جاءني صوت امرأة: مين؟

ـ أنا عبد الجليل.

ـ مين عبد الجليل؟ عبد الجليل الكندرجي؟

(استفسرت)

ـ لأ، الغزال...

ـ يعني مش بتوع الصرامي؟ (استفسرت أكثر)

يبدو أن المرأة التي في الداخل على شيء آخر، يختلف عن توقّعاتي...

ـ شو بتريد؟

ـ أنا حامل رسالة خبر لزوجة حامد؟

ـ هذا مش بيت حامد المقدسي.

ـ مين حامد يا ابني؟

وللتوّ تذكّرت أن هذا الاسم أنا الذي أطلقته على القتيل، وصحّحت فوراً... قصدي عندي خبر من صاحب البيت.

فصرخت من الداخل يا دلّي يا سارة... يا ابني، يا ضناي... فتحت الباب، كانت أمّه، وبلهفة عالية، أنت تعرف ابني، طمنّي، وينو، ليش طوّل، هو بخير قللي، دخيلك، ما به شيء ما صرلو شي... هو بخير دخيلك قللي؟ أجبتها، ولمرات عديدة، هو بخير، وبسلّم عليك. وسألتها عن زوجته، نادتها، سارة، سارة. جاءت سارة، هي التي في الصورة، لكن على شيء أكثر وضوحاً وجمالاً جعله الحزن ذابلاً بعض الشيء. و... دخلت معها إلى غرفة داخلية، أخبرتها... فناحت، وارتمت على كنبة تتسع لشخصين، تقدّمت منها، ضممتها بين ذراعَيّ، قبّلت جبينها، هدّأتها قليلاً، مالت برأسها إلى كتفي، تسرّب دمعها إلى عنقي، لذعني، شممت رائحة شهوة عتيقة تفوح من نفسها المحترق. عدت وضممتها أكثر، جعلت خدّها على خدّي وقتاً طويلاً، لا تبكي، كي لا تسمع أمّه. نادت الأمّ، يبدو أنها سمعت نواح سارة.

سارة ما بك؟ أجابتها بصوت متهدّج، لا شيء، جايبلي أغراض... باعتلنا أغراض. ثم قالت لي هي لا ترى. الحاجة ضريرة. يا إلهي شعرت بشيء من الارتياح، لا أعرف مصدره، ارتحت عندما علمت أن أمّه لا ترى، ولكن كيف لم ترَ واستقبلتني كأنها رأتني. هي العادة، نعم، يتعوّد الإنسان كلّ شيء حتى العتمة. كثيراً ما كنت أعرف الجهات وأنا في عتمة حالكة في الزنزانة، وفي غرف التعذيب الملطّخة جدرانها بالدماء. ارتحت، ضممت سارة أكثر وقبّلت خدّها.. نظرت في عينَيّ،

مستجديةً أن أحملها إليه. يا إلهي هي في شعور وأنا في شعور آخر، شعرتُ بالخزي، وقلت لها لكن المكان بعيد، هل تأتين معي؟ قالت نعم.

ومشينا...

* * *

عُدت من تخيّلاتي، وهلوساتي، وجنوني هذا، عُدت إلى حضيضي، إلى هذا الحطام الإنساني الذي أمامي، إلى القتيل، وافتكرت لماذا جعلتني صورة الزوجة أذهب إلى تلك المطارح؟ هل هو الشوق لامرأة أم هذه الصورة أرجعتني إلى سنواتي الأولى في حضن أم مريم عارية، ذُبت في بياضها وبخار الماء...؟ أم إلى هدى؟ أم إلى مريم؟

دائماً، لا أعرف، أرجّح في تحليلي، غير متأكّد من صحّته، وفي الأصل لست متأكّداً من شيء، حتى وجودي يلتبس عليّ، وكثيراً ما حصل والتبس عليّ وخلتني مناماً في صبح امرأة أو شخصاً آخر أروي عنه. كثيراً، كثيراً ما تبعثرت، وعدت لملمت نفسي لأضعها في سياقها الآدمي الواقعي، مرة أنجح ومرة أفشل، ومراراً أشكّ في هذا العبور المضني.

على كل حال.

ماذا أفعل؟

ماذا يفعل ميت بميت، قتيل بقتيل، كلانا قتيل، أيّها الغريب،

كلانا قتيل أيّها الغريب، قلتها بصوت عال وأكيد، أنا متأكّد أن كلينا غريب وضحية. هل أتركه وأمشي؟ أواصل عرجي إلى أن أقضي تعباً أو عطشاً أو جوعاً أو قتلاً، لماذا هؤلاء الأوغاد لم يطلقوا رصاصهم عليّ أيضاً؟ لماذا هذا الاستثناء الموحش؟ لماذا لم يصوّبوا على رأسي مباشرة ليخلصوني من هذا البلاء اللعين؟ ربما هم أرادوا أن يبقوني حيّاً، في مثل هذه الحال، لأنهم يعلمون أن في ذلك عذاباً أشدّ فتكاً من أيّ عذاب أو تعذيب أو سحل أو قتل بطيء...لا بدّ أنهم يعرفون أنّ هذا النوع من الحياة، هو موت من النوع الذي لا موت فيه، هو تفرّج أليم على الموت، على الجريمة، لا أعلم، لا أعلم، لماذا فعلوا وغادروا وتركوني حيّاً أمام جثّة؟ لو فعلوا، أو لو أن أحدهم أصابني عن طريق الخطأ، لكان أراحني من هذا الخراب، ولنجوت من هذه الفخاخ والمصائد التي أُدفع إليها. من يدفعني إليها؟ من هو الذي يدفعني إلى هذا؟ صرخت: ليش يا أولاد القحبة تركتوني يا أنذال، جُبناء... جُبناء... جُبناء... جب... ناء. ضاقت الدنيا عليّ، شعرت أني سأختنق، حملت مطرتي وشربت ماءً يشبه البول. لكني بحاجة لشيء يفكّ هذا الجفاف، يرطّبه، وافتكرت ثانيةً، لماذا تركني هؤلاء حيّاً؟ هل ظنّوا أني متُّ، عندما سقطتُّ أرضاً، أو أني أحتضر وسأموت عاجلاً أو أجلاً، فالذي على مثل حالي، لا يعوّل على نجاته، أم هم كما قدّرت سابقاً، ما زالوا أغراراً في لعبة القتل، وارتبكوا حين سقط الرشّاش من يدي وسقطتُّ أرضاً، أم هم أذكياء متمرّسون يعلمون

كيف يقتصّون ويعذّبون؟ ولكن ما الذي فعلته لهم، أو ضدّهم، حتى يمارسوا هذا النوع المروّع من التعذيب؟ حتى أفكاري وأسئلتي وآرائي ويقينياتي لا يعلمون في شأنها شيئاً، لا يعرفون عني سوى ما قلته لهم، سوى ما كذبته عليهم، ولا أدري أصدقوني أم أوهموني بذلك؟ لا أدري...

على كل حال...

على كل حال، سحناتهم والهيئات التي هم عليها وسلوكهم، أشياء كلها لا تدلّ على مراس أو فطنة أو تدبير أو حنكة أو ذكاء في حسم الأمور، لا، لا... ليس فيهم شيء من كل هذا، أما علامات الورع الديني المبكر الذين تمثّلوه أو تخفّوا به، فلا تضيف، ولا تنقص شيئاً مما قدّرته في منسوب غباوتهم المفرطة.

هم حقّاً أغبياء، وأغبياء كثيراً إلى حدّ الشفقة، وإلا فما كانوا اقتادوني على هذا الشكل المرتبك والارتجالي، الفاقد أدنى شروط الاحتراف... أغرار، وتافهون... كس أختهم...

ولكن.

ولكن عبورهم وحضورهم المباغت في عزلتي، أو متاهتي، جعلني أفكّر في ما صارت عليه الدنيا في غيابي. مقابر جماعية، أول عنوان قرأته بعد سنين، وفي صحيفة لم أتبيّن تاريخها كانت بحوزتهم، عصابات تغتال الشعراء... لم أخف على نفسي بوصفي شاعراً، لا أحد يعرف في الكون أني شاعر سوى قلّة من صحبة زمن بيروت وقبرص،

منهم مات ربما، ومنهم لا أعرف عنه شيئاً، ولا أعلم أيعرف بعضهم ما حلّ بي.

أول نبأ أقرأه عن العالم الذي استمرّ في غيابي، هو أسود أدكن عن مقبرة جماعية، وجنازات لانفجار في بيروت، وآخر في الجزائر، وجماعات أخرى تبقر بطون الحبالى، وحزن يعمّ العراق... و... و«تمتع بقيادة أكثر أناقة مع دفع رباعي، قاهرة الصحراء»... إعلان عن تلك السيارة التي اختُطِفت بها اليوم، لغاية واضحة، وهي أن أقتل إنساناً لا أعرفه والمكافأة هي دخول الجنّة؟ ها... ها...ها... شهقت ضحكاً، علقت الهاء على قبّة حرف الله... وتدحرجت إلى حلقي فصحت عالياً، بلغ صوتي السماء.

ها... ها... ها... دخلت في الحال... هي تلك التي أعلمها، هي على البرزخ الفاصل بين الوعي والجنون، بين الإدراك والجهل التامّ، بين الصوت والصمت، بين الظلّ، العتمة والضوء، بين الجمر والرماد... صرت هناك، نعم صرت هناك تتدافعني شهوة الغياب الكلّي، المطلق، الانصهار النهائي بالعدم، بالسكون، والصمت والليل والفراغ... هناك، أنا هناك على الخيط الأرفع من حدّ السكّين، أتأرجح بين الحضور والغياب...

ارتجّ الزمان...

سقطتُ...

* * *

صحوتُ...

فطنتُ.

رأيته مجدّداً. رأيت القتيل، دار بي رأسي مجدّداً، صرت ألتفت إلى الجهات دون سبب واضح، وإنْ كنت أقدّر الآن أني كنت أبحث عن حلّ لمشكلتي، عن مخرج من هذا الفخّ الذي علقت به. بوضوح آراه الآن، كيف يمكن أن أتخلّص من هذه الضحية؟ وكأن القتيل صار قتيلي، كأني صرت القاتل، وعليّ إخفاء الجثّة ومعالم الشبهة!

صار القتيل قتيلي؟

عجيب كيف تصبح الأشياء والحادثات، المفرحة منها أو المؤلمة في لحظة ما، تخصّك مباشرة، كأنك فاعل فيها أو مدبّرها. هكذا تصبح دون تخطيط أو تحضير.

القتيل قتيلي! ماذا عساني أفعل به؟ أتركه وأمضي في سبيلي؟ أحمله وأمشي؟ وكيف أحمله وأنا تعب حتى من جسدي، من عكّازي وزادي، لا أقوى على رفع خرقة من الأرض؟ كيف؟

فجأة تخيّلت أن هؤلاء القتلة الرعاع أبناء السابلة، عادوا وأجبروني على حمله. تخيّلت ذلك، وشتمت مخيّلتي اللعينة. من أين تأتي هذه الأفكار؟ لكني تخيّلت، وتملّكتني هذه الفكرة، جاؤوا وأجبروني أن أحمله، وفعلت، رفعته، أو حاولت، فسقطتُّ فوقه، كرّرت المحاولة، وطلبت عوناً من الغيب، فسقطتُّ ثانيةً، عاودت الكرة ثالثةً، خفّ قليلاً بين يدَيّ، رفعته... رفعته أكثر، طلبت منهم أن يعينوني كي أضعه

على ظهري، ففعلوا، ورحت أمشي به، أمشي وساقاي ترتجفان، إذ إن واحدة منهما لا نفع بها، صرت أجرّها وأجرّ نفسي وأسقط به، أعاود الوقوف، وأعاود حمله على ظهري، ويعينونني دائماً على تثبيته فوق نحولي، وهم في غمرة من المتعة الغامضة، وأسألهم: إلى أين أسير به؟ فلا يجيبون، كنت أسير فقط في خطّ مستقيم ونحو جهة مجهولة، أسقط وأنهض، أسقط وأنهض ويعيدونه إلى ظهري، كان دمه ما زال طريّاً ينزف آخر قطراته على أسمالي، راسماً خطّاً على الرمل سيتحوّل إلى واد ينبت على ضفافه نبت وشجر قاني اللون كما حكاية جدّتي.

كانت رائحته تذكّرني برائحة الجريمة أو رائحة الضحيّة، أشمّها وأعرفها، هي رائحة، ينبغي التمرّس عليها... ينبغي أن يتعوّدها المرء في مطرح ما من هذا العالم، كالسجن مثلاً أو ساحات الإعدام، حتى يألفها ويستطيع أن يميّزها. أنا بمرور الوقت صرت أشمّ رائحة الجرائم التي تُرتكب، حتى على بعد أميال من مقرّ إقامتي في السجن الصحراوي، وكنت أقول لصحبتي، لرفاق السجن، إنهم قتلوا فلاناً الآن هناك خلف السراب، أو في غابة النخيل التي اجتُثَّت ذات يوم على بكرة أبيها.

حاولت طرد هذه الفكرة من خيالي، أنظر إليه مرةً، ومرةً إلى البندقية المرمية قربي بوضوح صارخ، مستلقية بحياد، بعد أداء فعل القتل بإتقان عال، أتيت بها، حملتها، قلّبتها بين يدَيّ، تأمّلت في أقسامها، شممت رائحة الفوهة، حيث ما زالت تفوح رائحة البارود. هي

رشّاش كلاشنكوف، أعرفه جيّداً، كنت قد تدرّبت على فكّه وتركيبه يوم التحقت بالثورة، في سبعينيات القرن العشرين. كنا شلّة أتت من الأرياف والأصقاع البعيدة، والتحقت بالفصائل الفلسطينية لتحرير فلسطين. لا أدري ماذا حلّ بعد ذلك بفلسطين، أرجّح أن الوضع هو أسوأ مما كان عليه في تلك الأيام. تذكّرت ما قرأته قبل قليل في الجريدة عن تعثّر في المفاوضات. لم أعد مهتمّاً بأيّ شيء، ليس الآن وحسب، بل منذ وقت طويل، منذ بدايات الحرب الأهلية في بيروت، منذ ذلك الحين دخلت في مدار خاص، في مدار نفسي ورفضت كل ما يجري حولي، واتّهموني يومها بالجبن والردّة والخذلان والانحراف عن الخطّ الثوريّ، ووصلت معهم إلى أن اتّهموني بالعمالة لإسرائيل، لأني قلت إنها ديموقراطية أكثر من أحزابنا الثوريّة، ومن الأنظمة التي أطعمت الناس خرى بدل الخبز. كلام قديم لا نفع منه، جاءني الآن وأنا أتمعّن في هذه الآلة التي أسهمت في خراب هذا الكوكب وقتل ملايين الناس... كنت قد تدرّبت عليها فكّاً وتركيباً في الجرود اللبنانية، وكنت غرّاً، لكني لم أستخدمها على الإطلاق، إلاّ حين كنا نصوّب على أهداف، كمثل قنينة أو رسم على كرتونة، أو ما شابه ذلك، وكنت أفشل في الإصابة دائماً ويسخر مني المدرّب ويتّهمني بأني أحْوَل، وضعيف الشخصية، لأني كنت أرتجف حينما يأتي دوري في التهديف. لم أحبّ هذه المعادن القاتلة يوماً، كنت أكره السلاح والمسلّحين، أقرف من المسلحين الذين يغزون شوارع بيروت، ويطلقون قهقاتهم ليلاً،

وهم يسطون على بعض المحالّ في وادي أبو جميل حيث كنت أقيم مع هدى.

نعم كنت أرتجف حين أحمل الرشّاش وأصوّب على هدف، إذ إني أتخيّل أني أصوّب على إنسان، كانت القنينة تصبح طفلاً، يبتسم لي حقّاً، هكذا كان يتراءى لي، قنينة فارغة لمشروبات غازية، كلما هدّفت وأغمضت عيني اليسرى، تحرّكت القنينة، وأصبحت طفلاً، فأرتجف وأطلق في الهواء، ويضحك المدرّب، كان لا يعرف لماذا أطلق في الفراغ. كان اسمه قاسم أو شيئاً من هذا، قاسم أبو سمرة. قُتل أبو سمرة في جبال عينطورة ولا أدري أكان يعرف أن فيروز غنّت لتلك الجبال، هلّا، هلّا يا جبال عينطورة، أي: الله الله يا جبال عينطورة. ولم أقل له مرة إني أرى الأشياء التي نصوّب عليها بشراً يتحرّكون. كنت أخاف من أن يتّهموني بالجنون الذي هدّدت به مرات، لأني كنت أختلي بنفسي وأقرأ قصائدي بصوتٍ عالٍ، أو أؤلف وأدندن بعضها كي أحفظها. كانوا يقدّرون فيّ موهبتي الشعرية، لكنّهم يفضّلونني أكثر تماسكاً وحدّة ثوريّة وتبصّراً في مسألة الصراع بكل أنواعه، وأنا... وأنا يبدو أني كنت منذ زمن مريم في غير حال... لكن، لا أعرف سرّ الغصّة والحنين حتى إلى تلك الأيام.

ما زال الرشّاش في يدي، أو بين يدَيّ، أتمعّنه، وأتذكّر تلك الأيام، حلوّها ومرّها، ومرّها أرجح بكثير، ثانية قرّبته من أنفي وشممت رائحته. كعادتي، أحبّ أن أشمّ رائحة الأشياء، سحبت أقسامه مثلما

كنا نفعل، وجدته محشواً، فرّت رصاصة، ولُقمّت أخرى مكانها في بيت النار، مرعب هذا الصوت، طقطقة الحديد، اصطكاك المعدن، يوحي مباشرة بالتوتّر، وبأن شيئاً مأسوياً سوف يحدث، دوي طلقات سيلعلع يتبعه صراخ، وأنين، ثم صمت... صمت طويل، تقطعه خطوات فلول لمرتكبي الجريمة. هكذا يوحي هذا الصوت المعدني، عندما تسحب أقسام الرشاش، ويصطك الحديد. أنا على المستوى الشخصي يرعبني هذا الصوت، أشعر فوراً أني دخلت في مدار نفسي عميقاً وحزيناً، أرعبني هذا الصوت الآن، فعلاً، فارتعشت، وكدت أرمي الرشّاش أرضاً، ولكني فطنت أني وحدي، وأني في مأزق، وأن قتيلاً صار في عهدتي. فككت مخزن الذخيرة الذي يسمّونه المشط، أتيت بالرصاصة التي فرّت، وأرجعتها إلى مطرحها، أعدت تركيبه، صوّبت مثلما كنت أفعل، صوّبت في الفراغ، وضعت كعب الرشّاش على كتفي اليمنى، غمزت بعيني اليسرى كما يفترض أن يفعل الرامي، وصوّبت نحو الفراغ، للصدفة كانت تهديفي صوب الغرب، بان عليّ قرص الشمس برتقالياً، تحزّه بضعة خيوط من الغيوم، وعلى الأفق يعبر كالعادة سرب من الطير... جثوت على ركبتي السليمة، وصوّبت إلى جهة أخرى، صعقت، رأيت أبي، أزحت الرشّاش بسرعة عن كتفي وأمعنت النظر، لا أحد... أعدته إلى كتفي وصوّبت أيضاً، بانَ والدي بالخرقة البيضاء التي تلفّ جبينه، تتوسّطها بقعة حمراء، أبقيت الرشّاش على كتفي، وفتحت عيني اليسرى، اختفى، وأغمضتها ثانيةً، عاد

وتراءى لي يتقدّم نحوي، رافعاً يديه إلى أعلى مبتسماً، كأنه يتواطأ مع لعبتي هذه. في الحقيقة لم أخف من هذه الرؤية، أدركت أنه نوع من التخيّل الملحّ، في استحضار صورة والدي القتيل.

عُدت وصرت أتأمّل مرة في الرشّاش ومرة في القتيل المكوّم قربي. كان شعوري في منطقة رمادية في تلك اللحظات. ما أقوم به، يبدو أني أقوم به تلقائياً، دون تخطيط. أظنّ ذلك نوعاً من الارتباكات التي تسبق القيام بتدبير ما، تردّد يتموّه بأفعال لا معنى لها، هي مجانية ولا غاية منها على الإطلاق، كأن أمراً ما يأتي من خارج وعيي وبدني، يجعلني أقوم بمثل هذه الرعونة كمسألة التصويب على المجهول. ماذا كنت أمتحن حين صوّبت بهذه الآلة اللعينة وتراءى لي والدي؟ فعلاً ماذا كنت أمتحن؟ قدرتي على التهديف؟ وأنا كما أعرف نفسي، أخاف قتل عصفور، أم أن هذه البندقية فرضت عليّ هذا النوع من السلوك والتمارين السخيفة؟ تأمّلتها ثانيةً، عدت وشممت رائحتها، وزنتُ ثقلها في يمناي، عبرني خيط واهٍ من الاعتزاز، ابتسمت لنفسي، خيط نحيل عابر من التصعيد النفسي، قلت لحالي: أنت يا بني آدم؟ ولوّحت برأسي، كأني أطرد الفكرة، وتبدو لي الفكرة التي أريد طردها دائماً، أقرب إلى ذبابة تحطّ، لكنْ داخل رأسي لا عليه من الخارج، برغم ذلك، ألوّح بالرأس، أنفضه لأتخلّص منها، وأطردها بعيداً... تأمّلت فوهة البندقية مرة أخرى، وشممت أيضاً رائحتها، ما زال خيط من رائحة البارود ينسلّ منها، أحببت أن أعرف كم بقي من رصاصات

في المخزن، أي المشط، فككته، فرّغته من الرصاص، حبّة حبّة، طق، طق، طق... يعجبني صوت تفريغ المشط من الرصاص، قلت هذا الإعجاب ناتج من رغبة دفينة في تعطيل فعل القتل. أنا أحلّل هكذا، أحبّ أن أحلّل ما أفكّر فيه، فعقلي عقل مصاب بهذا النوع من الأداء، ليس بمقدوري أن أفعل شيئاً أو أرى شيئاً دون أن أحلّله.

على كل حال، أحبّ تخليص الرصاصات من المخزن والصوت الذي يحدثه ذلك، صوت انسحاب، تراجع، البعض يسمّيه الجبن، وهي أفعال توحي بنوع من السلام، البعض يسمّيه الجبن، وفقدان الشجاعة والمروءة والنخوة وما إلى ذلك من «ترانيم» إنشائية مفرطة في التدمير للوعي وفي التفاهة أيضاً... فرّغت المشط كاملاً، عشرين طلقة. أنا أعلم أنه يتّسع لثلاثين، إذاً لقد أطلقوا على هذا الرجل عشر طلقات، لم تكن كلّها صائبة، وربما أطلقوا من رشاشات أخرى، فكمية المقذوفات في ساحة الجريمة، أكثر من عشر، فقد ظلّوا يطلقون النار حتى وهم يغادرون في اللاند كروزر، أعني السيارة التي صرت أعرف نوعها من خلال الإعلان في الجريدة.

وضعت الرصاصات في حرجي، إذ إني كنت أجلس أرضاً متربّعاً قدر استطاعتي. عشرون رصاصة في حرجي، فكّرت أن أرميها، وأفكّك الرشّاش وأرمي قطعه، قطعة قطعة، بعيداً، أو أدفنها كلها في الرمل. خفت من هذه الفكرة، قد أبدو كأني أخفي معالم الجريمة وأداتها. إنْ أردت فعل شيء طبيعي، عليّ أن أدبّر أمر القتيل قبل حلول الليل...

حرت بأمر الرصاصات، حرت بالرشّاش، حرت بنفسي، تململت، عبرني تيّار من التوتّر، أعدت الرصاصات إلى المشط، كنت أعدّها وأنا أعيدها، صوت وضعها وضغطها في فتحة المخزن، حيث النبّاض الذي يرفع قطعة معدنية ملساء منحنية تسهل انزلاق الرصاصة، هذا الصوت يختلف عن صوت التفريغ، صوت يوحي بشيء من التدبير والاستعداد، تفوح منه رائحة نيّة ما من النيّات غير السليمة، صوت يوحي بالتخطيط، وبالتأكيد هو مرعب.

تشح، تشح تشل، تشح تشل، تقريباً هكذا نسمع ونحن نلقّم المشط، أو التعبئة بالرصاص، عبّأت العشرين رصاصة، ومع كل واحدة كان شيء ما يتصاعد في داخلي، ويتصاعد في نفسي، عندما انتهيت من التعبئة، لقّمت طلقة في بيت النار.

يا إلهي ما هذا الذي فعلته؟ وماذا يعني؟ لقّمت، طلقة، في، بيت النار!

عجيب...

سحبت الأقسام ولقّمتها، ارتجف بدني، وتعكّر مزاجي، صعد الدم إلى رأسي، تفاقم منسوب الاعتزاز بالنفس، تفاقم إحساسي بالقوّة، علماً أن هشاشتي تحتاج لدبّابة، بل لكتيبة دبّابات لتعوّض هذا السحق الذي أصابني، ولكن رغم ذلك تفاقم إحساسي بالاعتزاز وبالقوّة، وسألت ماذا عساني أفعل بهذا اللعين، أيّ حرب سأخوض به، بعشرين طلقة؟ ومع من؟ من هو عدوّي؟ من هو العدوّ الآن في هذا الفخّ القاتل؟ هل

من أحد سواي في هذا العالم الآن ، فقط أنا وقتيلي، حامد المقدسي، أعجبني هذا الاسم، إذ إني أحبّ القدس. بقي في داخلي من الزمن البعيد، ذلك الحبّ لتلك المدينة التي لا أعرفها إلاّ في الصور، هو عائد إلى مسألة التدريب، والشعور بأن القدس سُلبت، وما إلى ذلك، ربما لو كان الوضع يخصّ أم درمان مثلاً، لكان الشعور نفسه، على كل حال... ماذا أفعل بهذه اللعينة؟ وماذا أفعل بهذا القتيل؟

إنْ عاد هؤلاء الأوغاد فهل أستطيع أن أفرغ في صدورهم هذه الطلقات؟ أنتقم منهم، أثأر لهذا الركام البشري الذي بقربي، أثأر لكلبي، أثأر لكل تاريخي، ولوالدي، ولسنوات عمري التي نهبتها الزنازين. هل أستطيع أن أصوّب وأطلق عليهم أم أن يدي سترتجف مثلما كان يحدث لي أيام زمان، وأطلق في الهواء وأضحك على نفسي بدل قاسم أبو سمرة...

في الحقيقة لا أعرف. حقدي عليهم كبير، ولكن لا أدري أكان هذا الحقد سيحوّلني إلى قاتل بعدما كنت مشروع قتيل مدّة خمسين سنة؟ وتخيّلت نفسي قاتلاً: إذ إني تهيّأت لهذا الدور، وأملك الأداة الأكثر وضوحاً فيه، رشّاشاً وعشرين طلقة. هم خمسة، لم أذكر أخمسة كانوا أم ستة، تهيّأ لي، أنهم كانوا أكثر بكثير، عندما اختطفوني وتركوا كلبي يجري خلفنا حتى هدّه التعب. لا يهمّ كم عددهم، المهمّ هل أستطيع القتل؟ التصويب على بدن انسان تقع عيني على عينه، وأرى دهشته التي تسبق الموت؟ هل بإمكاني؟

في الواقع، بدل أن تزيدني تلك البندقية اللعينة بعض الصلابة، زادتني توتّراً وحيرةً وحذراً، وطرحت عليّ احتمالات لم تكن في حسباني. وضعتني في غير ما أنا فيه، على عكس عكّازتي التي يوم سوّيتها اشتدّت عزيمتي، وحين وزنتها براحة يدي، شعرت بقوة مضافة إلى عزيمتي، لأنها عوّضت عرجي، غايتها نبيلة وإنسانية، ماذا عوّضت عليّ هذه البندقية؟ يبدو أن مجرّد وجودها فعلُ خسارة، وليس فعل تعويض، والذي يتوهّم أن فيها قّوة معوّضة واهم، لأنّ غيره أيضاً لديه التقدير نفسه. أمّا عكّازي، فهو تعويض نبيل، خفّف حملي وعرجي، أهشّ به على ظلّي، إذا تمادى خيالي الشعري، وأرفع على رأسه خرقة بيضاء ألوّح بها للطير، أتكئ عليه في سعيي وأهشّ به على وحش إذا طاردني. وما نفعي في الأصل للوحش؟ لقد شبّهته بالاستعارة التي يعتمد عليها الكتّاب لتمتين نصوصهم، وهذا مديح نبيل لعكّازي، أحبّ عكّازي. وأكره الكلاشنكوف. أكره المعدن وصليله وكلّ الشعر الذي تبرق فيه السيوف أو يحرّض على الثورة، أو يتغنّى بالشهيد. أكره هذه البلاغة الصدئة، كس أخت البلاغة...

تصاعد مزاجي. هدّأته... اهدأ اهدأ يا عبد الجليل، فكِّر في حلّ مشرّف، لا أحبّ كلمة مشرّف. إذاً فكِّر في حلّ منطقي، في حلّ للقتيل، ادفنه على الأقلّ، ثم افعل ما تشاء. اهدأ يا أخي، لا وقت الآن إلاّ للتفكير في خطوات تليق بك كشريد، استسأنست بهذا الوصف، عليك أن تدفن القتيل قبل أن تشتمّ الوحوش رائحة الدم مع حلول الليل.

كنت لم أزل أحمل البندقية، ووجدت أن فوهتها تلاصق أسفل ذقني. كنت أحملها بهذا الشكل، دون وعي، أو خوف أن أضغط خطأً على الزناد وتخترق الرصاصة حلقي صعوداً نحو رأسي!

ولِمَ لا؟

عظيم. نعم عظيم، ليش ما بنتحر؟ لماذا لم أضغط الآن على الزناد وأنهي هذه المهزلة الطويلة؟

هل تركوها لي، لأنهم خطّطوا لنهاية كهذه؟ تركوها كي أستخدمها بالتأكيد، ولكن ضدّ من؟ تركوها لي كي أنتحر؟ لا. لا أظنّ، هم أقلّ ذكاءً من هذا، أقلّ ذكاءً من هذا التدبير الذي يستدعي تمرّساً ودقّة في رسم الخطط والمآزق التي تجعل المرء يقدم على فعل الانتحار. هي على الأرجح سقطت منهم، سقطت من أحدهم عندما تبلبلوا وهم يطلقون النار على هذا الغريب. يبدو أن الذي كان يحملها غرّ في عملية القتل، لا يعرف. وربما صوّب في الفراغ أو أنه أصاب أصحابه، لأنّ أحدهم صرخ آخ يا إجري، صبتني يا حمار، كأني سمعت هذا في جلبتهم وهم يطلقون النار، كنت على برزخ الغياب، لا. لا. لم يكونوا أذكياء ليجعلوني أقتل نفسي؟ على بعد أمتار مني، شاهدت قنينة ماء، هي أيضاً، على ما يبدو، سقطت منهم، كانت بيد أحدهم يريد أن يبلّل فمه الذي جفّ من الرعب. هم في الواقع أقلّ شأناً بكثير من كونهم محترفين، ما عدا كبيرهم، زعيمهم. كنت أتخيّل تلك اللحظات التي سبقت عملية إطلاق النار ورافقتها، ودائماً الرشّاش في موضعه، فوهته تحت ذقني

مباشرة، وإصبعي تتحسّس الزناد، بدأت أرتجف إذ إن الفكرة كأنها تصاعدت، صارت إصبعي معقوفة جيّداً على الزناد، أتحسس حديده البارد، وتخيّلت أني ضغطته واخترق الرصاص رأسي. وبهذا أكون وضعت نقطة في نهاية هذه السيرة، وتخيّلت نفسي، جسدي، مكوّماً قرب جسد هذا الغريب، عندها لا أحد يعلم من قتل من.

إنها مهزلة.

فعلاً مهزلة متعبة ومملّة. لماذا لم أضع حدّاً لهذا التوسّل في البقاء، وأسدل الستارة على نهاية أصنعها بنفسي؟ لماذا أنتظر أحداً يصنع لي نهايتي؟ أنا أجدر بأن أفعل ذلك. أقفل هذه الستارة على طول هذا العمر الذي لم أتمكّن ولو مرة، من أن أحقّق فيه ما خطّطت له، وربما لم أخطّط لشيء. على كل حال، لا تحتاج هذه النهاية إلّا إلى لمسات أخيرة، أو لمسة واحدة وأخيرة هي الضغط على هذا الحديد البارد بسبابة ترتجف، يستعملها المؤمنون للشهادة، فلتكن هي الشاهدة والقاتلة في آن واحد.

ولِمَ لا يا عبد الجليل؟ لِمَ لا؟ هيك... هيك أنت ميت، ناطر شو يا خرى؟ ناطر نسر جوعان يجي ينهش عضمك؟ شو ناطر... طز بهالدني، جبان بتحبّ الدني، صرت أنظر مرة إلى سبابتي المعكوفة على الزناد، ومرة إلى القتيل الذي بقربي. تمنّيت لو يستطيع أن يقول لي شيئاً، يا إلهي كم أنا ضعيف! أريد مؤازرة من قتيل! «عجب. على كل، يا ريت الموتى بيحكو، كان قللي شو حسّ شو شاف، شو تمنّى، شو

سمع، شو شمّ، شو فكّر، يا ريت! وبالتالي كان أسدى إلي نصيحة!».

نظرت في المدى اللامتناهي، بدأ النهار يعلن أفوله، أصبحت الشمس على تماسّ مع خطّ الأفق، تستعدّ للانزلاق هناك لتترك خلفها ظلّ الأرض يتكثّف تدريجاً لأسمّيه العتمة. صار ظلّي خلفي باهتاً وطويلاً. سرب من الطير يعبر، يحزّ قرص الشمس البرتقالي... سطر من الطير، قسمها نصفين، أنا في النصف المنزلق خلف الأرض.

تذكّرت أنه بعد قليل سيبدأ الليل. لذا عليّ أن أصرف خيالي، أن أعود إلى ما أنا فيه. وأعلم كما ذكرت أن الوحوش في الليل تجذبها رائحة الدم. إذاً لا بدّ من دفن هذا الغريب كي أبدّد حوافز الاستشعار لدى كائنات الليل الجائعة، لأعفي نفسي من عبء احتمال أن يأتي قطيع من الذئاب، وأكون شاهداً على تمزيق جثّة هذا الرجل، وربما على تمزيق جسدي إن تمادى في الافتراس، ثم تذكّرت أني أملك بندقية، صار عندي الآن بندقية، نشيد ثوريّ قديم، أدّى إلى أعنف الهزائم وإلى تشتيت ما بقي من البشر. أكره شتّى أصناف القصائد والأناشيد الثوريّة، رغم أني غنّيت يوماً مع الشيخ إمام، يا إسكندرية بحرك عجايب، وغيفارا مات، ويا فلسطينية، ورفعت شارات النصر على أعتى وأكثر الانكسارات عاراً، يا إلهي كم مرّ بي من أهوال.

المهمّ تذكّرت أنّ الذئاب إذا اشتمّت رائحة الدم ستتوافد، بالتأكيد لن أدعها تتناتشني أنا والقتيل، سأطلق عليها، بالتأكيد، سأطلق في الهواء لأني أكره القتل، وسيفرّ قطيع الذئاب أو يبقى يحوّم بعيداً، لكني

افتكرت في احتمال أن يسمع الطلقات عابرون، ويتقدّموا من ناحية الصوت، ليتقصّوا عن مصدره؟ ماذا عساني أقول لهم، سأعيد تأليف الحكايات والأسماء المستعارة والمهن؟ من أنا؟ ومن أكون؟ هذا أول سؤال سأواجهه، وأكره أن أجيب، أكثر من كرهي للسجن، ولذلك الحقير آمر السجن، الذي فجّ رأسي وكواني بسيخ النار.

بدأت الحفر، كنت قد بدأته منذ تذكّري البندقية التي بحوزتي، والتي ذكّرتني بذلك النشيد السخيف الذي تغنّت به الملايين. أكره الملايين. بدأت أحفر وودِدت لو أستطيع مواصلة الحفر حتى أنفذ إلى الجهة الأخرى من الأرض، أن أثقب هذا الكوكب وأدخل فيه عكّازي وأحمله على كتفي، وأمشي في الهواء. أخصب شيء عندي في حالات الشدّة هو الخيال. دائماً تراني أصنع عالماً افتراضياً أعيش فيه، وأولمُ لبشر لا أعرفهم، أقيم صداقات وقصص حبّ، وأقع في العشق حيناً، وحيناً آخر، في مصائد مدبّرة باحتراف عالٍ.

أتخيّل وأواصل الحفر، لا مانع من أن أتخيّل حتى لو قرّرت أن أصرف خيالي، أن أريحه، أن أؤجل أفكاري. لا مانع من هذه الأحلام والتهيّؤات، هي تسعف على بقائي. حفرت كثيراً، استخدمت عكّازي، وأحياناً فوهة البندقية، وأحياناً أصابعي. حفرت حتى أصبح الرمل رطباً، شديد التماسك، يستدعي معولاً أو ما شابه ذلك. خرجت من الحفرة، تأمّلتها، تأمّلت في حجم قتيلي، عُدت وهبطت إليها، تمدّدت، أردتها أطول مني كي تستوعب حجمه براحة، أردته

أن يتمدّد على طوله. جرّبتها، تمدّدت، رفعت يدي عالياً، أصبحت بموازاة الحافة، بموازاة الأرض، قلت هذا جيّد. عندما حاولت الخروج من الحفرة، تعثّرت وسقطت فيها من جديد سقوطاً أثار خوفي إذ شعرت أني لم أعد أتمكّن من الخروج منها، لكن سرعان ما تبدّد خوفي في المحاولة الثانية إذ نجحت في الصعود، وما تعثّري إلا من جرّاء تعطّل أداء ساقي، هي في الحقيقة ميتة، لا تصلح لشيء، لكنها ساقي... خرجت من الحفرة، سحبت قتيلي من يديه، وعلى مهل. كان ثقيلاً وأنا في الأصل همّتي واهنة وضعيفة، أسحب وألهث، وأطلب من الله أن يعينني، يا الله... ها... وأجرّ. ها... وأجرّ، كان ثقيلاً جدّاً، ثم إن الناس عندما يموتون تتضاعف أوزانهم، وأحبّ أن أحلّل ذلك على هواي، لأقول: إن أرواحهم هي التي تجعل من أبدانهم خفيفة لأنها ترفعهم مقادير لا ترى على أجسادهم، أو ترفع منها ما يجعلها خفيفة ورشيقة. على كل حال، سحبته، هبطت قبله إلى الحفرة، جعلت رأسه باتّجاهي، مسكته من تحت إبطيه، وضعت قدمي الصحيحة، ترستها في جدار الحفرة وشددت، انسحب بهدوء. كانت فكرة سديدة، قلت: مرة أخرى سحبته حتى نصفه، انهال ثقله عليّ ورماني إلى الخلف، وقعت على ظهري، وانهال رأسه على بطني، أحسست أن أحشائي خرجت من فمي، وكدت أغيب، تمالكت، شددت من عزيمتي، تململت تحته، حاولت أن أنسحب إلى الوراء، نجحت قليلاً، صار رأسه بين

فخذَيّ، وضعية تذكّر بأغرب أشكال الولادات، بدوت كأني أولده، يا إلهي تخيّلت أني امرأة تولد رجلاً ميتاً... هو تماماً بدا لي كأنه جنين، وبدوت كائناً خرافياً يولده. حصّلت وضعي، متّنت حيلتي، وضعتُ راحتي على الأرض، ونهضت ثم سحبته كاملاً، تمدّد بكل بهائه لكأنه أخذ الوضعية النهائية في الاستراحة. بعد اجتياز الألف ميل، شعرت كأنه تنفّس، مثلما فعلت، أطلقت زفيراً طويلاً من آخر أعماقي، وخرجت من الحفرة. نظرت نحو السماء، قافلة من الغيوم تشيّع نهاراً آخر، وسرب الطير يواصل الرحيل، هي الدنيا، قلت. جمعت بعض الأعشاب الصحراوية، رميتها فوقه، عُدت ونزلت إلى الحفرة، غطّيت وجهه بقميصه، وسوّيت الأعشاب، وضعت الطريّ منها على رأسه الذي جعلته مائلاً قليلاً نحو اليمين. عُدت وكشفت وجهه وتأمّلته، لكأني أردت أن أحفظ ملامحه إلى الأبد. قبّلته مثلما قبّلت أبي يوم قتل، ثم غطّيته من جديد. خرجت بتعثّر من تلك الحفرة، وبدأت أجرف الرمل براحتي لينهمر عليه. بدأت من ناحية القدمين، وعندما وصلت ناحية الوجه، عزّ عليّ، توقّفت قليلاً، نظرت في المدى الذي يتغبّش، سمعت عواءً بعيداً، ثم واصلت رمي التراب عليه، بعد قليل، بعد لحظة واحدة قبل أن يختفي وجهه نهائياً تحت التراب، بدا الأمر كأنه لم يكن إطلاقاً على هذه الأرض، توارى نهائياً، بقيت منه هذه الصور التي بحوزتي، صور تخصّ عائلته...

بكيت.

نعم بكيت مثلما بكيت أبي يوم قُتل. أحببت أن أضع له شاهداً، ولكن ما من حجر في هذه الصحراء، جرفت المزيد من التراب وجعلته تلّة، كنت أجرف وأبكي، أخفيت آثار دمه وطمرتها هي أيضاً كي لا تجلب برائحتها الوحوش بعد مغادرتي.

فكّرت أن أضع محفظته وهذه الصور فوق قبره، لكنني عدلت، لا أعرف لماذا تردّدت في ذلك، ربما راودتني مجدّداً فكرة السؤال عن مدينة أو بلد فيه شارع يحمل اسم الستّ بلقيس، لأهتدي إلى عنوان المصوّر، «عين الظلّ»، ولكن هذا التوقّع ليس أكيداً.

عندما انتهيت من مهمّة دفنه، جلست قربه، قرب القبر، الذي سوّيته على شكل تلّ من الرمل. كان الليل قد بدأ يزحف، بدأت الأشياء تتراءى كزواله، نحو الغرب، ما زال الأفق أحمر. نفضت راحتي، تناولت البندقية من جديد، ومن جديد رنّت في رأسي فكرة الانتحار، راودتني بنحو عابر، لا بإلحاح، وجدتني غير متحمّس لهذه النهاية، أو كالذي يجد في كلا الأمرين موتاً، أو أن همّتي لم تسعفني على هذا الفعل، وبرغم كل ذلك جرّبت ثانية. حملت الرشّاش بيد واحدة وحاولت التصويب إلى رأسي، بدا منظري يائساً ومثيراً للضحك، إذ إني تعثّرت في تلك الوضعية. في الواقع أردت أن أمتحن قدرتي على حمل الرشّاش بيد واحدة والتصويب به نحو الرأس، وهذا أمر شبه مستحيل، لذلك هويت معه فوق القبر، وبدا كل

شيء أقرب إلى المهزلة، إلى شيء سريالي. الوضعية المثلى للانتحار هي وضع فوهة البندقية في الحلق أو عند جوزة الرقبة، والضغط مباشرة على الزناد دون أي تفكير. هي تأتي وحدها، وما تلك الأفكار عن النتائج، كمثل سؤالي عن الذي سيواريني في التراب، كي لا تأتي الوحوش وتنهش بدني، هي ذرائع مفضوحة وسخيفة في آن واحد، لأنني لو فعلت وأطلقت النار على نفسي، لدخلت مباشرة في العدم، والذي سيحدث من بعدي، شيء آخر لا يخصّني على الإطلاق. أمّا تلك الوحوش المحتملة، التي تجتذبها رائحة دمي، فسوف تعود خائبة لأنها لم تجد فيّ ما تأكله، كل لحمي لا يشبع فرخ طائر من الجوارح...

لذلك طردت فكرة الانتحار نهائياً، وسكتّ.

فجأة وأنا أتّأمل في القبر، في ذلك الكوم من الرمل الذي كوّن قبراً لهذا الغريب، شعرت كأنّ بعضي دفن تحت هذا التراب. طغى عليّ هذا الشعور، فبكيت مجدّداً. أعلم أن البكاء يريح، يطهّر النفس، صرت أبكي بصوتٍ عالٍ، وأستدعي مسبّبات إضافية لاستدرار البكاء، استدعيت صورة أخي الذي نهشته الكلاب المسعورة أمام عينَيّ. استدعيت صورة والدي يوم قتله والد مريم، حملوني إليه وقبّلت جبينه. استدعيت صورة مريم حين ماتت على صدري وكنا نرعى المواشي. لا أعرف أكنتُ أستدعي تلك الأيام والفواجع، أم الفواجع تتسبب باستذكار أخرى. كنت أبكي وأنثر الرمل على القبر، وفي الفضاء كأمّهات بلادي

وهنّ يبكين الأبناء، إلى أن هدّني الحزن، وشعرت بتعب شديد حلّ عليّ دفعة واحدة.

وغفوت...

* * *

استيقظت على نَفَس يلفح وجهي، نفس حارّ، يشتمّني، ليعرف أكنت ميتاً أم لا. فتحت عينَيّ بلهفة، إذ ظننته للوهلة الأولى كلبي، ولكن ما إن تحرّكت حتى قفز مسرعاً، وبلمح البصر غاب في البعيد. شاهدته يجري في ضوء القمر كفريسة، ربما خاف مني حينما نظرت إليه وتراطمت نظراتنا، عيناه تلمعان على اتّساع مذهل، فرّ كالسهم. لم أقدّر ما هو، لكنّ رائحته التي بقيت، توحي أنه من صنف النمور، كان مجرّد تقدير، هو ليس ضبعاً بالتأكيد، إن رائحة الضباع نتنة، رائحته أقرب إلى رائحة الهرّ. وهذا يعني أنه من صنف النمور، على كلّ حال، لم أصب بأيّ رعب، كأن ذلك مجرّد حادثة عادية، لم أخف لأني متأكّد أني لا أصلح لهذا النوع من الضواري، فهشاشتي لا تثير أيّ نوع من شهيتها ومن غرائزها...

جلست، تفقّدت أشيائي التي هي دائماً في نقصان مثل جسدي، لكنها في المرة هذه، زادت عنصراً لم يكن في الحسبان، هي هذه البندقية اللعينة التي لا أعرف ماذا أفعل بها، أأقتل بها نفسي؟ أفرغ طلقاتها في الهواء وأنا أصرخ على هذا العالم، لكأني أطلق على

الزمان، الزمان عدوّي، أعلم ذلك، وهو فتّاك يتسرّب كالنعاس ويذيب الجذوات، يحوّلها رماداً...

ماذا أفعل بها. أحملها وأمشي، وأنا لا أستطيع حمل زادي، ثم ما نفعها لي، لعلها توقعني في فخاخ أكثر لعنة، وتورّطني في مصائب لم تعد لي قدرة على احتمالها...

شعرت بوحشة مضاعفة بعدما دفنت الغريب. لم يعد من أحد سواي هنا. كنت قبل ساعات مستأنساً بصحبة كلبي، فرند، شعرت أيضاً وعَرَضياً، أن هذه البندقية قد تسدّ فراغاً ما... صرت أوازن بين حسناتها ومساوئها. قد تفيدني في هذا الليل، وفي هذه المتاهة، أحمي بها نفسي! وممّن أحمي نفسي؟ من يعلم، قد تكون سبباً لبليّة أشدّ ضراوة مما حدث حتى الآن. مثلاً قد تمرّ بي مجموعة أخرى وترى هذه البندقية معي، وتسألني عن سبب وجودي مسلّحاً ووحيداً. هل ينفع أن أقول أنا راعٍ وفقدت قطيعي، أو إن عصابة نهبته مني؟ ولماذا هذه العصابة لم تنهب البندقية وتقتلني؟ سأجيب: عندما شاهدتهم خبّأتها في الرمل. دفنتها. وإذا سألوني عن هذا التلّ الرملي الذي هو قبر الغريب، فماذا أقول لهم؟

على كل حال، رسمت بضعة سيناريوهات لحوادث افتراضية مقبلة قد أقع فيها، أو تنتظرني، وهيّأت مجموعة من الأجوبة عن أسئلة من هذا النوع، لكن الذي فاتني، هو لو عاد هؤلاء الأوغاد أنفسهم وجرّدوني من سلاحي، بحجّة أنه لهم وقد سقط منهم. «جرّدوني!». رنّت هذه

الكلمة في أذني بغتةً، «جرّدوني!». عجيب كيف أن الأشياء والمواقف تفرض عليك استخدام عباراتها، بدأت دون تخطيط استخدام عبارات ومصطلحات عسكرية، كأني في جبهة حرب ضروس، خسرت معركتي، وجُرّدتُ من سلاحي. ضحكت من هذه الاستخدامات اللفظية، وقلت لا مانع لو بقيت معي موقّتاً، فحزمتُ أمري وقرّرت الاحتفاظ بها، وعلّقتها بكتفي، كجندي مهزوم عائد من الحرب، دون شك حتى لو لم أعترف، أو أريد ذلك. زادت قليلاً من منسوب عزيمتي. غريب أمر الأشياء كيف تصنع إضافات وحوافز، وكيف تسهم في بلورة سلوك ما.

وقفت أمام القبر، وقلت لحامد المقدسي أنت واحد من أهلي، أعلنك واحداً منهم، سأتركك وأغادر، سأتركك وأتابع سيري نحو مصير آخر. إن فزت ووصلت مدينة ما، فسأسأل عن شارع الستّ بلقيس، وأذهب بهذه الصور إلى استديو «عين الظلّ»... سأبلغ أهلك بما صرت إليه...

ومشيت.

صرت أتلمّس البندقية بين حين وآخر، وألتفت إلى بدني المائل إلى جهة الشمال، ليس لثقل الحمل بل لخفّته، وأعني خفّة بدني الذي ينثني حين أميل برأسي صوب اليمين أو الشمال. شعرت ثانيةً بخيط من الجسارة، أو القوّة المضافة، عندما تلمّست المشط الأسود الذي يحتفظ بعشرين طلقة. عبرني شجن ولفّ عنقي، اشتدّ حين تمنّيت لو

ألتقي صاحبي، كلبي، يقفز نحوي ويشمّني ويوقعني أرضاً، و«ينعص» فرحاً بلقائي، وأُبعده عني لأني لا أحتمل ثقله عليّ، ثم أضمّه وأحتفل به، وأطلق من أجله ابتهاجاً، كل هذه الطلقات وأرمي هذه اللعينة.

اشتقت إليه.

ثم صرت أعوي كما الذئاب الجريحة.

جرفني الصمت إلى قاعه، ابتلعني وهزّ ثقله الليل.

بدا نجم يلوح في ناحية الغرب.

تجدّد خوائي وشعوري باللاجدوى، فقدتْ كل الأشياء دفعةً واحدة، معناها... ولكن لا أمل لي ولا خيار سوى مواصلة المسير، فزاولت عرجي...

الفقـدان

جرى «فرند» طويلاً، طويلاً، وهدّه التعب، كان يجري بلهفة وراء تلك السيارة التي حملت صاحبه، يركض وينبح إلى أن صار نباحه متحشرجاً، بعدما بدأ يفقد الأمل بقدرته على مواصلة الركض خلفها. وعندما كانوا يناورون ليمتحنوا قدرته وسرعته، يخفّفون السرعة ليلحق بهم، فتعود إليه عزيمته، كان يشحنها الأمل، ولكن ما إن يصل ويصبح بموازاة النافذة ليقفز نحو عبد الجليل، حتى يدوس السائق دوّاسة البنزين، فتحفر العجلات الرمل وتحدث عاصفةً وهي تنطلق هائجة، فيختلط نباحه، بهدير المحرّك الجبّار، وبرجاء عبد الجليل، وبضحك الخاطفين وصخبهم. كان فرند يبتعد في العاصفة الرملية التي أحدثها اللاند كروزر، ويتحوّل نباحه إلى عواء جريح.

جرى طويلاً خلف تلك السيارة اللعينة، ولكن عندما خارت قواه،

توقّف، وهو يتأمّلها تبتعد وتغيب تدريجاً في السراب، أطلق آخر نباحه لكأنه يشيّع غياباً أبدياً لصاحبه، ثم أقعى وراح يميل برأسه يفكّر في سرّ ما حدث، يقلّب أفكاره وظنونه، دائماً عيناه في النقطة التي غاب فيها اللاند كروزر، هناك في الأفق الغامض والسراب المتوالد. بقي مقعياً وقتاً طويلاً يحرّك رأسه، يجوجل الاحتمالات، وعندما بدأ يخيب أمله باحتمال إطلالته من جديد، أطلق عواءً ناحباً، غيّر مزاج الوقت، فاكفهرّ الفضاء...

بكى فرند، على أول متاهته، لا يدري ما حدث، ولماذا خطف هؤلاء الرجال صاحبه، لا يدري شيئاً ولا يعرف إلى أين يسير. لكنه في نهاية الأمر تبع حاسته، شيء ما صوّب مساره، ربما رائحة عبد الجليل، ولكن على عكس موقعه، الرائحة كانت تأتي من الوراء، من ناحية وادي الدموع، فتسكّع نحو وادي الدموع، هكذا قالت له غريزته، جرّته، أو قادته نحو الوادي.

لم تكن وادي الدموع بعيدة كثيراً، عن الموقع الذي هو فيه، هي أقرب بكثير من المكان الذي أصبح فيه عبد الجليل. لذلك كان يستحيل على فرند أن يشتمّ رائحة صاحبه، على بعد كل تلك المسافة التي قطعها اللاندكروزر إلى ساحة الجريمة، ومن ثم، لا يعرف فرند، ولا استطاع اشتمام ما حدث لصاحبه هناك. كانت بقايا الرائحة في وادي الدموع أوضح، وحافزاً إلى العودة، فعاد إلى تلك الأمكنة التي بات فيها مع صاحبه وتسكّع معه في مرابع الطفولة، حيث روى

له عن الجدّة والأهل، ومواسم زواج الطير. عاد فرند وراح يبحث في تلك الخرب والبقايا، عن أثرٍ لعبد الجليل، دخل خلف السور المتهالك لبيت الأهل، حيث احتميا ليلة أمس من المطر وسقطت تلك العارضة من السقف وأخافته، دخل الخربة، لا أحد هناك سوى رائحة البلى والهجران... فرند هو خبير كبير بالروائح، أكثر من صاحبه عبد الجليل الذي غالباً ما قادته حاسّة الشمّ إلى مسارات لم يخطّط لها. كان يعرف المساجين من روائحهم، يعرف الخائف والمتوتّر، واللامبالي السئم، لقد دُرِّب بطريقة احترافية على التفريق بين السجين والسجّان، بين الزائر المغرض وعابر السبيل، ولكن صحبته لعبد الجليل عدّلت بعض ردود فعله. على كل حال، هو الآن عاد كلباً شريداً، مثل صاحبه الجديد عبد الجليل، كلاهما شريد وغريب وفرّقت بينهما الأيام.

تفقّد فرند في نواحي الخرب، تحت السقوف التي صمدت في وجه الزمان، ثم قادته غريزته إلى المدرسة. توقّف في الملعب، تأمّل في الجهات، صعد درجات المبنى، أطلّ برأسه نحو الداخل، شاهد صورة القائد، تراجع، حرّك ذيله حذراً، نبح ثم زمجر قليلاً وغادر... ربما رأى شيئاً ما لا يروقه في صورة القائد، وهو قد اعتادها من زمان عندما كان كلب السجّان، موزّعة في أنحاء السجن وفي غرفة آمره الذي كان في حالات سكره المتقدّمة، يفتح حواراً مع صورة القائد ويشرب نخب مروءته... فيفتح فرند شدقه دَهِشاً بتلك العلاقة العبثية بين آمر السجن

والصورة. لعله الآن تذكّر تلك اللحظات من حياته يوم كان كلباً شرساً يأتمر بأوامر سيّده. وينهش سيقان السجناء الذين كانت تُدبّر لهم فرص هروب فقط لتخفيف الفائض منهم، وكانت بعد قليل تطلق خلفهم في الصحراء تلك الكلاب المدرّبة على الافتراس.

فرند، ليس تماماً واحداً منها، بل كان أكثرها دلالاً في السجن. كان يبقى على الدوام برفقة سيّده، لكن هذا الامتياز الذي كان عليه، لا يلغي خبرته في المطاردة وجرّ الفريسة من الساق، كانت مهمّته العودة بالسجين الهارب حيّاً، وكان ينفذ ذلك باحتراف مذهل.

تغيّرت الدنيا، صار كلب السجّان، كلباً للسجين الذي هو عبد الجليل، ثم صار شريداً ووحيداً وحزيناً. ربما عندما التقى عبد الجليل تحت شجرة السدر، كان يتربّص به لتنفيذ تلك المهمّة، لكنه وجد فيه كائناً هشّاً لا يصلح لشيء، كذلك كانت قواه شبه خائرة، بعد حادثة تدمير السجن وخروجه حيّاً من بين تلك الفتحات التي أحدثها القصف، كان شبه حيّ، شبه كلب لا يعرف إلى أين يسير.

على كل حال، هذا نوع من التقدير. لكن تلك الصحبة التي انعقدت بينهما، بينه وبين عبد الجليل كغريبين وشريدين، هي جوهر ما سيكون عليه مصيره، وهي التي بدأت تحرّك مساراته في هذه المتاهة. لا أحد في المدرسة سوى صورة القائد، بقايا مقاعد خشبية مهترئة متداعية نخرها السوس، وروائح، بقايا روائح لطفولات مرّت سريعاً هنا قبل الشتات. لا يعرف فرند أن هذا الذي يبتسم ابتسامة مصطنعة في الصورة، هو

الذي أمر بإبادة وادي الدموع، بشراً وشجراً وحيواناً وطيراً. لا يعرف، لكنه كان يشتمّ في صاحبه عبد الجليل رائحة حزن وحسرة، ويشتمّ في الخرب رائحة حكايات بشرٍ غادروا على عجل، منهم لم ينتعل حذاءه، إذ إن عدد الأحذية في وادي الدموع، كان كبيراً... أحذية للكبار والصغار والنسوة مبعثرة في الأزقة. كان فرند يشتمّها، يتفحّصها وتزيغ عيناه في عبد الجليل.

عظيم فرند، هكذا كان يراه عبد الجليل، لأنه آنس وحدته، وخفّف عنه عبء الوحشة والذكريات والأسئلة.

عاد فرند واتّجه نحو المقبرة، تسكّع بين القبور، بدا سئماً فاقداً الأمل، بقي قليلاً حيث جلس، قبل ساعات قليلة، عبد الجليل، وخاطب جدّه... دائماً يحرّك رأسه شمالاً ويميناً ويميل برقبته، لكأن فكرة ما عالقة في مؤخّرة رأسه يحاول استدراجها إلى الموضع الذي تتضح فيه الأمور. ربما هذه الحركة هي من بوادر الشعور بالوحدة، ومن علامات الحزن الذي بدأ يتسرّب إلى قلبه، وهو ظاهر بوضوح في عينيه الدامعتين.

بعد استراحة قليلة في المقبرة والتأمّل في السكون المُطْبق على هذا العالم الغائب الممعن في الغياب، وقف فرند، لكأنه توصّل إلى معرفة ما سيقوم به. انتفض من جرّاء رعشة عابرة أصابته، أو هي دلالة على شعور ما قد انتابه، ثم توجّه بخطّ مستقيم وثابت نحو السفح، وصعد باتّجاه قمّة الجبل، الجبل الطائر. اختار الموقع المناسب لمعاينة الجهات، ثم

أطلق صوتاً ليس بنباح ولا بعواء، صوتاً تقشعر له الأبدان لما فيه من احتجاج ومرارة، لكأنه يختزل في ذلك الصوت الأقرب إلى العواء، كل أحزان بني جنسه وفوقها أحزان البشر والدواجن الأخرى التي تُساق إلى الذبح والنحر. عوى بصوت الفجيعة الكبرى فاختلّ ميزان الوقت وارتجّت الصحراء وبرق على خطّ الأفق ضوءٌ باهر جرح السماء من أولها إلى آخرها، وفرّ من كهف الجبل سرب هائل من الطيور، محدثاً زعيقاً كونياً، وجلبةً هائلةً مخلّفةً تيّاراً من الهواء طيّر غرّته ووبر بدنه. هذا السرب هو الذي شاهده صاحبه قبل أيام، أخذ من الجبل الطائر محطّة للاستراحة والتزوّد بالماء والعزيمة. هذا الجبل هو منذ بدايات الزمان محطّة للطيور المهاجرة، وللتزاوج.

كان ذلك في أول الغروب، حينما كان عبد الجليل يدفن القتيل. كان فرند يطلق عواءه الكوني، فيرتجّ الجبل والصحراء. تُرى من يسمع؟ من يسمعه في أول هذا الليل؟ والذين قد يسمعون، هم قتلة خطفوا صاحبه وأطلقوا النار على غريب آخر. من يسمع؟

كان فرند يعوي لا لكي يسمعه أحد، كان يعوي احتجاجاً على هذا الاختلال المروّع في العدل، ومن فرط الوحشة والحزن في الوقت نفسه، كان عبد الجليل أيضاً يعوي بعدما دفن قتيله، أو الذي صار قتيله، ونفض اليدين من الغبار. عوى عبد الجليل محدّقاً إلى السماء، سماء الله العالية... أراد أن يذبح الزمان، أو يفلق القبّة الزرقاء على غموض الكون ومجاهله، ولكن لا أحد هناك سواكما، أيّها الغريبان.

عندما حلّت العتمة، تمكّنت من إحالة العناصر إلى الغياب الموقّت، أقعى فرند وتأمّل كما صاحبه في السماء، تأمّل عالياً حيث تتوالد النجوم وتموت أخرى، تنطفئ بعد اشتعال عمر مديد. تأمّل فرند عالياً، وفرند لا يعرف بأمور الكون ولعبة الزمان، فرند هو كلب حزين فقط، أضاع أعزّ ما عنده، صديقه عبد الجليل، وصارت حياته ابتداءً من تلك اللحظات التي غاب فيها عبد الجليل في السيارة المرعبة عبر السراب والغموض، صارت حياته ناقصة نقصاناً هائلاً. وحده يعرف كم هي كميّة النقصان، والشعور بالتلاشي، وحده يعرف كم هو حزين الآن، وتقديرات الآخرين من بشر ودواجن أخرى وطيور، هي تقديرات ترجيحية، تصلح للكلام فقط ولا تشفي.

كان فرند يتأمّل عالياً في السماء، لمعت نجمةٌ في عينه السوداء، لمعت في الدمع الحبيس، كانت النجمة تومض كأنها تبعث بإشارات إلى سكّان الأرض، دون استثناء أحد من فصائلهم، بشراً كانوا أو كواسر أو طيوراً أو دواجن. النجمة من هناك لا تفرّق بين العناصر والأشياء، كانت تبعث بإشارات فقط لتخفّف عزلة بعض الكائنات. صار فرند يتمعّن أكثر فأكثر في وميضها، يحرّك رأسه، يميل به نحو كتفه لكأنه يفكّر في سرّ النجمة، في سرّ ضوئها، في سرّ إشاراتها. وكلما حرّك رأسه تحرّك بريقها في عينيه. أحبّها، نبح عليها متودّداً، أراد أن يداعبها، نبح عليها ثانيةً، وماءَ كالقطّ، ورقص ذيله، وصلتها الإشارة، تلقّفتها على الفور، عرفت أنه أحبّها، فزادت من لمعانها، وبثّت حزمة من

الضوء أضاءت بها غرّته ووجهه. صارت تحرّك بقعة الضوء على وجهه وترميها على الأرض، فيداعبها بقائمتيه، يحاول التقاطها، يشمّها، يتمدّد، يتمرّغ بها، ثم ينهض، ينتفض، يرتعش، يفتح شدقه، يضحك، والنجمة تواصل بثّ أحزمة الضوء، أحبّت غرّته، وعينيه، خاصّة عينيه السوداوين المكحّلتين الكبيرتين، والحزينتين. صارت تومض في عينيه، تغمزه فيقفز نحوها وينبح، ثم يصدر أصواتاً تشبه أصوات الأطفال.

هدأ فرند، هدأ وواصل التمعّن في النجمة، شاهد فيها إخوته ملتصقة بأثداء أمّه... أمّه ممدّدة على النجمة، ظنّ أنها شاهدته فنبح، نبح كثيراً، لكن أمّه لم تسمعه. حدّق كثيراً في استرخائها متلذّذة بإطعام الجراء إخوته، ثم تذكّر أنه كان هو واحداً منها، لكنه لم يستطع تمييز نفسه بين هذا الكوم من إخوته وهي ترضع من الأثداء، ويُراق بعض الحليب على جنبات أفواهها، نبح على طفولته بحنين عظيم. نبح مناجياً ذاك الزمان البريء...

بدأت الصورة تختفي تدريجاً، وبدأ خيط الحزن يلفّ فرند. سقطت دمعتان من عينيه على تراب الجبل، برق ضوء النجمة أكثر في عينيه الدامعتين، ثم هبّ من الأصقاع البعيدة هواء رطبٌ داعب غرّته وفروه، أومأت له النجمة مرّات عديدة أن يستلقي، أن ينام لترسل إليه قافلة محمّلة بالمنامات. فعل فرند، تمدّد ونام. كان الهواء الليلي يداعب غفوته برفق قبل أن تصله من النجم البعيد، صرّةٌ من منام...

النجم هو نفسه الذي كان يحدّق فيه عبد الجليل في تلك الاثناء،

لقد اعتاده منذ سنواته الأولى في تلّة سليمان عندما كان راعياً، كان يستلقي على ظهره ويتأمّل في السماء حيث يسرقه لمعان هذا النجم وهو يتوهّج ويخفق ويتراقص. لكأن ظلالاً شفّافة تحجبه، أو ظلال ستارة من حرير حليبي، كان لمعانه في تلك الليلة شديداً ومغوياً ومثيراً. فكّر عبد الجليل أن فرند يراقب النجم وينبح نباح الودّ، مثلما كان يفعل على البدر، تخيّله تماماً حيث هو على قمّة الجبل الطائر، يميل رأسه نحو كتفه، وينبح على النجم العالي الذي يداعبه ببريقه. أحس عبد الجليل بقوّة هائلة تشدّه إلى الأرض، فتوقّف عن المسير وفكّر في العودة إلى وادي الدموع.

***

وقفت.

نعم وقفت، أحسست بثقل يشدّني إلى الأرض، جلست، تمدّدت على ظهري، مثلما كنت أفعل دائماً على سطح بيتنا في تلّة سليمان. أتمدّد وأعدّ النجوم، برغم تحذيرات جدّتي من الثآليل التي قد تنبت في أصابعي. لا شيء نبت في أصابعي يا جدّتي سوى رعشات حنين لتلك الأيام. لا شيء يا جدّتي، لا شيء يستحقّ الذكر مهما بلغ من عتوٍ واستثناء، فقط ترينني يا جدّتي أتذكّر، وصورتك ثانيةً ألحّت عليّ في هذا الوقت، ولا أدري لماذا ألحّت، هل هي روحك حامت حولي في هذا الليل، والعزلة، لترافقني وتخفّف حملي؟

المهمّ تمدّدت على ظهري وصرت أعاين بزوغ النجوم واحداً تلو الآخر وهي تتشكّل حول ذلك النجم الشديد اللمعان، وأتخيّل كلبي هناك على قمّة الجبل الطائر في وادي الدموع، يحرّك رأسه متفحّصاً سرّ البريق، أتخيّله مثل ما هو عليه فعلاً، لكأني رأيته، ممعن التحديق في السماء، ينبح على نجم يداعبه، ويضرب بقائمتيه بقعة ضوء رماها النجم، يتمرّغ فيها، ثم يجلس فاتحاً شدقه على ضحكة صغيرة، تلمع عيناه السوداوان ويشتدّ بريقهما، وحزنهما.

حزينتان عيناك أيها الصديق، دائماً هما حزينتان، منذ انسلاخك عن بني جنسك، بدأ يزداد منسوب الحزن في عينيك، مثل البشر الذين تفرّق بينهم الأحوال. أستطيع أن أعرف استفحال الهجر أو العزلة في حياة الآخرين من عيونهم، كذلك شقاواتهم في العشق تظهر في بريق العينين.

أعلم أنك الآن حزين، ومستوحش، لا يستطيع النجم فعل شيء حيال الحزن، سوى تخفيف عابر لوطأته، لثقله. بعد ذلك ستعود إلى بحثك عن مخرج لوحدتك، سيصبح نباحك عواءً جريحاً، نوعاً من الاحتجاج والمناجاة، مثل العواء الذي أطلقه أنا بين حين وآخر وأنتهي إلى نوبات من الضحك أو الصمت.

ليتك تعلم يا صاحبي، أني الآن أفكّر فيك وأن صورتك لا تفارق مخيّلتي، تُرى هل تتخيّلني مثلما أتخيّلك؟

هل تراني ممدّداً على ظهري مثلما أراك مقعياً تحرّك رأسك وأنت

تتأمّل في قبّة سماء ملأى بالنجوم، يشغلك نيزك فلق العتمة بسطر جارح من الضوء، أراه الآن... هو الزمان يرمي بالشهب إلى الوادي الذي ولد فيه، لتجفل طفولته الغافية في أدغال شجر الصنوبر، مثلما جفلت الحجال يوم حملتنا البغال وعبرنا ذلك الوادي وقال لي والدي هذا وادي الزمان؟ من سمّاه يا أبي؟ سكت أبي يومها وبقي الاسم كالوشم في بالي...

هل تراني يا صاحبي؟

أغمضت عينَيّ على صورة الشتات.

* * *

ثانيةً راودتني فكرة طيّ هذه الصفحة، فكرة الانتحار، ووضع خاتمة مشرّفة لكل هذه الأسئلة، لكل هذه الذكريات، خاتمة تنهي تلك الرحلة التي لم أخطّط لأي خطوة فيها.

بدأ حزني على صاحبي، على كلبي، يزداد غوراً في نفسي، يبدو أنه أسهم في تصويب مساري إلى حدٍ ما، وأعطى هذا الجزء الباقي من حياتي معنىً، ردم فراغاً، أو نقصاناً لازمني وقتاً طويلاً، وخفّف آلامي، وردّ لي بعض البهجة. هذا الفراق ليس فقط إضافة أخرى إلى جملة من خسارات، هو شيء أعمق، رغم أن صداقتنا جديدة، لم تعتّقها التجارب والأيام، بل شدّت رباطها صدفٌ وحوادث وذكريات، يكفي أنه أصبح موضع سرّي وحكايتي. لقد حكيت له كل شيء منذ طفولتي

في وادي الدموع، في «شقلبان» جدّتي أتطاول بجسدي لأعفّر حبّات بلح من نخلة الدار، إلى شتاتنا مع أهلي في الطريق إلى تلّة سليمان حيث تعلّمت الهوى مثلما تعلّمت قطف الرمّان، وصرت راعياً ومجنوناً ومفتوناً بمريم. حكيت له كل حياتي من ألفها إلى ما قبل يائها، وكنت أراه يحزن عندما أسرف في حديثي عن السجن، أو عن موت مريم، ويفرح عندما أصف له النساء، منهن زينب وهي تتعرّى لتستحمّ في نهر العجائب. أصبح يعرف عني بمقدار ما أعرف عن نفسي، أكيد، هو يعرف، لأن ردّات فعله ونباحه وتحوّلات نظراته وبريق عينيه، كلها كانت تشير إلى أنه أصبح مخزن أسراري.

رأيتني واثقاً بأنه يتخيّلني مثلما أتخيّله، وأنه اختار قمّة الجبل الطائر ليتمكّن من بثّ أشواقه من ارتفاع لا يحجبه شيء. ولكي أراه دون عناء، إذا ما عقدت العزم على العودة إلى وادي الدموع، اختار المكان المناسب كي يعاين الجهات باحثاً عني أُطلُّ من السراب، مثل غيمة تعبر السماء...

أعتقد أن ذكاءه جعله يلجأ إلى ذلك المكان، لأنه مسقط رأسي وحنيني.

تملّكت مني فكرة العودة للبحث عنه ونسيت فكرة الانتحار، أو أنا طمرتها في مكان ما، موّهتها بفكرة أخرى، فكرة العودة. عاينت السماء لأستدلّ بالنجوم على موقع الوادي. يا إلهي، التبس موقعها في خريطتي الفلكية، لم أستطع تحديد جهة لها في هذا الليل برغم بريق

النجم الغارب الذي يشير دائماً إلى أن البدايات ورائي من ناحية الشرق. ووادي الدموع في الشرق، نسبة لما صرت إليه، لكن الآن وقع خلطٌ لا أعرف مصدره والتبست عليّ الجهات. لكن في كل الأحوال، في أيّ جهة كان وادي الدموع، فإنه يحتاج إلى مسير ليل كامل وضحى، لذا تراني أسير تاركاً ورائي النجم وقبر الغريب. سأواصل هذا التيه إلى أن أغلبه أو يغلبني، سأمشي، دون تردّد، لأن التردّد نوع مجحف من الانتحار البطيء. وتردّدي ناجم عن عدم يقيني من إيجاد كلبي في وادي الدموع، فإذا لم أعثر عليه هناك، أكون قد عدت إلى ما يشبه نقطة البداية. أيّ بداية؟ أيّ بداية أيّها الكائن الأجرب، أنّبتُ نفسي صارخاً بها أن تكفّ عن تحليلاتها الخرائية. كل نقطة في حياتي، هي بداية، الآن أنت يا عبد الجليل، تماماً في نقطة البداية على أولها، بعد يوم طويل من تصرّف أبناء السابلة بك، انتهى بحياة جديدة لك، وبمقتل هذا الغريب الذي سمّيته حامد المقدسي.

سِرْ في الجهة التي تناديك، اتبع غريزتك، إذا أردت النجاة فغريزتك هي التي تصوّب مسارك الصحيح، وإنْ أردت العكس، اتبع عقلك وتحليلاتك الخرائية، لديك عكّاز وماء وبقايا طعام، ولديك آلة الموت تلك التي أضيفت إلى أحمالك، ولديك لمعان الزهراء في سماء صافية، ولديك هذا، ليلٌ آخر طويل، وبدن ما زال يحتمل المسير برغم نقصانه وأعطابه. أمامك أمران: إمّا الانتحار، وإمّا مواصلة المسير، وخيار الانتحار يبدو متأرجحاً، لم تحسم أمره، مثل خيارك في العودة إلى

وادي الدموع بحثاً عن كلبك. تعرف لماذا يا عبد الجليل أنت متردّد؟ لأنك جبان وتافه. ما نفعك، أنتَ أيها الجيفة، تتردّد؟ ممَّ تخاف؟ من الموت؟ أنت ميت يا عبد الجليل، ميت من الضياع، أنت في ذروة التيه، في قلبه يا حمار. إذاً ممَّ تخاف؟ لماذا ترتجف يدك كلما هممت بالتصويب نحو رأسك؟ إلى هذا الحدّ عزيزة عليك هذه الحياة التي لا حياة فيها يا خرى؟

اقتل نفسك، أو سِرْ. سِرْ. سِرْ... لا تنظر إلى النجم المغوي، ولا إلى الجهات المضلّلة، الليل أصلاً هو جهة واحدة، امشِ فقط، سِرْ في جهة الليل، لا تفكّر في الوصول، فقط سِرْ... سِرْ.

أمشي...

* * *

صحوت على نفسي أصرخ، بكلّ عزمي، في جهة الليل سِرْ... في... سِرْ... في... سِرْ...

فمشيت، زاولت عرجي الطويل.

صرت أتعثّر بأشياء غريبة عن طبيعة الصحراء، بقايا معدنية، قوارير زجاجية، إطارات متفحّمة، أشياء أخرى صلابتها هشّة. أمامي على مسافة غير بعيدة، بانت أكوام هائلة لأشياء غريبة، تلال سوداء مترامية على شاكلة قافلة غير منتظمة، كأن شيئاً بعثر انتظامها. أكوام متنافرة ليس فيها انسياب الكثبان وانزلاقها الأنثوي حين يداعبها الهبوب. شممت

رائحة معدن محروق، لكأنها كتل من صفيح سقطت من السماء. تردّدت في التقدّم نحوها فصرخ بي صوتي، التردّد انتحار مجحف. تابعت، جذبتني رائحتها، مثلما تجذب رائحة الدم الوحوش الضارية، ذكّرتني برائحة تُشبه رائحة يوم من أيام بيروت، حين رُميَتْ بآلاف الأطنان من القنابل، وكنت على سفرة الدرج في حضن هدى، جذبتني أكثر تلك الرائحة وبدأت تتضح شيئاً فشيئاً مع اقترابي. يا إلهي، إنها قوافل آليات عسكرية مفحّمة، تمتدّ نحو الأفق البعيد... اقتربت أكثر، تعثّرت بشيء تدحرج أمامي، انحنيت لأتبيّنه، إنه جمجمة إنسان. اقشعّر بدني، عبرني خيط حادّ من الرعشة.

صفير يشبه النحيب، كان يحدثه الهواء الذي يدخل في الفتوحات المعدنية. شيء آخر تعثّرت به، «قرقع» وتفكّك وتدحرج، أسرعت خطواتي على قدر عزيمتي لكأني أردت الهروب من هذا الفخّ الآخر. ولكن يبدو أني علقت به، فخّ طويل من بقايا حطام بشري وقوافل من آليات عسكرية، وصهاريج متفحّمة.

يا إلهي.

اضطربت صورة العالم أكثر في رأسي، وعصفت أفكار وأفكار. برق بعيد في الأفق.

صرت أمشي وأقف، أنصت للصوت الذي يحدثه الهواء حين ينفخ في الفتحات المعدنية لهذا الركام، الممتدّ على آلاف الأمتار، لكأن آلهة تعزف موسيقى الفناء في عالم مهجور.

كان الصوت يروح ويجيء، يشتدّ ويخفت مع حركة الهواء، أحياناً يتحوّل عويلاً وصراخاً يذبح الليل من أوّله إلى أخره، فيقشعّر بدني، وتتلاشى قواي. كنت أحسّ به يعبرني كنصل أو سهم فأتفقّد بدني، أتحسّسه. صار الهواء يشتدّ أكثر فأكثر، والصوت يتضاعف في نحيبه، مئات الأشكال والطبقات من الأصوات تصفر. كاد الهواء يقتلعني، وكادت الأصوات الناحبة تمزّق رأسي، فجثوت، رميت أسمالي وزادي ومائي وعكّازي أرضاً، ورفعت يدَيّ نحو النجم البارق في قبّة السماء، لا أدري ما هي القوّة التي جعلتني جاثياً متضرّعاً خاوياً، يتحشرج الكلام في حنجرتي. صرت أنشج مثل كمان يودّع عاشقاً أندلسياً في مناماتي الأولى، صرت أنشج، والنجم يغويني في عبور غامض نحو مجاهل الكون، يناديني بإشارات إغراء تحفّز على رحلة في أعماق النفس الكونية... وما أدري سوى أني صرت في رحلة على غيم أبيض وبصحبتي سرب من الطير. صرت أرى نفسي من علٍ في أكثر من مكان وزمان.

خلف والدي على ظهر بغل، وجدّتي على دابّة أخرى تتأرجح، وتغنّي الفراقيّات، وأمّي خلفنا على بغلة أخرى، كعادتها نحيلة وحزينة وصامتة. ثم أراني حاملاً عكّازي وبصحبتي كلب أقلِّبُ طيّات الصحراء... أنام تحت شجرة السدر، ورأيتني مكوّماً في صندوق سيارة، ثم في شاحنة معصوب العينين أشمُّ رائحة نتنٍ بشريّ، بادلوني على الحدود بمساجين آخرين، ثم حملوني إلى السجن الصحراوي

على طرف البلاد، ورموني هناك خلف الأسوار. جاء رجلٌ عملاق، رفعني وعلّقني في السقف مدّة يومين، وحين أنزلني، وجدتني نائماً قرب امرأة عارية، يرشح جسدها دماً وعرقاً. وحين حاولت النهوض رأيتني نصف مشلول، نصف إنسان، يا ابن العاهرة قال لي؟ ورفسَ قفص صدري فغار وجعي في أعماق روحي، وسكتّ بعدما خرج حرف الخاء من فمي كحشرجه ذبيحة، آخ...

ورأيتني أعبر حقلاً من الأشلاء البشرية، ثم أصل باباً أسود، طرقته ففتح لي شيخ جليل، قال لي اذهب نحو الغرب، استدلّ بالنجم، تصلْ إلى غابة السنديان، اعبرها، اتبع طريق الماشية والبغال، تصل إلى بيت عتيق، هذا مفتاحه، وعلّق المفتاح في رقبتي، بخيط من القنب، له رائحة ماء الورد. ذكّرتني الرائحة بالجوري، بين ثديي مريم حبيبتي...

ولأني تذكّرت مريم، صرتِ أبكي فمسح دموعي وقال لي قد تجدها تنتظرك في البيت العتيق...

ثم رأيت نفسي أجرّ ساقي ويتبعني كلبي في وادي الدموع، وأدخل مدرستي الأولى.

ثم رأيتني أنتحب في طريق موحل، وأمّي تجرّني من يدي إلى المدرسة، وأنا أتوسّل إليها وأستحلفها بالله وبروح جدّي أن تعفيني من تلك الكأس. أقول لها يرحم تراب بيّك يا أمّي رجّعيني عالبيت. وأنشج وقد بُحّ صوتي وجفّ حلقي. وأمّي تجرّني كذبيحة الأضاحي، لتُسلِّمُني إلى يد معلمي الأول، تتركني هناك أمام المجهول. أحسست

حينها أني سأضيع إلى الأبد، وأدخلني معلمي إلى الصفّ حيث رأيت الكثيرين مثلي، منهم بكى لبكائي، ومنهم ضحك وسخر مني. وبدأت أحبو نحو الحرف الممتدّ ألفاً والمُحدودِب جيماً، والذي يشبه قِدْراً مبلطحة من الفخّار، ثاءً، أو تاءً أو باءً... ويا ليتني ما تعلّمت فكّ اللغز لكنت عُفيت من التيه وبقيت راعياً في سهوب تلّة سليمان أغنّي فراقيّات جدّتي.

ثم رأيت نفسي في باخرة تنطلق من بيروت، ويلوّح المودعون بالمناديل البيض وبالبنادق. أطلقوا رصاصهم في الفضاء فهبَّ النورس وشارك في فعل الوداع.

ثم رأيتني ثانيةً على ظهر الغيمة البيضاء بصحبة الطير تنزّهني فوق البلاد. فجأة هبّت عاصفة وطيّرت الغيمة، نتّفتها ككومة من القطن، وبعثرتها في السماء وتبلبل السرب المصاحب لي في الزرقة نحو المجهول، وراح يزعق مجنوناً تتقاذفه الريح، ثم رأيتني أسقط على سطح بيتنا العتيق، في تلّة سليمان، على كومة من القطن، فاستويت على ظهري، ثم رحت من جديد أتابع العدّ، أعدّ النجوم وأُخطئها كلما وصلت إلى المئة، إذ إن الزهراء كانت تغويني ببريقها، وتشتّت ذهني حين تتمايل كامرأة تتعرّى في الضباب الكوني، ثم نادتني جدّتي أن أنزل قبل أن تنبت في أصابعي الثآليل، وتابعت غناءها، وقد زاده العمر عتقاً وحزناً وصار غيماً عالياً.

يا نجم الصبح يا غاوي تاهوا الصحاب

دلن ع بيتُن قبل ما تدشر الدياب

سنين مرقت والعمر مثل السحاب

يا مين يرجّعني صبيّة تنطر خلف البواب

وينك يا عبد الجليل؟ جاءني صوتها من النسيان... أنا هنا يا جدّتي في البادية، حيث حملتني ذات يوم قافلة البغال من وادي الدموع. أنا هنا على باب الله مثلما كان يقول والدي حينما كنت أسأله. لوين رايحين يا بيي، يقول على باب الله. تذكرين يوم طلب منك غناء الفراقيّات، بعدما صعدنا غابة الصنوبر، وكانت الحجال تفرّ هلعاً من فرقعة حوافر البغال، كنت تمتطين بغلة مزيّنة، في رقبتها طوق من الخرز الأزرق والأحمر والأصفر، وقد خطّ جبهتها سطر من اللون الرمادي، وأمّي خلفنا على دابّة أخرى، كانت تتنهّدُ، وتعدّ ما نسيته في البيت من حاجات وآنية وصور... لم تحمل معها شيئاً سوى الحسرات.

غنّي لي يا جدّتي، كي أغفو مرة أخرى على نهايات هذا العالم، غنّي لي، غنّي لي... غنّي...

وغنّت جدّتي ونوّحت كعادتها:

يا نجم الصبح يا غاوي وين الصحاب

ركبنا يوم الشتات أربع دواب

واحدة مزيّنة بنجمة وحجاب

واحدة مزيّنة بطوق خرز وكتاب

واحدة محنجلة مدبّلة الهداب

يا ريت تردّن بعد طول غياب

وتنهّدت جدّتي...

وغفت في القبّة العالية الزهراء...

أحمد علي الزين إعلامي وروائي لبناني.
عمل في الصحافة المكتوبة والمرئية والمسموعة منذ أواخر السبعينيات.
ومنذ ٢٠٠٣، يعدّ ويقدّم البرنامج الثقافي «روافد» على قناة «العربية».
صدر له في الرواية «الطيون»، و«خربة النواح»، و«معبر الندم»، ونصّ مسرحي بعنوان «رؤيا...».

«خفق الضحى، لكأنه كائن ذكوري يلهث من فيضان النشوة والاشتهاء، وهذا الخفق هو هبوب الهواء الدائم على ذلك المجرى. حلّقت فوق جسد زينب طيور جاءت من قيعان الأودية، ومن السهول البعيدة، حطّت على الشجر المجاور، بخفر وخشوع، وبعرفانٍ ليد الخالق التي سوّت هذه القامة. صدح عند المصبّ غناء أنثوي جارف، هي راعية مولعة برشيد الذي مات.

غنّت، فطرب الطير.

شدّت زينب براحتيها على النهدين، كي لا يفضحهما الطير، أو تحسّباً لأيّ عين تتلصّص على هذا التورّد والرمّان».




ISBN 978-1-85516-647-9
9 781855 166479 >